أحمد حسن الزيات

# وحي الرسالة

## فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص

المجلد الثالث ـ الطبعة الخامسة

١٣٨٤ ـ ١٩٦٤

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

مطبعة الرسالة
شارع محمد الفارابي ٣ عابدين

# مقالات

# بعد الاعتكاف

( ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٤ )

وجدتُنى بعد خروجى من المستشفى أشبه بالآلة الميكانيكية الموهونة ، تزلزلت مفاصلها وانحلت عُراها ، فشدوا بعضها إلى بعض بخيوط غليظة بالية . فكنت إذا نهضت نهضت متحاملاً على ذراع ، وإذا مشيت مشيت متثاقلاً على حذر . وتلقيت على هذه الحال دعوة المجمع العلمى العربى بدمشق إلى مهرجان المعرى ، فارتحت إلى هذه الدعوة ، لأنها ستتيح لى سعادة النفس بلقاء الإخوان ، ومتعة العقل بشهود المهرجان ، وصحة البدن بهواء لبنان ، وتأدية الواجب لشيخ المعرة .

ولكن السفر شاق ، والأمد بعيد ، والآلة الهشة لا تزال من الوهن تميد وتتخلع . فقررت الاعتكاف عن دنيا الناس حيناً من الدهر تحية وزلفى لإمام المعتكفين فى مهرجانه . وقلت لنفسى : هى خلوة وفية يتوب فيها الجسم ، وتصفو بها الروح ، وتشف بيننا وبين أبى العلاء الحجب ؛ فنخلو إلى روح الشاعر فى كتبه ، ونجلو لإخواننا المحتفلين فناً من أدبه . ووقفت بنا السيارة على باب صومعتى الريفية فى ضواحى المنصورة ، وهى قائمة وحدها بين الحقول الخُضر والأشجار الغين ، كما كان يقوم عش آدم فى الجنة حين لم يكن على الأرض إنسان غيره وغير زوجه . فدخلتها دخول الناسك الشريد وجد الظل والماء بعد وقدة الهجير وشدة الظمأ . وهبّت على الجسد العليل نفحات النسيم البحرى فأذهبت عنه ما أرمضه فى القاهرة من لفحات يوليو القائظ . وغمرنى السكون الريفى الحى فى المنزل والحديقة ، وفيما حولها من مزارع القطن والرز ، فسبحتُ فى فيض من سكينة الفردوس اختنق

فيها ما بقى عالقاً بسمعى من أصداء الحياة وضوضاء المدينة. وقطعت عن عشى صلات العالم الخارجى فلم أعُد أرى غير مخضرّ أو مفترّ ، ولم أعد أسمع غير صادح أو باغم .

تذكرت حينئذ ناسك المعرة ، وقد اختصر العالم فى داره ، واختزن العلم فى صدره ، ثم كفاه الله هم الرغيف والمرأة ، فانفلت طليقاً من إسار العيش المقيد ، وانطلق سابحاً فى جواء الفكر الحر ، ينظر من علٍ إلى بنى آدم المساكين ، وقد سلطتهم الطبيعة على أنفسهم ، فتفارسوا بالغرائز ، وتنافسوا فى الصغائر ، وزعموا أنهم العلة الغائية لخلق السموات والأرض وما دب على ظهرها وتولد فى بطنها ، ونما فى ثراها . ولو أنك نضوت عنهم ثياب التمثيل ، وجردتهم من وسائل التمويه والتجميل ، لما وجدتهم فى حقيقة الأمر يختلفون عن جماعة الكلاب تقتتل على جيفة ، أو تختصم على كلبة ! .

كان اعتكافى كما قلت قرباناً لأبى العلاء . فأنا أعيش معه أكثر النهار فى اللزوميات ، أو فى الفصول والغايات ، أو فى مسارح التأمل والتفكر . وكثيراً ما كنت أستغرق فى استذكاره واستحضاره وأنا مستلق على العشب ، فأتمثله وهو مضطجع على سريره يفكر ، أو جالس على حشيته يملى ، وكاتبه بين يديه ، وأولاد أخيه من حواليه ، وتلاميذه وزواره فى صحن الدار يرقبون أن تشرق عليهم شمس المعرفة من غرفته . وكنت أتخيل الشيخ بين هؤلاء كائناً عجيباً يشع العلم طبعاً كما تشع الشمس النور وتبث الزهرة العطر وتعسل النحلة الشهد . فأسائل نفسى هل أبو العلاء وأضرابه من عباقرة الفكر أفراد من نوع الإنسان ؟ وإذا كان وجودهم دليلا على قابلية هذا النوع لمثل هذا الرقى ، فلماذا كانوا من الندرة بحيث يُعَدون عداً منذ وقع فى سمع الزمان نبأ آدم ؟ وهل يجوز أن يكون

التفاوت بينهم وبين سائر الناس كالتفاوت بيني وبين هذه الحشرات التي تموج من حولي تحت وريقات هذا العشب ؟ .

خلوت إلى أبي العلاء في هذا المعتكف شهرين شغلتهما بالفكر فيه والقراءة له والتأمل معه . وكنت أشعر في خلالها أني أعمق شعوراً بالكون، وأدق فهماً للطبيعة ، وأتم علما بالناس ، ولكنني مع ذلك حاولت مراراً أن أكتب فلم أفلح ! ذلك لأن الخواطر التي كانت تنثال علي إنما كانت صدى لخواطر المعري أو اشتقاقاً منها أو اقتباساً بها . وكنت أجد في شعره أو نثره التعبير الجميل الصادق عن هذه الخواطر فلا أجد بي حاجة إلى مزيد . والاعتكاف بعد هذا ضرب من العبادة الصامتة يغني فيها الفكر عن الذكر والاستغراق عن المشاهدة ، والاستقبال عن الإذاعة .

وأوفيت على تلك الحال بالنذر للشيخ فودعته وودعني ، وانسدلت بيني وبينه حجب القرون العشرة . ثم عاد إلى قبره الجديد ، وعدتُ إلى مقرى القديم ليستأنف هو راحة الخلود في سكون المعرة ، وأستأنف أنا جهاد الحياة في زحمة القاهرة . فلما أخذت على عادتي في الريف أبسط رئتي للهواء النقي ، وأرهف أذنيّ للصوت الجميل ، إذا الهواء منتن يزكم الأنف ويأخذ بالنفَس ؛ وإذا الصوت منكر يندب الأخلاق وينعى الشرف ، وإذا النقائص والفواحش التي أخذها أبو العلاء على الناس متفرقين في الأمم والعصور، تتجمع كلها في زمن واحد وبلد واحد ! وتلك كارثة خلقية تتضاءل بجانبها كوارث الحرب في الأموال والأنفس . فإن من يشكو الجوع والموت والدمار وهي بلايا تدفعها السلم القريبة ويعوضها العمل المنتج ، ليس كمن يشكو جوع النفوس وموت

الضمائر وخراب الأخلاق ، وهى محن لا ينفع فيها غير تبديل الفطَر الأصلية ، وذلك من صنع الله وحده ! :

لم يأت وا أسفاه على مصر فى دهرها الطويل حينٌ كهذا الحين انماعتْ فيه الرجولة ، وانحلت الأخلاق ، وطغت الشهوات ، وأظلم الحس ؛ حتى خفت الرذائل على الطباع ، وساغت التهم الفواجر فى الأسماع ، فأصبح الناس يقرأونها كالأخبار ، ويسمعونها كالقصص ، ويتبادلونها كالتحايا . ثم لا يجدون لها فى أنفسهم مضاً ولا غضاضة ! :

الرسالة فى عامها الثالث عشر :

# تباشير الجامعة العربية

يناير سنة ١٩٤٥

لاحت فى جوانب العام المنصرم تباشير السلم كما تلوح فى هوادى الليل تباشير الفجر الكاذب(١)؛ فانبعثت رواقد الأمانى هنا، وتحلبت أشداق المطامع هناك؛ وابتهل العالم العربى إلى الله أن يوقِّيه ويلات السلم كما وقاه ويلات الحرب، فأوحى إليه(٢) أن يتحد — ومن طباع العالم العربى الذى يؤمن بانقطاع الوحى ألا يعمل إلا بوحى — فوفد إلى القاهرة وفود الدول العربية خفافاً وثقالاً، وأخذوا ينظرون فى الصورة التى تكون عليها الوحدة، وفى الألوان التى تتألف منها الصورة. ولا يزال أقطاب « الجامعة العربية » يديرون الرأى فيما بينهم استعداداً لجمع « المؤتمر » وعقد « الميثاق » .

ذلك وحى الضرورة نزل على قلوب الساسة فصدعوا به وعملوا له. وهناك وحى الطبيعة أوحته القرابة الواشجة، واللغة الواحدة، والوطن المشاع، والتاريخ المشترك، فتجلى فى المجمع اللغوى، وفى التعاون الثقافى، وفى مؤتمر الأطباء، وفى مؤتمر المحامين، وفى مهرجان أبى العلاء، وفى مؤتمر النساء، وفى بعوث الأقطار العربية فى معاهد مصر العلمية، وفى الدعوات والرحلات، وفى الكتب والمجلات، وفى الأصوات المتجاوبة تزأر بالدفاع عن فلسطين المهددة، وفى الجماعات المتزاورة تتساقى المودة حيناً على بَرَدَى وحيناً على دجلة.

تلك وحدة الروح والهوى. لا خلاف فيها على زعامة، لأن زعيمها الخالد بالإجماع محمد. ولا خوف منها على استقلال لأنها كدين الله لا تعرف الحدود

---

(١) الفجر الكاذب ضوء دا كن يبدو قبيل الفجر الصادق مستطيلا معترضاً ويقال له ذنب السرحان

(٢) إشارة إلى إشارة المستر « إيدن » وزير خارجية انجلترا بتأليف الجامعة العربية .

ولا تقبل الحصر . ولا مثار بها لعصبية لأنها كعروبة الإسلام لا تفرق بين أحد من الناس لدين أو لجنس . و ( الرسالة ) تحمد الله وتشكره على أن وفقها في سنيها الثلاث عشرة لتكون جندياً صادق البأس خالص العقيدة من جنود هذه الوحدة. وكان الرجاء أن تصدق نبوءة المتنبئين بانطفاء هذه الحرب في عامنا الذاهب ، لتستعيد الأرض قرارها المطمئن ، وتستأنف الحياة سيرها الآمن ، وتستقبل الرسالة عامها الجديد وهي على حال من القوة والفتوة والجِدَّة توافق هذا الجهاد وتطابق هذه السن ، ولكن الشياطين ما برحوا يحتلون مختبرات العلماء ومكاتب الزعماء ورءوس القادة . ورأس الشيطان كقلب الإنسان لا يسبر غوره ولا يحد مداه . فإذا خبت نار ذكت نار ، وإذا سكن إعصار ثار إعصار ، وكلما انكشف سر تلاحقت أسرار . فالخطة تنسخ الخطة ، والعُدَّة ترفد العُدة ، والاختراع يتبع الاختراع . وليس يعرف لهذه القوى الجبارة أمداً تخور عنده إلا الخبير القدير الذي شاء أن يطامن من كبرياء الإنسان ويكسر من غروره ، فسلط هواه العارم على عقله القاصر ، ثم وكله إلى نفسه ، فاعتل إدراكه ، واختل توازنه ، وانطلق في ضراوة الوحش ، ورعونة العاصفة ، يدمر ما عمر ، وينقض ما أبرم ، ويقتل ما ولد !

* * *

ليست هذه الحرب مقصورة على جبهاتها المادية بين الجيوش المتحاربة في أوربا وآسيا ؛ وإنما هي زلزلة اجتماعية عامة هزت كل وطن ، وبلبلت كل نفس ، وزعزعت كل نظام وغيرت كل معنى . فمن لم يجدها في جيشه أو على أرضه وجدها في نفسه وفكره وعقيدته وسياسته وتقاليده ونظمه . والأساحة والوسائل تختلف باختلاف البواعث النفسية في كل محارب ؛ فقد تكون إذا تحركت في الجماعة حوافز السمو ونوازع الكمال ، ثورة على قيد يعوق نهضتها ، أو على نظام يهين إنسانيتها ، أو على مذهب يستعبد عقليتها ، أو على حكم يلغي إرادتها .

وقد تكون إذا اضطربت في قرارة هذه الجماعة كدورة الطين وشهوات

البهيم اعتداء على حُرمَ الناس بالدس والسباب ؛ أو بالسرقة والاغتصاب ، أو بالغدر والحيلة ؛ أو تمرداً على الأوضاع الطبيعية ، فيرغب الفقير الكسول فى ثروة الغنى المجد ، ويتشوف العاجز الكَلّ إلى منصب القادر الكفء ، وتطلب المرأة الخرقاء مساواة الرجل فى الحق دون الواجب .

ستنطفىء ثائرة هذه الحرب فى وقت ما . وستأتى نتائجها بالطبع منطقية مع أسبابها التى بعثتها على صورة من هذه الصور . فأما الذين أنفقوا فيها من أنفسهم وأموالهم ، فى سبيل أمجادهم وآمالهم ، فسيجدون الكمال فى هذا النقص ، والحياة فى هذا الموت ، كالشعر يغزر ويقوى بالقص ، وكالشجر يغلظ ويرف بالتقليم . وعقبى مثل هذه الحرب على الغالب والمغلوب وثبة إلى الرقى الإنسانى والعمرانى يفتتح بها عصر ويبدأ تاريخ .

وأما الذين أنفقوا من فضائلهم وأخلاقهم ، فى سبيل مناصبهم وأرزاقهم ، فقد خسروا كل شىء : خسروا مالا كفاء له ولا عوض منه ، وربحوا مالا بقاء له ولا فضل فيه . وهل تغنى المادة إذا ذهبت الروح ، أو تحيا الأمة إذا مات الخلق ؟

لقد نجا العالم العربى من حرب الإنسان التى تهدم لتجدد ، وتقلم لتثقف ، وتبيد لتزيد ، فهل نجا من حرب الحيوان التى تقتل لتأكل ، وتغاب لتلذّ ، وتغصب لتحتكر ؟ إنك ياسيدى أبصر من أن تُبصَّر . والنتن ينم على وجوده ، والشر يدل على نفسه . ومن لا ير يسمع . ومن لا يسمع يشم . ومن أعوزه الدليل فى نفسه وجده فى غيره . فليت شعرى ماذا أعد سادتنا وزعماؤنا للسلم التى تعقب هذه الحرب ؟ إن أقطاب العالم الثلاثة[1] قد استعدوا من اليوم لتعمير ما اندثر من المدن ، وتجديد مارث من النُّظم ، فهل يستطيع أقطابنا الثلاثون[2] أن يستعدوا لتعمير ماخرب من الضمائر ، وتجديد مارث من الأخلاق وتوثيق ماوهى من العقود ؟

---

(١) الثلاثة هم رزفلت وتشرشل واستالين (٢) والثلاثون هم الوزارة المصرية التى كانت قائمة و ( الهيئة السياسية ) التى ألفت من أقطاب السياسة لتعاونها فى المفاوضات مع انجلترا .

# اذكروا يا زعماء العرب

( ٨ يناير سنة ١٩٤٥ )

أذكروا يا زعماء العرب وأنتم اليوم بسبيل التشاور فى تجديد وحدة العرب أن الركن الأول من أركان دينكم هو التحديد ، وأن العمل الأول من أعمال نبيكم كان المؤاخاة .

أذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وأذكروا إحسان النبى إليكم إذ كنتم أشتاتاً فجمع شتيت شملكم فاقتم على وحدته مُلكاً وسلطاناً .

أذكروا لماذا نذكر صاحب الهجرة فى كل أذان وفى كل صلاة من كل يوم . هل نذكر اسمه مع اسم الله تعبداً به ؟ معاذ الله فما يكون الشرك غير هذا . إنما نذكر الله وحده ونذكر محمداً كما تُذكر القاعدة ومعها المثَل ، أو النظرية وبعدها العمل . لأن الله يوحى والرسول يبلغ ، ويأمر وهو ينفذ ، ويَشرع وهو يطبق . فذِكر الله استحضار لأوامره ونواهيه وتلك هى القدرة ؛ وذِكر الرسول استحضار لأفعاله وأقواله وتلك هى القدوة .

أذكروا أن الوحدة هى التى أمكنت العرب فى الأمس البعيد من تراث كسرى وقيصر . وهى وحدها التى تستطيع فى الغد القريب أن تنقذهم من ورّاث (موسو)(١) و (هتلر) .

قولوا للمعوقين منكم والمخلّفين عنكم : إن العصبية التى توسوس فى بعض الصدور بالرياسة والسيادة والعزة إنما كانت فى تاريخنا الحافل بالأحداث والعبر علة العلل فى انشقاق العصا ، وانقسام الرأى ، وانحلال العقدة ، وانتشار الأمر ،

---

(١) موسو اختزال لموسولينى وكان زعيم الفاشية فى إيطاليا .

وتعدد الدول . هى النعرة[1] التى قالت يوم السقيفة : منا أمير ومنكم أمير . وهى الهامة[2] التى خرجت من قبر عثمان وظلت تصيح على دار الخلافة : نحن هاشميون وأمويون ! نحن قيسيون ويمنيون ! نحن علويون وعباسيون ! نحن عرب وشعوبيون ! نحن اثنتان وسبعون فرقة تتقاطع فى الدين ، وتتمادى فى الدنيا . وتزعم كل فرقة منها أنها هى الناجية ! نحن ثلاثة خلفاء فى وقت واحد : عباسى على عرش بغداد ، وأموى على عرش قرطبة ، وفاطمى على عرش القاهرة ، ولكل خليفة منهم شأن يغنيه ، وعُدْوان مع الباغين على أخيه !

أذكروا كل أولئك يازعماء العرب واستاروا بسيرة نبيكم فى السياسة ، واستنوا بسنته فى الحكم ، فإن محمد بن عبد الله الذى آثر أن يكون نبياً عبداً على أن يكون نبياً ملِكاً قد ساس الناس فى عهده سياسة دينية لا تفرق بين على وبلال ، ولا بين قريش وباهلة . لم يسسهم عليه السلام سياسة وطنية ، لأن الوطن محدود والدين لا حد له ، ولم يسسهم سياسة قومية ، لأن القوم جماعة متميزة لا تعرف العموم ، والدين إنسانية شاملة لا تعرف الخصوص . ومن كان مديناً بزعامته لربه لا لحزبه كان خليقاً أن يساوى بين الناس جميعاً فى عدله وفضله . أما وقد استشرت العصبية ففرقت شعبنا فرقاً لكل فرقة طُرُز ورسوم ، ومزقت وطننا مِزقا تفصل بينها مكوس وتخوم ، فإنا أحرياء بأن نصلح الأمر بما صلح عليه أوله : نخفت فى نفوسنا صوت الأثرة ، ونسكّن فى رءوسنا عصف الهوى ، ونجدد فى أذهاننا ما طمس من معانى الإيثار والإخاء والفداء والمروءة ، ونحدد فى أفهامنا ما انبهم من هذه المبادىء الإسلامية الصريحة : « إنما المؤمنون إخوة » .

(١) النعرة ذبابة زرقاء طنانة تدخل فى أنف الحمير والخيل فتضطرب وتهيج ، وتستعمل فى الخيلاء والكبر .

(٢) الهامة فى أساطير العرب الأولين طائر يخلق من رأس القتيل ولا يزال يصيح فى رأسه يقول : اسقونى ، حتى يقتل قاتله .

« وأمرهم شورى بينهم » ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . الناس سواسية كأسنان المشط .

وتلك هى المثلُ العليا للسلام والنظام والحكم تطلبها الشعوب المكروبة للسخرة بالثورة بعد الثورة ، وبالحرب عقب الحرب ، فيحول بينها وبينها تصادم القوى وتعارض المنافع .

* * *

لا نطمع فى أن نجعل من الوطن العربى الذى قطّعه الغاصبون الآكلون دويلات أو لقيمات يسهل إزدرادها ، وحدة كاملة . ذلك فوق الطاقة الآن ، لأنه عمل لم يقو عليه من قبل غير محمد ، ولن يقوى عليه من بعد غير رجل من رجال محمد ، وهو الرجل الذى ينتظره العرب انتظارهم رجعة الربيع ، ثم لا ينفكون يحدقون النظر العبران[1] فى الأفق الغائم يرجون أن تنشق الحجب عن ظهوره. وبحسبنا اليوم أن تمهد أمامه الطريق وتهيىء له النفوس بهذه ( الجامعة العربية ) التى تتوافدون إلى عقد ميثاقها فى القاهرة . فإذا أقمتموها يا زعماء العرب على الإيمان الصادق والنية الخالصة كانت إرهاصاً لظهور ذلك الزعيم الذى يجمع الله لكم فيه الراعى الذى يطرد الذئب ، والخيط الذى يجمع الحب ، والدليل الذى يحمل المصباح ، والقائد الذى يرفع العَلم ، والأستاذ الذى يعلمكم أن تصنعوا الإبرة والمدفع ، وتشقوا المنجم والحقل ، وتوفقوا بين الدين والدنيا ، وتلائموا بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة . ويومئذ تعودون إلى منزلتكم من صدر الحياة ومكانتكم من قيادة الناس .

---

(١) العبران : الباكى الحزين .

# أحمد ماهر المجاهد الشهيد

( ١٢ مارس سنة ١٩٤٥ )

كنت فى الريف ليلة نعى الناعى الزعيم الشهيد أحمد ماهر ، وكان من امتحان القدر لصبرى أن يروّعنى هذا النبأ الفاجع الفاجىء وأنا فى وحـــدة من الناس ووحشة من الطبيعة ، لا أرى ولا أحس غير وكيف السحاب وزفيف الريح وشفيف البرد ، فأقبع فى الغرفة قبوع القنفذ ، وأنشر فكرى فى معانى هذا الرزء الوطنى الفادح ، أسبر غوره ، وأتقصى أطرافه ، فأشعر بثقله كله يبهظ نفسى ويصدع قواى ، فأستكين للجزع وأستسلم للشجون !

ويتمثل لعينى منظر الصريع المسجّى على فراشه الدامى ، وحوله ابنته وزوجته وإخوته هلعين مشدوهين لا يكادون يصدقون أن هذا الجسد الهامد هو رجلهم الذى تركهم منذ هنيهة وقدرته فوق الأحداث ، وهيبته طى القلوب ، وذكره ملء الأسماع ، وعمله حديث الألسنة ، وأمله سعة الدنيا ، فينفر عنى النوم ، ويطول علىّ الليل . وتهون فى نفسى الحياة !

وفى الصباح الباكر من يوم الأحد كان القرويون يتناقلون النبأ العظيم ، وعلى كل وجه سهوم الحزن ، وفى كل قلب لهيب الحسرة ، كأنما وشجت بينهم جميعاً قرابة الفقيد ، فمصابهم فيه واحد ، وحزنهم عليه مشترك . وتلك ظاهرة اجتماعية لم يسجلها مرصد التاريخ من قبل أحمد ماهر إلا لسعد زغلول . وتعليل هــذه الظاهرة أبين من أن يُبين ؛ فقد كان ماهر كما كان سعد زعيما شعبياً تألق اسمه فى سطور تاريخنا الحديث تألق النجم الهادى ، وتردد ذكره فى حوادثه الجلى تردد النشيد الحماسى على أفواه الجند . وكان له ولرفيقه فى الجهاد وخليفتــه فى

الحكم – أطال الله عمره – من فضل التدبير والتنظيم والفعل ، ما كان لرئيسها الخالد من فضل التنبيه والتوجيه والقول . ثم كان ظهور سعد للزعامة حين أبطرت الحرب الماضية نفوس الغالبين ، فسطت قوة الغالب على حق الوطن ، وسيطرت إرادة المحتل على رغبة الأمة ، وتطامنت الرءوس فلا ترتفع ، وانعقدت الألسن فلا تنطق . فتميز واشتهر بشجاعته وكفايته وبلاغته وقدرته. وكان ظهور ماهر الزعامة حين أضلت الحرب الحاضرة عقول الحاكمين والمحكومين ، ففسدت الأخلاق ، وماتت الضمائر ، وتحكمت الشهوات ، وانتهكت الحرمات ، وخست المطامع ، فتميز واشتهر برجولته وصراحته ونزاهته وحريته .

كلا الزعيمين كان رجل الساعة فى وقته ، وحديث الأمانى لقومه ، ذلك لدعوة الإيقاظ والثورة احتجاجاً على صلح كفر بالعدالة . وهذا لدعوة الإصلاح والوحدة استعداداً لصلح يؤمن – كما يقولون – بالحق . ومن ثم كان الحزن عليهما حزناً شعبياً أحسه القريب والبعيد ، وأخلص فيه الخصيم والولى .

والحق أن الحزن على الفقيد الشهيد قد غزا القلوب الغلف والأكباد السود فما ظنك بمن يعرفونه عن كثب ، أو يمتون إليه بسبب ، أو يقرون له بفضل ؟ والإقرار بفضل أحمد ماهر قد بلغ حد الإجماع ، إن لم يكن من جهة كفايته فمن جهة خلقه . والخلق فى الرجل السياسى هو المزية التى تجزى عما عداها . وهو الثروة التى لا يبلغ العلم والمال والسلطان مداها . وأخلاق أحمد ماهر كانت أخلاق الرجل الذى يعده القدر ليرفع أمته إلى الفوق ويدفعها إلى الأمام ، كان أكرم الله مثواه وبرد بالرحمة ثراه ، مؤمناً بما يدعو ، مخلصاً فيما يعمل ، صريحاً فيما يقول ، جريئاً على ما يقدم ، عفيفاً عما لا يحل ، وتاريخه كله

مصداق لأصالة هذه الصفات النادرة فيه . جاهد فى استقلال بلاده حق جهاده ، ففكر وقدر ، ثم جهز ودبر . وترصدته العيون ، وانفجرت من حوله المخاطر ، وأشفى به الإقدام على هوة الموت ، فما نكص ولا وهن ولا استكان ، ولم يكن يومئذ للمجاهدين أمل فى منصب ولا رجاء فى حكم .

ورأس مجلس النواب فى حكومة الوفد فتجلت خلال الديمقراطية فيه . كان الوفد عنده أصغر الأحزاب حين ينتصف لغيره منه . وكان رئيس الحكومة عنده أضعف النواب حين يطبق ( اللائحة ) عليه . وكان الدستور قسطاسه المستقيم لايصدر إلا عنه ولا يرجع إلا إليه .

وتولى المعارضة حيناً من الدهر ، فكان عف اللسان عن الهُجر ، عف الضمير عن الفُجر ، عف الفكر عن المغالطة ، عف النفس عن الخديعة . يعالن بالمخالفة ويعتمد فى إعلانها على الصدق والجد ، ويصارح بالتهمة ويستعين على إثباتها بالحق والمنطق ، وينفرد بالرأى ويجعل له من قوة إيمانه وثبات جنانه السندَ الذى لايهى والدليل الذى لايدفع . ومواقفه فى ( المجلس ) وفى (القصر) لاتزال عطر الأفواه والأندية ، فلا حاجة إلى ذكرها .

ثم رأس الحكومة والخصومة الحزبية على أقبح ماتكون عنفاً وحدّة ، والأخلاق الاجتماعية على أسوأ ماتكون اعتلالاً ورِدّة ، والسياسة الدولية تتمخض عن أحداث جسام ستغير أوضاع الأرض وتبدل أنظمة الحياة ، فساسها بالصراحة والسماحة والحرية والعدل ، فمكن لكل ذى رأى أن يرى ، ولكل صاحب قلم أن يكتب . ومهد لائتلاف القلوب واتحاد الكلمة بالمسامحة لاستلال مافى النفوس من سخيمة ، وبالمشاورة لتهوين ما فى المعارضة من خلاف ، وأوشك أن يقول لنفسه : « عدلت فأمنت فنمت ياعمر » ، لولا أن الخوارج لايزالون أحياء ، وأن أبا لؤلؤة لايزال له فى مصر أبناء ! وهكذا تجرى تصاريف القدر بما غُيب عن ابن آدم علمه ، فذهب أحمد كما ذهب عمر صريع جنون

أو فتنة . ولو كان أحمد أو عمر أو سائر الأسماء العظمى علماً على رجل لهان فيه الخطب وتيسر عنه العزاء ، ففى كل ساعة من ساعات الليل والنهار يبتلع القبور ألوفاً من الأنفس فلا يعقبون فراغاً ولا دهشة ؛ إنما هو علم على ثروة ضخمة من الخلق والعلم والمواهب والتجارب عمل فى تكوينها مع الطبيعة الحرة والزمان الطويل عوامل جمة وأحوال مختلفة ، حتى أصبحت قوة فى طاقة الإنسانية وقطعة من ثروة العالم . ففقدها يحدث فى سير الحياة من الخلل مايحدثه فقد الضرس الصغير فى الدولاب الكبير . ذلك الخلل هو الفراغ الذى يحسه الناس بموت العظيم . وعلى مقدار العظمة يكون اتساع الفراغ . وإن الفراغ الذى أحدثه فى صف القادة مصرع أحمد ماهر فراغ واسع عميق . وكم من فراغ مثله فى نواحى الحياة المصرية أودى الزمن بشاغليه ، ولم يستطع شغله بأمثالهم فاضطرب المسير وأبطأ التقدم .

نحن فقراء إلى الرجال ذوى الخلق والكفاية . وليس لنا واأسفاه فى توفيرهم حيلة ، لأنهم من صنع الله لا من صنع المدرسة ، ومن أثر الأسرة لا من أثر البيئة . وأمثال الأسرة الماهرية فى الشرق قليلة . أنجبت رجالاً تميزوا على نظائرهم بأخلاق الرجولة ، شق كل واحد منهم طريقه إلى المجد بنفسه ، ثم ساروا إلى غاياتهم فى طرق متوازية لاتتلاقى . وعهدنا بالأسرة الكبيرة إذا سما فرع من فروعها وغلظ تسلقه الآخرون كما يتسلق اللبلاب جذع النخلة . هم يعملون للمجد أكثر مما يعملون للعيش ، ويبذلون للناس أضعاف مايبذلون للنفس . فهم فى العظماء لا فى الأغنياء ، وفى معنى السماء لا فى حقيقة الأرض ! فما أجدر هذه الأسرة أن تدرس لتكون لأسرنا قدوة ! وما أخلق الشباب أن يتخذوا لهم من رجالها أسوة ! وما أحق مصر أن تجزع جزع الثكلى على من يعز الصبر عليه ويستحيل العوض منه !

# معروف الرصافى

( ٢٦ مارس سنة ١٩٤٥ )

نعى العراق أول هذا الأسبوع شاعره الباقى، فوجمت لمنعاه ألسن، وجزعت لفقده نفوس! ثم قرأنا أن بغداد قد غسلت شاعرها الراحل بالدموع وشيعته بالحسرات، وكنا قرأنا من قبل أن الرصافى فى أعقاب عمره كان يطلب الغذاء الكافى فلا يجده، ويلتمس الدواء الضرورى فلا يناله!

لفظ معروف الرصافى أنفاسه الأخيرة فى حجرة مظلمة مقرورة لا يلطف جهومتها نور ولا نار، ولا يخفف وحشتها خليط ولا جار، ولم تقع عينه الشاخصة وهو فى نزاع الروح إلا على ورقة هنا وكتاب هناك، أو على خادمه الأمين، يتماسك لحظة ويتهالك أخرى والدنيا التى صحبها الشاعر سبعين عاماً يدل على جمالها العيون؛ ويغرى بمتاعها الأفئدة؛ لم تجُد عليه ساعة الوداع بيد رفيقة تغمض عينيه، ولا بعين حبيبة تذرف دمعة عليه!

كان الرصافى – أحسن الله إليه – لسان العراق الصادق، ينقل عن شعوره ويترجم عن أمانيه ، ويحدو لركبه المجاهد فى سبيل استقلاله وعزته بالحداء الحماسى المطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب: وظل هو والزهاوى وشوقى وحافظ ومطران حقبة من الدهر يؤلفون الأوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربى الخالص ، ولكل وتر درجته فى الرنين والجهارة والأثر .

والرصافى أشبه بحافظ من الزهاوى بشوقى ، وإن شئت فقل إن الرصافى وحافظ كانا الوترين الرابع والخامس فى القيثارة : صوت عريض ضخم ، وذبذبة ضيقة محدودة .

كان هذان الشاعران يتشابهان فى أسلوب العيش وأسلوب الفكر . كانا صدى لهتاف الجمهور فى السياسة والاجتماع ، ورجْعا لأنين المساكين فى الألم والشكوى ، وكانا يتقاربان فى جوانب من ضيق الثقافة وقلة الإطلاع وهيمنة الحياة . ولكن الرصافى كان متميزاً على نظرائه جميعا بالصراحة الجريئة والاستهتار البالغ . كان يعيش ليومه وينطلق على هواه ويستجيب لغريزته ، فيفعل مايشاء ، ويقول مايعتقد ، ويطلب مايشتهى ، ثم لايبالى أين يقع ذلك كله من رأى غيره . ولامراء فى أن لهذه الحرية المطلقة أصلا فى مولده ونشأته . كان أبوه من بدو الكرد ، وأمه من بدو العرب . وكانا فقيرين فولداه ببغداد فى مهد بدوى خشن . ثم نشآه على أخلاق البادية الأصيلة . ثم أرخيا له الحبل وتركاه يغدو ويروح على مقتضى فطرته . ثم تبناه بالروح عالم العراق الأستاذ محمود شكرى الآلوسى فلقنه فى اثنى عشر عاما أصول المعقول والمنقول من علوم الدين واللغة والأدب ، ثم حاول أن يقبسه أشعة من نور سلفيته وتقواه ؛ ولقبه بالرصافى رجاة أن يخلف معروفا الكرخى فى صوفيته وزهده . ولكن غرائز معروف كانت أقوى ، ومطامحه كانت أبعد ، فخرج من هذه الرياضة الطويلة مسلم اللسان جاهلى القلب .

ووجد الرصافى العراق على فترة من الشعراء ينتظر أبا نواسه المبعوث ، فصدح على ضفاف الرافدين صدحاته المعروفة فأصغت إليه الأسماع واهتزت له القلوب ورأى الناس فى أمثال قصائده ( المطلقة ) و ( أم اليتيم ) و ( اليتيم فى العيد ) أسلوباً من الشعر لم يعرفوه فأكبروه . وحاول أن ينفض عن نفسه غبار المتربة فزاول التعليم فى مدارس بغداد . ثم كان من الذين صارعوا استبداد عبد الحميد بقوافيه المسمومة . فلما خر الطاغية وأعلن الدستور تعاظمه النصر وازدهته الشهرة فاعتقد كما كان يعتقد الشعراء أن له أن يقول وعلى الناس أن يفعلوا ، وأن له أن ينفق وعليهم أن يبذلوا ، فذهب إلى الأستانة يطلب المجد بوساطة شعره ، فكان قصارى أمره أن يكون خوجة فى مدرسة أو محرراً فى صحيفة . ثم سما به الحظ درجة فانتخب نائباً فى مجلس ( المبعوثان ) عن لواء منتفق . وظل فى عاصمة الخلافة مدة الحرب الماضية حتى أعلنت الهدنة . وكانت ثورة العرب على الترك يومئذ قد انجلت عن عرش أمية فى دمشق يجلس عليه فيصل الأول . ومن حوله سيوف الثورة وألسنتها من أمثال ياسين ونورى وجعفر ورستم وساطع . وجاء الشاعر الطاح يبحث عن مكانه فى الدولة العربية الجديدة فلم يجد ، فانقلب بعد طول الصبر وإدمان السعى إلى فلسطين خائب الأمل كاسف البال يبتغى العيش فيها من طريق التعليم . فلما انتقل العرش الهاشمى من الشام إلى العراق سنة **١٩٢١** ، عاد الرصافى إلى وطنه ورجا أن ينال فى بغداد ما لم ينله فى دمشق . وتهيأ خليفة النواسى لينادم خليفة الأمين ، وإذا الأمل الفسيح والطموح البعيد يسفران عن وظيفة متواضعة فى وزارة المعارف ! حينئذ تفجر غيظه المكتوم على السلطان ورجاله فأعلنها شعواء بالهجاء المقذع والتهكم الفاحش . ووسعه ( معاوية بنى هاشم ) بحلمه ، وتغمد إساءته بإحسانه ، ففتح له الطريق إلى مجلس النواب ثم عاد فأغلقه دونه .

ونال الخذلان والحرمان من نفس معروف ومن جسده ففتر نشاطه وتراجع شعره ، ورضى من دهره بالمهلكات الثلاثة : شرب العَرق ، ولعب الورق ، واستباحة الجمال !

وعلى هذه الحال المضنية أدركه الفقر والمرض والموت دون أن يجد آسيا من إيمانه ، ولا مؤاسياً من إخوانه !

* * *

قلت لصاحبي ذات ليلة من ليالىّ فى بغداد : أريد أن أزور الرصافى فقد زارنى مراراً ولم أزره . فقال : أتشجع على أن تدخل حى البغايا ؟ فقلت له . وما صلة هذا بذاك ؟ قال إنه يسكن بينهن ؛ وقد تزوره واحدة أو أكثر منهن . فقلت له : هلم ، فما يسع زواره من العذر يسعنا · ودخلنا البيت فإذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف ؛ لا أثاث ولا نظام ولا حرمة . وكلمة الشاعر هنا بدل الأديب تدلك على أن ليس بالمنزل مكتب ولا مكتبة ؛ فقد كان الرجل لا يقرأ وإنما كان يتكىء على شدة ذكائه وحدة فهمه ، ويكتفى بما حصل فى شبابه من أدبه وعلمه . كان فى الردهة قوم يأكلون ويشربون ، وفى حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون وكان الرصافى يتصدر هؤلاء ، فى يمناه كأس ، وفى يسراه ورق . فلما رآنى فض اللعب وأقبل بأنسه علىّ . ثم أخذ يشرب ويتحدث باللغة العارية عن الحقائق العارية فى غير اكتراث ولا تحفظ . ويظلم الرصافى من يقيد عليه فى مثل هذه الحال : ولكن ندماه يروون شعره أو يذيعون حديثه فيبلغ صاحب الملك فيغضب ، أو صاحب الحكم فيعجب ، أو صاحب الدين فيصخب ، أو صاحب الخلق فيثور . وكل أولئك يعادون الرصافى ولكنهم يهابونه لشخصيته ، ويحترمونه لعبقريته ، ويتربصون به سوء المصير .

هذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم . أما عقيدته فالأمر فيها لله لا للناس ؛ وأما شاعريته فالحكم عليها للناقد لا للمؤرخ . وقد يكون لنا إليها عودة ...

# الرصافى وأغاخان

# أو

# الزعيم الأدبى والزعيم الدينى

( ٩ ابريل سنة ١٩٤٥ )

لك الله يا ابن آدم ، ما أغمض سر الطبيعة فيك ! تزعم أن فيك عقلا وأنت تتبع هواك ، وأن لك ديناً وأنت تعبد دنياك ، وأن عندك علماً وأنت تجهل نفسك !

ما هذا الذى نرى من خذلان المنطق لك ، وإسراف الرأى عليك ؟ تعرف الله وتفسق عن طاعته ، وتخلق الصنم وتخلص فى عبادته ، ثم تقدس الجرائم باسم العدل . وتعتقد الأباطيل باسم العقل ، وتفسد قوانين السما وتقول إنه الشيطان وما الشيطان إلا نفسك ، وتزيف طبائع الأشياء وتقول إنه الحظ وما الحظ إلا عماك ! .

إن من عماك لا من عبث الحظ أن يكون فى بيتك الكلب يتقلد الذهب ، ويتوسد الحرير ، ويتهنأ اللحم ، وفى جوارك الإنسان يفضح جسده العرى ، ويلحس كبدَه الجوع ، ويقض مضجعه الهم .

وإن من عهواك لا من نزغ الشيطان أن تلح على أخيك بالأثرة والحرمان ثم ترثى لحالته . وإذا كان من عمل الشيطان أن تقتل القتيل فليس من عمله أن تمشى فى جنازته !

* * *

فى الأسبوع الذى كان الرصافى شاعر العربية يعالج فيه آلام المرض ، ويكابد غصص الموت ، على الفراش القلق ، فى المضجع الموحش ، وكل ما يملكه من حياته الطويلة العريضة أسماله البدوية وأشعاره المخطوطة . فى ذلك الأسبوع نفسه كان أغا خان زعيم الاسماعيلية يقعد فى كفة الميزان المأثور المشهور كما ترى فى الصورة وبإزائه فى الكفة الأخرى مائة كيلٍ من سبائك الذهب المصفى ، هى مثقال الزعيم العظيم فى هذا العام ، خرج له عنها أتباعه فى الهند وفى غير الهند ، ونفوسهم راضية ، وقلوبهم مطمئنة !

إى والله ! مائة كيلٍ من الإبريز الخالص ، هى ضريبة العقيدة يقدمها المؤمنون المخبتون كل سنة إلى أميرهم المقدس ، ورقابهم من الجلالة خواضع ، وعيونهم من المهابة نواكس ، فيتعطف صاحب السمو بأخذها ، ليطهرهم بها ، ويزكيهم لأجلها ، فى حلبات السباق . وخلوات العشاق ، ومعابد الحب ، على البحيرات الناعمة بالنعيم ، والجبال الباسمة بالجمال ، والشواطىء المائجة بالفتنة !

كان للرصافى كذلك أتباع يؤمنون بأدبه ، ويتصلون فى الحياة الروحية بسببه . فما بالهم تركوه يكتب فى وصيته الأخيرة هذه الفقرة التى تستدر الشؤون وترمض الجوانح :

« كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفى منه منفعتى الشخصية ، وإنما

(١) إقرأ نص الوصية كاملة فى العدد رقم ٩٠١٤ من الرسالة .

قصدت به خدمة المجتمع الذى عشت فيه ، والقوم الذين أنا منهم ونشأت بينهم لذلك لم أوفق إلى شىء فى حياتى يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة . . . لا أملك شيئاً سوى فراشى الذى أنام فيه ، وثيابى التى ألبسها . وكل ماعدا ذلك من الأثاث الذى فى مسكنى ليس لى ، بل هو مال أهله الذين يساكنوننى ».

أين كان ذوو النفوس الشاعرة القادرة من أتباع الرصافى حين أفرط عليه إباؤه وكبرياؤه ، فانطوى على نفسه يهدهد آماله بالصبر ، ويخدر آلامه بالشراب ، وروحه الوثاب ينبثق انبثاق النور ، وأمله الطماح يتقلص تقلص الظل ؟ لو شاء الرصافى أن يهاوى السلطان ويمالق الحكومة وينافق الشعب ، لعاش أرغد العيش وبلغ أرقى المناصب ؛ ولكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته .

ستقول إن الزعيم أغا خان كذلك صريح حر ، وإن صراحته السافرة وحريته الطليقة لم تبغيا عليه فى قومه ، ولم تجرا إلى الكلام فى صلاته وصومه . والجواب أن أتباع الزعيم الدينى يصورونه فى نفوسهم بصورة العقيدة التى يدينون بها ، ويجعلون هيكله المادى رمزاً لهذه الصورة . ولهذا الرمز ظاهر يراه الأوزاع ، وباطن يستأثر بعلمه الأتباع ؛ فهم يقوّمون مايبصرون من زيغه ، ويؤوّلون ما يسمعون من باطله ، ويُسبلون على عمله المريب ما يسبله الصوفيون من القداسة على الطبل والدف والناى والصنج ، فتصبح هذه الآلات فى أيديهم غيرها فى أيدى القيان والمُجّان ، وهى فى نظر الناس لا تختلف فى شىء عنها . قل إنها الجهالة أو السذاجة أو البلاهة ، فلن يقدح ما تقول فى الحقيقة ، ولن يغير من الواقع .

أما أتباع الزعيم الأدبى فإنهم يتخذون صورته من فنه وروحه ؛ فلصورته فى كل ذهن شكل مختلف ، وفى كل قلب أثر خاص . وطبيعة هذه الصورة

أو تلك الصور مشتقة من طبيعة الفن : تتضح تارة وتنبهم تارة ، وتختفى حيناً وتلوح حيناً ، على حسب استعداد النفوس لتقبّل الجمال الفنى حالا على حال ، ووقتاً بعد وقت . لذلك كانت عقيدة هؤلاء الأتباع فى زعيمهم كالعرَض المنفك : تزول ثم تؤول ، فإذا زالت نسوه كما ينسون السرور والحزن واللذة والألم . وإذا آلت سمعوه كما يسمعون البلبل على فنن الدوحة ، يطربون لشدوه ويُعجبون بريشه ، ثم لا يعنيهم بعد ذلك أيجد الحب والعش ، أم يجد الفخ والقفص !

وكذلك شأن أصحاب السلطان وأرباب الحكم مع رجال الأدب ، يقتبسون من عقولهم النور إذا أظلمت الخطوب ، ويستمدون من نفوسهم اللهب إذا خمدت العزائم ، حتى إذا استوثق لهم الأمر ، وتنازعوا الغار ، وتقاسموا الفيء ، أنكروا ما بذل الأدباء ، وقالوا بلهجة الساخر البطر : وماذا صنع هؤلاء ؟ لقد قالوا وإن الكلام طبع ، وكتبوا وإن المداد رخيص . ذلك إلى أن أكثر عشاق الأدب مفاليك لا يملكون لأربابه إلا الدعاء فى الحياة ، وإلا الرثاء فى الموت ! وإذا كان لدى بعضهم فضل من القوت لم يجد فى نفسه من سلطان العقيدة ما يحمله على المؤاساة به . وذلك هو الفرق بين العقيدة الأدبية والعقيدة الدينية . فالعقيدة الأدبية سلبية لا تتجاوز الإعجاب بالكلام والإنفاق من الكلام ؛ فاذا وجدت من يبذل فى سبيلها المال كان ذلك قطعاً للسان الهاجى ، أو شراء لضمير المادح ، أو تزييفاً لصورة الحق . وليس فى مثل هذا البذل كسب للأدب ولا نفع للأديب . ولكن العقيدة الدينية إيجابية تقوم على إعلان الفكر بالشعيرة ، وتمثيل المعنى بالرمز ، وتحقيق النية بالعمل . والسلطان الروحى فيها قاهر ، والأثر المادى عليها ظاهر . وحسبك منها الزكوات والصدقات والأضاحى والنذور ؛ ففى بعض أولئك للزعيم الدينى ذهب وميزان ؛ ومدد وسلطان ، وقصور ورآسة ، ثم ضريح وقداسة .

* * *

حظك يا معروف هو حظ الأديب منذ كان في الناس أدباء وفي الأرض أدب ! يموت أمثالك شَرَقاً بالبؤس كما يموت أمثال أغا خان غرقاً في النعمة ! فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك الألوسي من رسوخ قدمك في الدين ، وعلو منزلتك في التصوف ، إذن لحلقته في الزعامة الدينية ، وبلغت من ( طريقتك ) ما بلغ أغا خان في الدنيا ، ونلت من ( صوفيتك ) ما نال معروف الكرخي في الآخرة !

# نهاية دكتاتورين!

( ٧ مايو سنة ١٩٤٥ )

عَمْرَكَ اللهَ ، أهى نهاية دكتاتورين ، أم نهاية دولتين ، وعبودية أمتين ، وعبرة الدهر لمن يسول له الحمق الآدمى أن يطاول الله فى سمائه ، ويصرِّف الأقدار فى أرضه ؟ !

سبحانك ربنا ما أبلغ حكمتك وأعدل حكمك ! كأنما يقضى عدلك المطلق بين آدم وإبليس فى صراع الخير والشر أن ترسل من الجحيم رسلا للفساد ، كنيرون وجنكيز وهتلر ، كما أرسلت من الجنة رسلا للصلاح ، كموسى وعيسى ومحمد ! وإلا فكيف يتصور عقلنا المحدود أن رجلا كسائر الرجال ، فيه الخطل والجهل والعجز والهوى ، وليس فيه إيمان لوثر ، ولا سياسة بِسْمرك ، ولا أدب جوته ، ولا فلسفة نيتشه ، يستطيع أن يسيطر على ستين مليونا من الجنس الأوربى الممتاز ، وأن يسخرهم اثنى عشر عاماً فى ابتكار أفظع ما يتصوره الذهن الجبار المجرم من وسائل الفتك وآلات الدمار ، فابتكروا من المهلكات المعجزات ما لو وجهوه إلى الخير لعمرت الأرض ، وأنفقوا من الأموال والثمرات ما لو سلطوه على الفقر لسعدت الدنيا . ولو أن هذا الشقى وأحلافه فعلوا ذلك فساعدوا الخير بمبتكرات العلم ، وأشاعوا الغنى ببراعات الإنتاج ، لكانت رسالتهم أكرم وسيادتهم أعم ومجدهم أخلد ؛ ولكنهم لم يهيأوا بطبائعهم لهذا الأمر لحكمة يريدها الله من هذا الكون العجيب الذى يحيا بالموت ، ويصلح بالفساد ، ويتجدد بالبلى ، ويقتات بعضه ببعض ، وَيتربص كله بكله !

نعم هلك الطاغيتان موسولينى وهتلر فى أسبوع واحد بعد أن ظلا ستة أعوام

ينشران الفزع والجوع والموت والخراب والحداد فى كل أمة وفى كل أسرة وفى كل نفس ، دون أن يعصم الناس من كل أولئك عاصم من دفاع أو ملجأ أو بعاد أو حياد . ومن سخر الأقدار أن الفوهرر الذى كان يدعو إلى النازية فى مشرب من مشارب البيرة فى ميونخ ، يُقتل وهو يدافع فى برلين فيهوى على قاعدة مدفع ؛ وأن الدتشى الذى كان يخطب للفاشية على ظهر مدفع فى البندقية ، يُصرع وهو يفر إلى الحدود فيخر على صدر مومس ! والحق أن هاتين الميتتين : ميتة الأسد لزعيم الألمان ، وميتة الكلب لزعيم الطليان ، هما الخاتمان اللذان صاغتهما الحوادث للزعيمين من معدن الأمتين ليطبعهما التاريخ على وثيقة هذه المجزرة البشرية فيرمز بهما إلى نفس كل زعيم وطبيعة كل أمة ! وفى المجرمين تفاوت فى الطباع يدعو بعضها إلى الإكبار و بعضها إلى الإصغار ؛ ولكن اللص الإيطالى الذى يغتالك خفية بالموسى ، لا يختلف فى رأى القانون عن اللص الأمريكى الذى يقتلك جهرة بالمسدس . وليس فى الإجرام تفاضل ولا فى الشر خيار .

* * *

انبعث هذان المسيخان من ركنين متجاورين من أركان التمدن الحديث ، فاستوحيا الشيطان دينين جديدين يجعلان الآخرة للدنيا ، والأمة للفرد ، والعقل للهوى ، والعلم للشر ، والحضارة للدمار ، والحياة للموت . ثم خرجت هاتان النحلتان من الكهوف والمواخير وانتشرتا فى أجواء برلين وروما انتشار الظلام المضل والغاز الخانق ، فعميت عيون كانت ترى ، وغبيت قلوب كانت تفقه . ثم هتكت النازية أستار الدول بالجواسيس ، و بلبلت عقائد الناس بالدعاية ، واشترت ضمائر الساسة بالمنى ، وبثت فى دخيلة كل أمة دعاة الهزيمة وسماسرة النفاق يزيفون الوطنية فى كل نفس ، ويميتون الحمية فى كل رأس ، حتى تركت

القوم تماثيل من غير خلق ولا روح ، ثم رمت جوانب الأرض وخوافق السماء بالموت الوحيّ في شتى أشكاله وأهواله ، فأصبحت أوربا الجميلة خليطاً من الأنقاض والأشلاء ، ومزيجاً من الدموع والدماء ، وانبسط الطغيان المحوري على ممالك كانت بالأمس مسارح للسلطان والمجد ، فأصبحت اليوم سجوناً للأحياء وقبوراً للموتى ، ثم وقفت الديمقراطية من الدكتاتورية موقف الفريسة المرتاعة تنظر إلى الناب البارز ، أو موقف الشهيد الصابر ينتظر هُوِيَّ الحِسام المصْلَت؛ ولكننا قلنا يومئذ والأمل في النصر كبصيص المنارة الخافت على محيط من اليأس يموج بالظلام والهول . إن الفوز مكفول للديمقراطية ، لأنها هي الصحة التي انتهى إليها جسم الإنسانية العليل . أما الطغيان والبربرية فهما نكسة المرض والنكسة خلل عارض لا يلبث بحسن علاج الطبيب وصدق إيمان المريض أن يزول .

وقد صدّق الله هذا القول ، فانهارت النازية على نفسها وأهلها انهيار الطود الأشم فلم تدع خنزوانة في رأس طاغية ولا أملاً في صدر طامع .

* * *

والدكتاتورية نظام من أنظمة الحكم الشاذ يقتضيه حال ويستوحيه جيل ويستسيغه زمن ؛ ولكنه كالعلاج بالسم إذا زاد مقداره قتل . وعيب الدكتاتور الصالحْ أنه يعرف كيف يبتدىء ولا يعرف كيف ينتهي . إنه عَجلة من غير فرملة ، يحمل عليها أمته المتلكئة المتخلفة ، ثم ينطلق بها انطلاق الطائرة المطارِدة لا يلوى على شيء ، حتى إذا غلا في السرعة وأوغل في المسير أعياه الوقوف فيضل في مفازة سحيقة ، أو يتردى في هاوية عميقة .

والطاغية إذا ركب رأسه تنكر للنصح وتمرد على المشورة ، فهو يسكت أقطاب الرأى ليتكلم ، ويؤخر أبطال القيادة ليتقدم . والغالب أنه يجيد القول

ولكنه يزوِّر، ويحسن العمل ولكنه يطيش. وما زلنا قريبي عهد بشقشقة هتلر وثرثرة موسوليني، فقد كانا يقولان القول ولا يصدقان فيه، ويعدان الوعد ولا يبران به؛ لأن الاستبداد بالرأي ينفي التبعة، والإعتداد بالنفس يلغي الرقابة، والتبعة والرقابة مزية الديمقراطية. ومن ذلك كانت خطب تشرشل وروزفلت وثائق يستشهد بها السياسي ويعتمد عليها المؤرخ. والديمقراطية تنظر إلى الشيء من جهاته الست، وتسلك إلى الغاية طرقها المختلفة، ولكن الطغيان لا ينظر إلى الشيء إلا من الجهة التي تجذبه، ولا يسلك إلى الغاية إلا الطريق الذي يعجبه، ثم يحمل الشعب على رأيه ونهجه بالإرهاب المستمر، والتعليم المسموم، والتربية الآلية، والدعاية المغشوشة، فلا يجوز لصوت أن يرتفع بتعريف أو إنكار، ولا ينبغي لأحد أن يقول للقاطرة الرعناء إلى أين تذهبين بالقطار!

* * *

الآن، وقد تحطمت النازية بعد أن تحدَّت بجبروتها سنة الله وقوة الطبيعة، وارتفعت أيدي الأبالسة عن منشأ هذه الرجفة العامة من الأرض، وأخذت غواشي الليل الطويل تنكشف عن فجر السلام المشرق، وأوشكت الإنسانية المكروبة أن تجد نفساً من الرجاء ورَوحاً من الطمأنينة، وآن لقادة الحديد والنار أن يتركوا الميدان لساسة الرأي والهوى، ألآن، يجمل بالأقطاب الثلاثة أو الأربعة الذين يقررون اليوم مصاير الأمم والشعوب أن يتخذوا لهم من أهوال ست سنين موعظة وعبرة. يجمل بهم أن يذكروا وهم حول الموائد الخُضر تلك الميادين الحمر فتتمثل لعيونهم تلك القذائف الجهنمية تذرو أجساد الشباب كما تذرو العاصفة غثاء الهشيم! يجمل بهم أن يذكروا وهم ينعمون بالحفلات الساهرة بعد المناقشات الثائرة، تلك الأسر الحزينة التي خلت من عائلها الكادح، وفتاها الشابل، وأنسها الأنيس، وعيشها الآمن، فترد على خواطرهم تلك المآسي

الدامية التى مثلتها الحرب فى كل مكان ! نعم يجمل بهؤلاء الأقطاب أن يذكروا أنهم أنقذوا المدنية هذه المرة بأعجوبة . وليست الأعاجيب والمعجزات مما يكشف أو يخترع ، إنما هى الفرص والمصادفات تسنح أو تبرح كما يشاء القدر . إنهم إذا ذكروا كل أولئك كانوا احريين ألا يقبلوا فى مؤتمر الصلح مندوبين عن أصحاب الجلالة : الاستئثار والاستعمار وبسط النفوذ ! وإذن يتمتع العالم بسلم طويلة يضمد فيها جروحه ويستأنف بها سيره .

# وزير أديب

( ٢١ مارس سنة ١٩٤٥ )

من القضايا التى صدقت فى الماضى والحاضر ، وفى الشرق والغرب ، أن الأدب والفن لا يزدهران و ينتشران إلا فى ظلال ملك أو وزير أو أمير .

وصدق هذه القضية جاءها من أن الأدب العالى والفن الرفيع لم يكونا من مطالب العامة فى أى عهد ؛ إنما يطلبهما عشاق المجد والحمد ممن بلغوا الغاية القصوى من بسطة الحياة وسطوة الملك فتشوفت نفوسهم وامتدت عيونهم إلى أبعد من ذلك . يطلبها الملوك وأشباههم من أولى الصدارة والإمارة لأنهما العطر الباقى فى يد ابن آدم من الجنة ؛ فمن لم يطلبهما لمتعة النفس وسعادة الروح ، طلبهما لزينة الملك وجمال الأحدوثة . فالأدب والفن بمعناهما الأعلى أرستقراطيان لا يعرفهما إلا الرفيع ولا يقدرهما إلا القادر . فإذا نزلا إلى الشعب ابتذلا فلا ينفعانه ولا يرفعانه ، إنما الأدب والفن معنيان من معانى السماء يحملك النزوع إليهما على أن تطمح ببصرك إلى الفوق ، ويدفعك الطمع فيهما إلى أن تطرح بنفسك إلى الأمام . ومن هنا كان الرجل إذا سمت ملكاته بالعلم أو بالملك ، ورقت مشاعره بالتربية أو المدنية ، وجد نفسه فى أفق الفن محوطاً برجاله ، مغموراً بجماله . فإذا كان صاحب السلطان من ذوى القرائح الفنانة كان جدواه على الأدب من جهتين : جهة الاقتداء به فى الإقبال عليه ، وجهة المكافأة منه على الإحسان فيه . والناس منذ كانوا على دين الملوك وهوى القادة . قال أسامة بن معقل : كان السفاح راغباً فى الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها ، فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلباً للحظوة عنده فنلتها . وكان المنصور بعده معنياً بالأسمار والأخبار

وأيام العرب يدنى أهلها ويجزيهم عليها ، فلم يبق شيء من الأسمار والأخبار إلا حفظته طلباً للقربة منه فظفرت بها . وكان موسى مغرماً بالشعر يستخلص أهله ، فما تركت بيتاً نادراً ، ولا شعراً فاخراً ، ولا نسيباً سائراً ، إلا حفظته . وأعانني على ذلك طلب الهمة في علو الحال . ولم أر شيئاً أدعى إلى تعلم الآداب من رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها . ثم زهد هارون في هذه الأربعة فأنسيتها كأني لم أحفظ منها شيئاً » . وكل أديب أو فنان أو عالم هو في ذلك أسامة بن معقل . وما النهضات الأدبية والعلمية في الأمم إلا وثبات للمجد الروحي في نفوس بعض الملوك . وفي تاريخنا الأدبي نستطيع أن نؤرخ النهضات فيه بتاريخ معاوية وعبد الملك في دمشق . والرشيد وابنه المأمون في بغداد ، وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم في قرطبة ، والعزيز بالله وابنه الحاكم في القاهرة . وإن في قصور بني بويه في الرصافة ، وبني حمدان في حلب ، وبني عباد في إشبيلية ، لمنازل للوحي تنبأ بالقريض فيها من تنبأ ، وبعث برسالة العلم منها من بعث . وإنك لتذكر الوزراء الأدباء من أمثال ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، ويعقوب بن كلس ، ولسان الدين بن الخطيب ، والقاضي الفاضل ، فتذكر مجالي بالأدب ناضرة ، ومغاني بالعلم عامرة ، ومجالس كانوا فيها شموساً تدور من حولها توابعها ، تستمد الحرارة وتمد ، وتقتبس النور وتقبس .

وكان للمجالس الأدبية والعلمية في عصرنا الذهبي نفحات من الإلهام أيقظت رواقد العبقرية في ألوف من الأذهان الخصبة والقرائح الموهوبة فازداد بهم الأدب والعلم ازدهاراً وابتكاراً وكثرة .

وكان للرشيد مجلس للأدب بلغ لألاؤه أطراف الإمبراطورية الإسلامية فعشا على ضوئه صاغة القريض ورواته حتى ضاقت عليهم بغداد بما رحبت ، فاضطر يحيى بن خالد إلى امتحانهم في الشعر وترتيبهم في الجوائز ليخفف من زحمة الأدباء

عن عاصمة الدنيا فى ذلك الحين . وقد عهد بذلك الامتحان إلى شاعره أبان اللاحق فقام به .

وكان للمأمون مجلس للعلم يعقده فى دار الخلافة أيام الثلاثاوات من كل شهر. فإذا أقبل الحكماء والفقهاء مدت الموائد وقيل لهم : « أصيبوا من الطعام والشراب ثم جددوا الوضوء : ومن كان خفه ضيقاً فلينزعه . ومن كانت قلنسوته ثقيلة فليضعها » فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا ، ثم خرجوا فدخلوا على المأمون فيدنيهم خير إدناه ، ويناظرهم أحسن مناظرة،حتى تزول الشمس فتنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون .

وكان للصاحب بن عباد مجلس للشعر لا يغشاه إلا من حفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب . ومع هذا الشرط القاسى كان يجتمع على سماطه كل يوم ألف من رجالات الأدب والعلم والكلام . وبنى داراً فاجتمع له من قصائد التهنئة عليها ديوان شعر ضخم . ونفق برذون لأديب من أدباء مجلسه فرثاه شعراء الحضرة بخمسين قصيدة . وقد ذكرتُ بذلك ( مكسوينى ) حصان المغفور له الدكتور محجوب ثابت ، فإنه حين نفق من الهزال لم يظفر من شعراء مصر على كثرة ما ركبوه بالمزاح والهزل إلا بقصيدة واحدة لشوقى !

وكان للمعتضد بن عباد دار خاصة للشعراء ينزلونها على الرحب والسعة . فإذا جاء يوم الشعراء وهو يوم الإثنين من كل أسبوع دخلوا عليه فلا يقابل غيرهم ولا يسمع إلا شعرهم . ولقد بلغ من عنايته بهم ورعايته لأدبهم أن جعل لهم رئيساً يرجعون إليه ، ونظاما يرتبون عليه ، وسجلا يُحصوْن فيه .

ولو ذهبت أستقصى مجالس الأدب والعلم فى عواصم العراق والشام ومصر والأندلس لاسترخى فى يدى عنان القلم ، وتشتت فى ذهنى سياق الموضوع .

* * *

تواردت على خاطرى هذه المـآثر العربية التاريخية وأنا أنعم لأول مرة بالحديث إلى الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة وزير المواصلات ؛ وكنت قبل هذا اللقاء الأول قد عرفته بالسماع . والسماع بسَرِىٍّ خلقه وسمو أدبه مستفيض ، فلم يجر ذكره على لسان أديب إلا روى عن مجالسه ، ونوه بمواهبه ، وحدث عن أياديه . وكنت أعلم أنه استن لنفسه سنة وزراء بنى بويه ، فاتخذ له بطانة من صفوة الشعراء الشباب يأنس إليهم فى داره ، ويُسْبِل عليهم جاهه ، ويستعين بهم فى عمله . ويجزل لهم من فضله . وهم يعلمون أن الأدب وحده هو الذى أحظاهم عنده . فلا يفتأون يتنافسون فى تحصيله ، ويتفاضلون فى تجويده . فلولا أن لهذا الوزير الشاعر طبعاً أصيلا فى الأدب استفاده من مناشىء فطرته وتقاليد أسرته ، لما انبثق فى حياته العاملة ذلك النور السماوى الذى استحال أدباً فى نفسه يتخلقه ويعمل به ، وأدباً على لسانه يقوله ويفتن فيه ، وأدباً على سمعه يحميه ويشع عليه .

قال لى أديب صديق . كان لفظ (الأريحية) كسائر الصفات المهجورة مائعاً فى ذهنى لا يحدد مداه تخصيص ولا يوضح معناه مثل ؛ فلما رأيت دسوقى أباظة يرتاح للخير ويهتش ، ويهتز للمعروف ويلتذ ، تعرَّف هذا الوصف بانطباقه عليه ، وتخصص معناه بإضافته إليه ، فقد يُحَمِّل الرجل على تكاليف المجد لأن له إرثاً فيه ، فهو يبذل من ماله أو جاهه أو نعمته لواجب يؤدى ، أو لحاجة تُقضى ، أو لسُنة تتبع ؛ ولكن الأريحى الأباظى يجد من غبطة النفس ومتعة العيش أن يهتف باسمه أديب ، ويتعلق بسببه فنان ، ويستظل بفيئه عالم .

* * *

ثم زارنى الوزير وزرته ، فإذا خلاله وأفعاله تفسير واضح لمعانى العظمة . وأخص مزايا العظمة فيه أنه سَبْط الخليقة تتقلب منه فى مثل أعطاف النسيم لينا

ورقة ؛ جزل المروءة كأنما يُشع الفضل إشعاعاً فلا منٌّ ولا زهو ولا كلفة ، متواضع النفس لا تدرى وأنت تحدثه أيكما الوزير ومن منكما الباشا ؟ ولعل هذه الصفة هى أدل الصفات على نبل فطرته وكرم أصله . وهى وحدها مزيته على جميع الوزراء والعظماء ما عدا الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وسر التواضع فيه على جلالة منصبه وسمو لقبه أنه بلغ الشرف عن أصالة وورث المجد عن طِراف ، فلم يجد منصبه ولقبه مزيداً من الفضل يضيفانه إلى ميزانه ، وإن أضافا بعض الألفاظ إلى اسمه وعنوانه . إن المنصب مظهر لتقدير الأمة ؛ وإن اللقب رمز لرضا الحاكم؛ وكلاهما تحصيل لشىء حاصل ، وتسجيل لأمر واقع .

إن القطب إبراهيم الدسوقى أمة وحده فى سمو أدبه وبعد همه . وإن له نظراء فى الجاه والثروة إذا تشبهوا به وتأدبوا بأدبه كانوا عسيِّين أن ينفخوا من رُوحهم ورَوحهم فى جذوة هذه النهضة الأدبية حتى تستعر وتنتشر فتصهر بقوتها الجامد ، وتنعش بحرارتها الخامد ، وتنير بأشعتها الطريق .

# نريد داراً للترجمة يا معالى الوزير

( ٢٣ إبريل سنة ١٩٤٥ )

يا صاحب المعالى وزير المعارف !

إن أخص ما يميزك على نظرائك فى العلم والحكم أنك تقدس الحقيقة وتطلب الحق : وإن سبيلك إلى ذلك عقل راجح واضح يتعمق ويتبسط ، ويحيط ويستوعب ؛ ويدقق ويحقق ، ويستقرىء ويستنبط ، فإذا رأيت الحق فى جانبك أقنعت ومنطقك سديد وحجتك ملزمة ، وإن رأيته فى الجانب الآخر اقتنعت وعقلك راض ونفسك مَسلمة . وقد أجمع الذين عرفوك أن فى مناقشتك الرأى أو فى مطارحتك الحديث متعة للعقل والذهن ؛ لأنك توضح الخطة وتحدد الرسوم وتعين الغاية ، ثم تعرض الرأى عالما بما تقول ، وتسمع الرأى فاهما لما يقال . ثم تعارض القول بالقول ، وتوازن الدليل بالدليل ، ثم تحكم الحكم المسبب لك أو عليك فلا تدع للمكابرة والمماراة سبيلا إلى استئناف أو نقض !

لذلك أحببت أن أتقدم إلى معاليك برأى يتصل بالثقافة العامة . و يقينى أنك إذا أقتنعت به أمضيته . و إذا أمضيته كان حرياً أن يضيف هذا العصر إلى عصور بركليس وأغسطس والمأمون ولويس الرابع عشر . وهى كما تعلم العصور الذهبية التى حددت المراحل المتعاقبة للإنسان المتمدن فى طريقه إلى المعرفة .

تعلم أن أدبنا الجديد لا يزال ناقصاً فى نوعه قاصراً فى بيانه . ناقص فى نوعه لأنه أنكر قديمه وجهل جديد الناس ، فلم يغذه ماض ولم ينمّه حاضر ، فظل مخدَج الخلق لا هو حى ولا هو ميت . ولقد كان أدبنا القديم فى حدود مراميه اللسان العام لخوالج النفس الإنسانية فى أكثر بقاع الأرض ، فلم تكن

هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب ، ولا صورة تتمثل فى خاطر شاعر ، إلا وجدت فى هذا الخضَم المحيط صدفة تستقر فيها . فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار ، وجفت على جوانبه الروافد ، عاد كالبحيرة المحدودة لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل حيناً بعد حين . فالقارىء العربى الحديث لا يجد فيما أثر منه ولا فى أكثر ما استجد فيه غذاء عقله ولا رضا شعوره؛ لأن المأثور منه ناقص لانقطاعه عن سير المدنية ؛ والجديد منه ناقص لخلوه من الآداب الأجنبية . والغريب المخجل أن المرأ يقرأ أى نابغة من نوابغ العالم فى أى لغة من لغات التمدن إلا فى اللغة العربية ! فالتركى مثلا يستطيع أن يقرأ فى لغته هوجو كله ، وشكسبير كله ، وجيته كله ؛ ولكن العربى لا يجد فى لغته لهؤلاء العباقرة العالميين إلا كتاباً أو كتابين اختارهما مترجم على ذوقه ونشرهما على حسابه !

فإذا أردنا يامعالى الوزير لأدبنا أن يتسع فى حاضره كما اتسع فى ماضيه ، فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس : نرفده بآداب الأمم الأوربية ، ونصله بتيار الأفكار الحديثة ؛ فإن لكل أمة مزايا ، ولكل بيئة خصائص . ولن يكون أدبنا عالمياً مالم يلقح بآداب العالم . والمحاكاة والاحتذاء من أقوى العوامل أثراً فى الأدب .

والأدب العربى قاصر فى بيانه ، لأنه مقطوع الصلة بحضارة العصر ، فلا يستطيع أقدر كتابنا أن يتحدث عما يستعمل من ماعون وأثاث ، ولا أن يصف ما يركب من باخرة أو طائرة ، ومجمعنا اللغوى على ما نراه من نشاطه لن يقدم إلى الناس معجمه المنتظر إلا بعد جيل أو جيلين ، حين يكون كل شىء فى العالم قد تغير أو تطور فيصبح معجمه فى الجدة يومئذ كمعجم ( لسان العرب ) اليوم ! والزمان يامعالى الوزير يسرع ، والعالم كله يجد ، والسارى على مركب العجز لا يلحق ، والبيان القاصر نصف الخرس ، واللغة الناقصة ثلاثة أرباع الجهل .

وما قلناه فى اللغة والأدب نقوله فى العلم والفن ؛ فإن ما فى العربية منهما لا يعدو فى الغالب أن يكون ملخصات مجهولة النسب ، أو مقتبسات قليلة الغناء، إذا نفعت أحداً فإنما تنفع طلاب المدارس . أما الشعب الظامىء إلى المعرفة فلا يجد بين يديه من أمهات الكتب العلمية والفنية ماينقع غليله ويسد عوزه . ومادام الأمر كذلك فسيظل اللسان العربى والعقل العربى محصورين فى حدود القرون الوسطى لا يواكبان ركب الحياة ، ولا يسايران تقدم الفكر .

إن العلوم اليوم أوربية وأمريكية مافى ذلك شك . وإن الفروق التى باعدت بين الشرق والغرب فى مدلول الإنسانية الراقية إنما يجمعها كلها لفظ العلم ، وهذا العلم الذى يسخر السموات والأرض للإنسان الضعيف ، ويذلل القطعان الملايين للراعى الفرد ، سيبقى غريباً عنا مالم ننقله إلى ملكنا بالتعريب ، ونعممه فى شعبنا بالنشر . ولا يمكن أن يصلنا به أو يدنينا منه كثرة المدارس ولا وفرة الطلاب ؛ فإن من المحال أن ننقل الأمة كلها إلى العلم عن طريق المدرسة، ولكن من الممكن أن ننقل العلم كله إلى الأمة عن طريق الترجمة

فالترجمة إذن يا معالى الوزير هى الوسيلة الأولى لدفع القصور عن اللغة ،وسد النقص فى الأدب ، وكشف الظلام عن الأمة . وبحسبنا أن ننقل معجماً من المعاجم العلمية الأوربية لتصبح لغتنا كاملة وثقافتنا شاملة ؛ فإنا مضطرون فى أثناء الترجمة أن نضع المصطلحات الحديثة لكل علم وفن ، فلا يتم المعجم حتى تتم اللغة.

واذا نقلنا الى العربية نتائج القرائح لأقطاب العلوم والفنون والآداب من الانجليز والأمريكان ، والفرنسيين والألمان ، والروسيين والطليان ، أصبح هؤلاء العالميون جزءاً من كياننا الأدبى ، وركنا فى بنائنا العلمى ، نعتز به ونستمد منه ونفتن فيه ونزيد عليه ، كما فعل آباؤنا الأقدمون بما نقلوه من علوم الإغريق والهنود واليهود والسريان والفرس .

لذلك أرى — ورأيك الأعلى — أن تُنشأ دار للترجمة مستقلة عن ديوان

الوزارة ، يكون لها من جـــلالة القدر ما للجامعتين ؛ فإنها على اليقين ستكون جامعة شعبية لاتقل عنهما فى الخطر والأثر ؛ أو قل إنهما الميدانان المتقدمان وهى مركز التموين الذى يمدهما بالميرة والذخيرة والمدد . ثم يختار لها مائتان على الأقل من المترجمين النابغين فى لغتهم وفى اللغات الأوربية الثلاث ، ينقلون الآداب الأجنبية نقلا كاملا صحيحاً ، فلايدعون علماً من أعلام الأدب والعلم والفن والفلسفة إلا نقلوا كتبه ونشروها على حسب ترتيبها وتبويبها فى طبعاتها الأصلية .

هذه الدار ستنقل إلى العربية كل يوم أربعمائة صفحة مصححةمنقحة مهيأة للنشر ، قد تكون كتابين أو كتاباً أو جزءاً من كتاب على حسب النظام الذى يوضع لها . فاذا فرغت من ترجمة الموجود فرغت لترجمة المستجد ، فلا يكون بين ظهور الكتاب فى أوربا وظهوره فى مصر إلا ريثما يترجم هذا ويطبع . أما نفقات الدار فلا تزيد على مائة ألف جنيه ، وقد تنقص إلى نصف ذلك إذا ساهم فيها الأمراء والأغنياء وجامعة الدول العربية . على أن ما ينفق فى سبيل هذا العمل العظيم يقل مهما يكثر فى جانب مايؤتيه من تجديد اللغة ، وتطعيم الأدب ، وتعريب العلم ، وتعميم الثقافة ، وتدعيم النهضة ، وتيسير القراءة، وتشجيع القارىء ، وفى تحقيق منفعة واحدة من هؤلاء تخليد لذكر من قام بهذا العمل أو شارك فيه أو أعان عليه ؛ فما بالك إذا حقق هذه المنافع جمعاء ؟

ذلك جوهر الفكرة يامعالى الوزير عرضته عليك ، أما النظر فى تأثيلها وتفصيلها فأتركه إليك .

دار الترجمة أيضا :

# لا ! هذا الطريق لا يؤدى

( ٤ يونيو سنة ١٩٤٥ )

اقترحنا على صاحب المعالى وزير المعارف أن تُنشأ دار للترجمة مستقلة عن ديوان الوزارة يختار لها مائتان على الأقل من المترجمين النابغين فى لغتهم وفى اللغات الأوربية الثلاث ينقلون المعارف الأجنبية نقلاً كاملاً صحيحاً فلا يدَعون عَلماً من أعلام الأدب والعلم والفن والفلسفة والاجتماع إلا نقلوا كتبه ونشروها على حسب ترتيبها وتبويبها فى طبعاتها الأصلية ؛ فإذا فرغوا من ترجمة الموجود فرغوا لترجمة المستجد ، فلا يكون بين ظهور الكتاب فى أوربا وظهوره فى مصر إلا ريثما يترجم هنا ويطبع . وكان هذا الاقتراح مبين الأسباب ، مفصل النتائج ، موضح الآثار . يقرأه القارىء فيحسبه لطول ما تردد فى نفسه ، وتجدد فى أمانيه ، صادراً عن رأيه أو منقولا عن شعوره . لذلك دوّى صداه فى الأقطار العربية فتجاوبته ألسنٌ مبينة ، وتناولته أقلام بليغة . ولو ذهبنا نذكر كل ما قيل ، وننشر كل ما كتب ، لما اتسعت الرسالة لموضوع غير هذا الموضوع .

على أننا ننشر اليوم قولين رسميين دارا على هذا الاقتراح فى مجلس الشيوخ ، أحدهما سؤال لشيخ محترم أجمل فيه رأى الأمة ، والآخر جواب عنه لوزير المعارف لخص فيه رأى الحكومة ، ثم نعقب عليهما بما نعتقد أنه الحق والأحق .

صاغ الأستاذ أحمد رمزى أحد أعضاء مجلس الشيوخ من هذا الاقتراح

سؤالا وجهه إلى معالى الوزير عبد الرازق السنهورى فأجابه عنه بقوله :

« توجد فعلا بوزارة المعارف إدارة لأداء الأغراض النافعة التى أشار إليها حضرة العضو المحترم فى الجزء الأول من سؤاله ، وهى ترجمة المؤلفات الأجنبية ونقل المعلومات العلمية والاجتماعية والأدبية وثمرات الثقافة الأجنبية إلى اللغة العربية. وعندما توليت وزارة المعارف أعدت تنظيم إدارة الثقافة العامة التى تتبعها إدارة الترجمة بما يكفل لها أداء مهمتها على الوجه الأكمل ، وراعيت فى هذا التنظيم الجديد أنه يمكن الوزارة من أن تستعين بمن يمكن الاستعانة بهم من الكتاب والمترجمين من موظفين وغير موظفين فتعهد إليهم بأعمال الترجمة والمراجعة نظير مكافآت سخية تصرفها لهم . وشكلت لجنة من كبار رجال الوزارة والجامعة لاختيار الكتب التى تترجم ، ووضع المناهج للترجمة وتعيين من يقومون بها . أما عن النفقات التى يحتاجها هذا العمل فإن الوزارة فضلا عما يوجد فى أبواب ميزانيتها من اعتمادات مرصودة لهذا الغرض لن تتأخر عن التقدم إلى البرلمان بطلب ما يحتاجه هذا العمل الواسع النطاق من اعتمادات جديدة » .

أما سؤال الشيخ فاتجاه إلى الطريق الأقوم فى تربية الشعب وترقية عقله ولغته وأدبه وعلمه وعمله . وأما جواب الوزير فاحتفاظ بالنمط المألوف من مسايرة ( الروتين ) ، ومشاورة اللجان . ومماطلة الحوافز ، حتى يتراخى الزمن ويفتر العزم ويتغير الحال وينتقل الحكم وينتهى كل شىء إلى لا شىء ! وكان الظن بصاحب المعالى وزير المعارف وهو من هو فى منطقه وتعمقه وجده أن يعالج نقل المعارف الأجنبية على أنه تصحيح نهضة وتثقيف أمة وبدء تاريخ ، فيجعله الهدف الأول لسياسة الوزارة فى عهده ، والمنار الهادى لمن يسلك هذا الطريق من بعده .

إذن بقينا فى نقل الثقافة الغربية على ما كنا عليه لم نتقدم خطوة : إدارة

للترجمة فى مراقبة الثقافة العامة تشرف على خمسة مترجمين أو ستة ينقلون سفراً ضخماً فى التاريخ العام لا ندرى فى أى مدة ينتهى ، أو كتاباً فى تاريخ انجلترة لماكولى لا ندرى أى أمة يفيد . ثم الاستعانة بالكتاب والمترجمين من موظفين وغير موظفين ( فى أعمال الترجمة والمراجعة نظير مكافآت سخية تصرف لهم ) !

وهذه هى الخطوة الجديدة فى الإدارة القديمة ولكنها إلى الوراء ، لأن الكتب وتوزيعها على أحرار المترجمين تجربة تحققت فى بعض العهود ثم أخفقت . وإخفاقها إنما أتاها من نزعتها الفردية فى اقتراح الفكرة وانتخاب الكتاب واختيار المترجم . وبقاء الأعمال الفردية رهن ببقاء الفرد . والقاعدة عندنا أن يهدم الخالف ما بنى السالف حتى لا يكون لغيره بناء يقوم ولا عمل يتم . أما إذا أسس العمل على قانون أو مرسوم عز على الرياح أن تنال منه وإن سفت عليه التراب وزمجرت حوله باللغط .

وبعد ، فهل نستطيع أن نعرف ولو بالحدس بعض الأسباب التى سوغت للوزارة أن تفضل إدارة للترجمة على دار للترجمة ؟ يقولون إن من هذه الأسباب صعوبة الحصول على مائتى مترجم يصلحون لهذا العمل . واعتراف الوزارة بهذه الصعوبة اعتراف منها بالعجز عن أداء ما خلقت له ؛ فإن من العار الذى لا يدحضه ندم ولا لوم ألا نجد فى جيلين نشأتهما وزارة المعارف فى مصر وفى أوربا ، مائتين يحسنون اللغة العربية ولغة أخرى أوربية ، وتعليمها كما نظن يبتدىء مع الدراسة الابتدائية ، وينتهى مع الدراسة الجامعية ! فإذا سلمنا لهم أن ذلك هو الواقع فإن فى الإمكان أن يسدوا هذا العوز بطائفة من إخواننا العرب ، إذ الغرض العلمى واحد ، والتعاون الثقافى قائم . فإذا أعيانا الوصول إلى ذلك ، بدأنا العمل بمائة و خمسين ثم بعثنا إلى أوربا فى كل سنة عشرة من خريجى الأزهر ودار العلوم

والجامعة يخصصون لدرس هذه اللغات حتى يبلغ النصاب عدده . ولو أن (البعثة الفهمية) – ولها فى ذمة الوزارة ستمائة فدان من أخصب الأرض — سارت على النهج الذى رسمه لها صاحب المعالى حلمى عيسى لما شكونا هذا النقص ولا أحسسنا ذلك القصور .

كذلك يقولون إن هؤلاء المترجمين إذا تيسر الحصول عليهم سيصيبهم داء الموظفين فيعملون عشر ما يستطيعون . وإذن يكون عشرون يرأسهم ضميرهم ، خيراً من مائتين يرأسهم كبيرهم . ودواء ذلك إذا جاز أن يكون عين كلوء تراقب ، ويد حازمة تصرّف ، وتحديد يومى لإنتاج المترجم يطلب منه ويناقش فيه ويحاسَب عليه .

أما غير هذين الاعتراضين على تهافتهما فمرده إلى الهوى لا إلى العقل . والحق أن الغار الذى ضفره عطارد لهذا العمل العظيم الخالد لا يزال مرفوعاً بين يديه ينتظر الرؤوس التى تستحقه . وما زلت قوى الأمل فى أن يكون من نصيب الصديقين العزيزين وزير المعارف ومدير الثقافة . فليت شعرى أهو الحذر الذى يخطىء ، أم هو القدر الذى يصيب؟

يا معالى الوزير ! إننا أمة جاهلة فينا أفراد يعلمون . وإن من الخزى أن نظل كذلك وآباؤنا هم الذين علموا الشعوب ومدنوا العالم ! إن الجهل باللغات الأجنبية عندنا مذمة وهو عند غيرنا محمدة . وعلة ذلك أن لغتنا لا تزال لغة العلم القديم ؛ فمن اكتفى بها أتهم بخفة الوزن وقلة العلم . وهيهات أن ندرأ عنها وعنا هذه المعرة إذا لم ننقل إليها المعارف الحديثة على الوجه الذى أقترح ! بهذا وحده يا معالى الوزير تعود لغتنا إلى الحال التى قال فيها كاهن قرطبة أيام كنا سادة الأندلس : « إننا نحب أن نقرأ الشعر والقصص ، وندرس الدين والفلسفة

فى اللغة العربية ، لأنها لغة عذبة الألفاظ بليغة الأداء . ولا نكاد نجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية ، وشبابنا الأذكياء كافة لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم . وكلما قرأوا كتبها ودرسوا أدبها أعجبوا بها . فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه وقالوا . إن الفائدة منه لا تساوى التعب فى قراءته[1] ... »

ذلك ما قالوه فى لغتنا بالأمس ؛ وهو نفسه ما نقوله فى لغاتهم اليوم ! فهل فى ذلك لقوم بلاغ ؟

---

(١) تاريخ العرب فى أسبانيا لدوزى بالفرنسية ج ٢ ص ١٣ .

# أوربا والإسلام

( ٧ يناير سنة ١٩٤٦ )

شيّع الناس بالأمس عاما قالوا إنه نهاية الحرب ، واستقبلوا اليوم عاماً يقولون إنه بداية السلم . وما كانت تلك الحرب التي حسبوها انتهت ، ولا هذه السلم التي زعموها ابتدأت ، إلا ظلمةً أعقبها عمى ، وإلا ظلماً سيعقبه دمار ! .

حاربت الديمقراطية وحليفتها الشيوعية عدوتيهما الدكتاتورية ، وزعما للناس أن أولاهما تمثل الحرية والعدالة ، وأخراهما تمثل الإخاء والمساواة ، فالحرب بينهما وبين الدكتاتورية التي تمثل العلو في الأرض ، والتعصب للجنس ، والتطلع إلى السيادة ، إنما هي حرب بين الخير والشر ، وصراع بين الحق والباطل . ثم أكدوا هذا الزعم بميثاق خطوه على مياه ( الأطلسي ) واتخذوا من الحريات الأربع التي ضمنها هذا الميثاق مادة شغلت الإذاعة والصحافة والتمثيل والتأليف أربع سنين كوامل ، حتى وهم ضحايا القوة وفرائس الاستعمار أن الملائكة والروح يتنزلون كل ليلة بالهدى والحق على رزفلت وتشرشل وستالين ، وأن الله الذي أكمل الدين وأتم النعمة وختم الرسالة قد عاد فأرسل هؤلاء الأنبياء الثلاثة في وشنطون ولندن وموسكو ، ليدرأوا عن أرضه فساد الأبالسة الثلاثة في برلين وروما وطوكيو ! وعلى هذا الوهم الأثيم بذلت الأمم الصغرى للدول الكبرى قسطها الأوفى من الدموع والدماء والعرق ؛ فأقامت مصر من حريتها وثروتها وسلامتها في ( العلمين ) سداً دون القناة ، وحجزت تركيا بحيادها الودي سيل النازية عن الهند ، وفتحت إيران طرقها البحرية والبرية ليمر منها العتاد إلى روسيا ، ولولا هذه النعم الإسلامية الثلاث لدقت أجراس النصر في كنائس أخرى ! .

ثم تمت المعجزةُ وصُرع الجبارون ووقف الأنبياء الثلاثة ، على رءوس الشياطين الثلاثة ، يهصرون الأستار عن العالم الموعود . وتطلعت شعوب الأرض إلى مشارق الوحى فى هذه الوجوه القدسية ، فإذا اللحى تتساقط ، والقرون تتفتأ ، والمسامح تنفرط ، والمسوح تنتهك ؛ وإذا التسابيح والتراتيل عواء وزئير ، والوعود والمواثيق خداع وتغرير ؛ وإذا الديمقراطية والشيوعية والنازية والفاشية كلها ألفاظ تترادف على معنى واحد : هو استعمار الشرق واستعباد أهله !

إذن برح الخفاء وانفضح الرياء وعادت أوربا إلى الاختلاف والاتفاق على حساب العرب والإسلام ! :

هذه إيران المسلمة ، ضمن استقلالها الأقطاب الثلاثة ، حتى إذا جد الجد تركوها تضطرب فى حلق الدب (١) ثم خلصوا نجيا إلى فريسة أخرى !

وهذه تركية المسلمة ، واعدوها وعاهدوها يوم كانت النازية الغازية تحوّم على ضفاف الدردنيل ؛ وهم اليوم يخلونّها وجهاً لوجه أمام هذا الدب نفسه يطرق عليها الباب طرقاً عنيفاً مخيفاً ليعيد على سمعها قصة الذئب والحمل ! .

وهذه إندونيسيا المسلمة ، آمنت بالإنجيل ( الأطلسى ) وقررت أن تعيش فى ديارها سيدة حرة ؛ ولكن أصحاب الإنجيل أنفسهم هم الذين يقولون لها اليوم بلسان النار : هولندا أوربية ، وإندونيسيا أسيوية ، ونظرية الأجناس هى القانون النافذ على جميع الناس ! .

وهذه سورية ولبنان العربيتان ، أقر باستقلالهما ديجول ، وضمن هذا الإقرار تشرشل ، ثم خرجت فرنسا من الهزيمة إلى الغنيمة ، واختلف الطامعان نخاس المضمون بعهده ، وبر الضامن بوعده . ثم قيل إنهما اتفقا ! واتفاقهما لن يكون على أى حال قائماً على ميثاق الحريات الأربع ! .

---

(١) الدب : روسيا .

وهذه فلسطين العربية ، يفرضون عليها أن تؤوى فى رقعتها الضيقة الشريد والطريد والفوضوى واللص ، وفى أملاكهم سعة ، وفى أفواتهم فضل ؛ ولكنهم يضحون بوطن العرب ، لعجل السامرى الذهب ، و يتخلصون من الجرائم بتصديرها إلى أورشليم !

وهذه أفريقية العربية ، يسمعون أن ديجول أخا ( جان دارك ) قد حالف على أهلها الخوف والجوع ، ثم انفرد هو بمطاردة الأحرار حتى ضاقت بهم السجون والمقابر ، ولا يقولون له : حسبك ! لأن السفاكين أوربيون يؤمنون بعيسى ، والضحايا أفريقيون يؤمنون بعيسى ومحمد !

بل هذه هى الأرض كلها أمامك ؛ تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة ، فهل تجد العيون تتشوف ، والأفواه تتحلب ، والأطماع تتصارع ، إلا على ديار الإسلام وأقطار العروبة ؟ فبأى ذنب وقع خمس البشرية فى هذه العبودية المهلكة ، وهو الخمس الذى انبثق منه النور وعرف به الله وكُرم فيه الإنسان ؟ ليس للثلاثمائة مليون من العرب والمسلمين من ذنب يستوجبون به هذا الاستعمار المتسلط إلا الضعف ، وما الضعف إلا جريرة الاستعمار نفسه . فلو كان المستعمر الأوربى صادق الحجة حين قال إننا نتولى شؤون الشرق لنقوى الضعيف ونعلم الجاهل وندفع المتخلف ، لوجد من العرب سنداً قوياً لحضارته ، ومن الإسلام نوراً هادياً لعقله ؛ ولكنه ورث الخوف من الإسلام عن القرون الوسطى فهو يسايره من بعد ، ويعامله على حذر . و إذا عذرنا قسوس العصور المظلمة فيما افتروا عن جهالة ، فما عذر الذين كشفوا الطاقة الذرية إذا جمدوا على الضلال القديم وكتاب الله مقروء ودستور الإسلام قائم ؟ !

لقد فشلت مذاهبهم الاجتماعية كلها ، فلم تستطع أن تخلص جوهر الإنسان من نزعات الجاهلية الأولى ؛ فلم يبق إلا أن يجربوا المذهب الإسلامى ولو على سبيل الاقتباس أو القياس .

لا نريد أن نقول لهم : أسلموا لتسلموا ، وتعلّموا لتعلموا ، فإن هذه الدعوة يعتاقها عن الغاية القريبة عوائق من العصبية والوراثة والتقاليد والعادة ؛ ولكنا نقول لهم : تصوروا نظاماً واحداً يصلح لكل زمان ومكان ، ويقطع أسباب النزاع بين الإنسان والإنسان : يوحد الله ولا يشرك به أحداً من خلقه ؛ ويقدس جميع الشرائع التى أنزلها الله ولا يفرق بين أحد من رسله ؛ ويؤاخى بين الناس كافة فى الروح والعقيدة لا فى الجنس والوطن . ويسوى بين الأخوة أجمعين فى الحقوق والواجبات ، فلا يميز طبقة على طبقة ولا جنساً على جنس ولا لونا على لون ؛ ويجعل للفقير حقاً معلوماً فى مال الغنى يؤديه إليه طوعاً أو كرهاً ليستقيم ميزان العدالة فى المجتمع ؛ ويجعل الحكم شورى بين ذوى الرأى فلا يحكم بأمره طاغ ، ولا يصر على غيه مستبد ، ويحرر العقل والنفس والروح فلا يقيد النظر ولا يحصر الفكر ولا يقبل التقليد ولا يرضى العبودية ؛ ويأمر معتقديه بالإقساط والبر لمن خالفوهم فى الدين وعارضوهم فى الرأى ، ويوحد الدين والدنيا ليجعل للضمير السلطان القاهر فى المعاملة ، وللإيمان الأثر الفعال فى السلوك : وجملة القول فيه أنه النظام الذى يحقق الوحدة الإنسانية فلا يعترف بالعصبية ولا بالجنسية ولا بالوطنية ، وإنما يجعل الأخوة فى الإيمان ، والتفاضل بالإحسان ، والتعاون على البر والتقوى . فإذا تصورتم هذا النظام ، فقد تصورتم الإسلام . وإذا أخذتم به فقد اطمأن العالم المضطرب واستقر السلام المزعزع . ولا يعنينا بعد ذلك أن تطلقوا عليه لفظاً يونانياً أو لاتينياً مادمتم تسلمون وجوهكم إلى الله ، وتسلمون قيادكم لمحمد !

# حوار سياسى بين شيخ وشاب

( ٢٨ يناير سنة ١٩٤٦ )

فى مجلس من مجالس الرأى ينحدو إليه صحابة من أحرار الفكر قد اطمأنوا فى حياتهم الوديعة إلى قسمة القدر بعد أن اضطربوا فى المكاسب ، وتقلبوا فى المناصب ، وتمرسوا بالأمور ، وبلغوا غاية المقدور لهم من مطالب العيش ومآرب النفس ؛ فهم يمثلون الرأى الصريح ، ويستعملون المنطق الخالص ، ويرفعون أنفسهم فوق الأوضاع والأطماع والسياسة ، فلا تقيدهم وظيفة ولا تعبدهم شهوة ولا يقودهم حزب . فى هذا المجلس تُستعرض كل ليلة أخبار اليوم وأقوال القوم ، فتوزن بالميزان القسط ، وتنقد بالنظر الثاقب ، فلا يورد خبر أو قول إلا حاكه رأى ، ولا رأى إلا هاجمه اعتراض ، ولا اعتراض إلا ساوره شبهة .

وأكثر السامرين فى هذا المجلس من الكنتيين [1] ، فكثيراً ما تسمع كنتُ وكنتُ ، وقليلا ما تسمع سأكون وأكون . لذلك كان التشاؤم الذى تقتضيه ذكرى الماضى غالباً فيه على التفاؤل الذى يستوحيه رجاء المستقبل ! والشباب الذين يختلفون إليه يهولهم منهُ عرْى الحقيقة وجفاء الواقع ، فيستحبون عليهما توشية الأحلام وتزويد المنى ، ليستديموا لأنفسهم بواعث النشاط وحوافز الأمل .

فى إحدى جلساته الأخيرة جرى بين شاب من هؤلاء وشيخ من أولئك هذا الحوار نسوقه إليك على سرده تصويراً لروح هذا المجلس :

الشاب : وما ذنبنا فى هذا الضعف الذى نعانيه ؟ أيستطيع قصير القامة أن يطول ، ورخو العظام أن يصلب .

---

(١) الكنتي : الطاعن فى السن كأنه نسب إلى قوله : كنت فى شبابى كذا وكذا .

الشيخ : أما الضعف الناشيء عن قلة العدد وضيق الرقعة فلا حيلة لنا فيه ؛ وأما الضعف الناشيء عن سوء الخلق وقلة العلم فلا عذر لنا منه . والناس يقوّمون بالأرواح لا بالأجساد ، ويقدّرون بالصفات لا بالأعداد . فلو كان الشرقيون قد بلغوا ما بلغ الغربيون من المدنية والثقافة ، لاستحيا هؤلاء أن يعاملوهم كما يعاملون الأرقاء ، وأن يساوموهم كما يساومون الأشياء !

الشاب : وهل يمنعنا هذا الضعف العارض من أن نطلب الحق ونغضب له ونفاوض فيه ؟ .

الشيخ : وهل تطلب حقك من غاصبيه إلا بإحدى وسيلتين . وسيلة القوة وليس لك جيش ، أو وسيلة المنطق وليس عندك ساسة ؟ إن طلب الحق على هذه الحال استجداء . والمستجدى يسأل ولا يفاوض ، و يقبل ولا يعارض !

الشاب : إن الضعيف يستطيع أن يخدش ، إذا لم يستطع أن يبطش ، والخدش فى وجه القوى عيب يهمه ألا يكون .

على أن القوة ستحققها الجامعة العربية ، ومن حبات الرمل يكون الجبل ، ومن قطرات المطر يكون النهر . واستعباد العروبة المتحدة عسير ؛ وازدراء الكتلة الضخمة أعسر ، ومتى تيسرت القوة للقادة تيسرت الحجة للساسة .

الشيخ : إن الجامعة العربية من وحى الخصم وتدبيره . ولو كان ( إيدن ) يخشاها لما أوحاها . والعبرة ليست بالعدد كما قلت لك ؛ فإن فى الهند وفى جزر الهند كمية ، ولكن فى انجلترة وهولندة كيفية . وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات والنور !

على أن العرب تيقظوا متأخرين . تيقظوا فى عصر الذرة ، ولو أنهم استيقظوا فى عصر الفحم لوجدوا مسافة تخلفهم عن الغربيين فيه تبلغ قرناً أو تزيد .

الشاب : وماذا يضير لو كانت الجامعة العربية من وحى الخصم وتدبيره مادام يومها لغدنا وأمرها بيدنا وقوتها بنا وخيرها لنا ؟ وهل يقدح فى ملكيتك لبيتك أو يمنع من انتفاعك به أن يعاونك صديق على بنائه ليستند إلى جداره، أو يفىء إلى ظله وهو فى الطريق إلى داره ؟

على أن الإنجليز أكيس من أن يناصبوا العرب العداء ؛ فإن البلاد العربية إذا عادتهم يكون موقعها من ملكوتهم موقع الغصة فى الحلق والجلطة فى الدم، هذه تقف القلب وتلك تكظم النفَس . وما كان أيسر الغصة وأهون الجلطة لولا أنهما اعترضتا طريق الحياة ! ونشوب العظم فى حلقك يؤذيك وقد يرديك ولكنك لاتتخلص منه بالرصاص إلا اذا تخلصت من نفسك !

ذلك إلى أن الخلاف بين الدول العظمى على استعمار الشرق يقبض عنان كل دولة عن الافتيات بالأمر والجنوح إلى القوة . ولوصح أن روسيا وفرنسا تسيران وحياً فى طريق الكشف عن القنبلة الذرية ، لكان من أمل الأمم الضعيفة أن تجداها حتى يصبح التهديد بها عبثاً لايجدى ولغوا لا يفيد !

الشيخ . أوافقك على أن موقع البلاد العربية يملك على انجلترة الحياة والموت ، وأن الخلاف بين الدول المستعمرة يفوت على كل منها الإنفراد بالرأى والحكم ، وأن شيوع الطاقة الذرية يبطل الركون إلى القوة فى تسويغ العدوان والظلم ؛ ولكن مَن من الساسة الذين نراهم اليوم يتبوأون كراسى الحكم فى دول العروبة يستطيع أن يستغل هذه الأسباب لفائدة مصر ومنفعة العرب ؟ إن أكثرهم يحترفون السياسة من غير أداة ولا آلة . وإن وثوب من يثب منهم إلى الحكم أو بقاءه فيه ، إنما يعتمد على ذرائع غير طبيعية ليس منها على كل حال براعة الذهن ولا نبالة الغرض ولا إرادة الشعب . وأمثال هذه ( الكفايات ) التى أقامتها المصادفات والحظوظ على أسناد من الدعاية والخداع والتمليق والتفريق

والمحاباة والتساهل لا يمكنها أن تزاول الإصلاح لأنها صنيعة الفساد ، ولا أن تصاول القوة لأنها وليدة الضعف ؛ فقصارى أمرها أن تصانع ولا تصنع ، وتقول ولا تعمل ، وتدور ولا تسير . وما دام الرجل الذى يخلقه الله للاصلاح و يرسله بالهدى و يؤيده بالخلق لا يزال وراء الغيب ، فإن الأمل فى وحدة العرب ونهضة الشرق يظل أوهن من حبال الهباء وأبعد من أشباح الوهم ! و إنى لأجيل النظر والفكر وأتقصاها فى الأفق الغائم البعيد فلا أتبين لظهور هذا الرجل المنتظر شرطاً ولا علامة .

الشاب : أراك أسقطت الشباب من حسابك ، كأنهم غير أحرياء بحمل الشعلة وهم ثمار جهد طويل بذلته الأمة فى تنشئتهم وتثقيفهم ؛ فهل كانت الشهادات المختلفة الدرجات والغايات ، والألقاب الممنوحة من المعاهد والجامعات ، دلائل على الجهالة وعناوين للأمية ؟

الشيخ : إن الأبناء أشبه بآبائهم من الليلة بالليلة . وإن الدار والمدرسة على حالهما الحاضرة لتعجزان عن تخريج طبقة من الشباب يخرج منها ذلك الرجل الموعود الذى تموت ( أنا ) فى لسانه وتحيا فى ضميره ، ويتحد فى ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه ؛ فهو يحس ألمه لأنه مجتمع شعوره ، و يدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، و يملك قياده لأنه مظهر إرادته . ثم يرتفع بسمو نفسه ونزاهة هواه عن أوزار الناس وأقذار الأرض ، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابى لأن فضله أوسع من العصبية ، ولا يقول قولا أو يعمل عملا إلا إذا وافق الدين الذى يعتقده ، والمبدأ الذى يؤيده ، والشعب الذى يقوده !

الشاب : إنك يا سيدى لتسرف فى التشاؤم لأنك شيخ !

الشيخ : و إنك يا بنى تسرف فى التفاؤل لأنك شاب . ولعل الحق أن يكون بينى و بينك !

# جمال الدين الأفغاني
## ناحية من جهاده

( ١١ مارس سنة ١٩٤٦ )

فى اليوم التاسع من شهر مارس عام ١٨٩٧ قضى السرطان فى عاصمة الخلافة على الحكيم الثائر المصلح السيد محمد جمال الدين الأفغانى ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ومسح عن عيون الشرقيين ما فتَّرها من همود الكرى ، وجلا عن قلوب المسلمين ماغشاها من صدأ الجهل ، فاطمأن الاستبداد وأمن الاستعمار وظن الذين ينفضون أوطانهم ليقيموا عروشهم ، والذين يزيفون أديانهم ليملأوا كروشهم ، أن الصوت قد خفت ، وأن المشعل قد انطفأ ؛ ولكنهم نسوا أن الرسل يبدعون والله يُثْبت ، وأن المصلحين يبذُرون والدهرُ ينبت ، وأن جمال الدين إنما كان صيحة الحق وإشراقة الهدى انبعثتا فى يومهما الموعود كما ينفجر المكظوم فيدوّى ، ويحلو لك الليل فيصبح . وهل كانت الثورات الديمقراطية التى شبها العرابيون ثم المهديون ثم الاتحاديون ثم السعديون ثم الهاشميون ثم الفهلويون إلا أقباساً من تلك الشعلة المباركة التى حملها الأفغانى وتنقل بها فى ممالك الشرق ، يحرق و يضىء ، و ينضج ويحمى ، ويقَبس ويشعل ، وساعده مرفوعة لا تكل ، وعزيمته ماضية لا تنكل ؟

وسر القوة فى هذا الرجل أنه كان صاحب رسالة لا طالب ملك : هاجم السياسة الإنجليزية فى ( العروة الوثقى ) أعنف الهجوم أيام الثورة المهدية ، فدُعى إلى لندن ليلوح له اللورد ساليسبرى بملك السودان ليطفىء الثورة ويقترح الإصلاح ، فما كان جواب الأفغانى إلا أن قال : « إن السودان لأهله . وهل

تملكونه حتى تملكون عليه ؟ ! »[1] .

وأراده السلطان عبد الحميد على مشيخة الإسلام فأباها وقال : إن وظيفة العالم فيما يزاول من تعليم ، وإن رتبته فيما يحسن من علم[2] .

أما كيف تهيأت نفسه لرسالة البعث والتجديد على فترة من رسل الهدى وأئمة الإصلاح فَجر فيها الحاكم وكفر المحكوم ، فذلك من علم الله الذى يصطفى من يشاء كما يشاء لنصرة حقه وهداية خلقه . وكل مانظنه معيناً على هذا التهيؤ أنه ولد فى بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين ، سؤددَ الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية ؛ وأنه درج فى بيئة تعتز بطباع البداوة من حرية وحمِّية وأريحية وأنفة ؛ وأنه درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا ، وفنون اللسان والعقل ، على منهاج محيط شامل ؛ وأنه حذق فى مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية ، وألم بالإنجليزية والروسية ، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب فى القديم والحديث ؛ وأنه طوّف ما شاء الله أن يطوّف فى أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وانجلترا وفرنسا وروسيا ، فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب ؛ وأن موقع أفغانستان بين الهند وإيران أمكنه من أن يرى ميادين الاستعمار المدل المذل تتواثب عليها قوى الإنجليز والروس ظاهرة وباطنة ، فهاله منذ شب عدوان الأجنبي على استقلال أمته وجيرته .

كل أولئك الذى ذكرت من كرم المحتد ، وشرف المولد ، وبداوة البيئة ، وعمق الثقافة ، وحذق اللغات ، وإدمان الرحلة ، ومعاناة الإستبداد ، ومكابدة الاستعمار ، لم يخلق وحده الرجل المصلح فى جمال الدين ، وإنما كان مساعداً

(١) خاطرات جمال الدين للمخزومى ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ .

لسر العبقرية الذى أكنَّه الله فيه على أن يظهر مهيأ الأسباب مستكمل الوسائل

* * *

كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم ، جرىء الصدر لأنه حر ، ندِى الراحة لأنه زاهد ، ذرب اللسان لأنه قرشى ، أبى الضيم لأنه أمير ، حاد الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل . ولم يبتغ من وراء هذه الصفات — كما قال — إلا سكينة القلب . وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ، ويفعل مايقول[1] . ومِنْ تمازج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض ، وامتد أمامه الأفق ، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله ، والشرق الإنسانى كله ، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر ، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرة المستبد .

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة ![2] .

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على الهامش يظنون أنه قَصر جهده فى تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة . والواقع الذى لاشك فيه أنه فكر ثم قدر ثم دبّر ، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لاتلتئم ، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم .

تولى الوزارة وهو فى ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم ، فجمع نفسه على الاستقلال ، وأدار أمره على الشورى ، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة ، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير ، وخرج السيد إلى الهند يبتغى السكينة عند تاجر صديق ، فاستقبله الإنجليز على الحدود ،

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣

وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة . فسألهم الإقامة شهرين ، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه ، وإصغاءهم الشديد إليه ، قصروا هذه المدة وأمروه بالخروج . وكادت الأعصاب الهندية المخدّرة تثور حين قال للزعماء الهنود وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل ، لو أن ملايينكم مسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهنـــد . ولو انقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع » !

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة ، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة . ثم عُين عضواً فى مجلس المعارف ، فرأى فى التعليم رأياً ، وخطب فى الصناعة خطبة ، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وإخوان الضلال من شيوخ الدين . وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة فى نفسه ، فافترى على الرجل الأباطيل ، وبسّ حواليه النمائم ، فلم يجد الأفغانى بدّاً من النزوح إلى القاهرة .

وهنا وجد الصدر الأرحب فى رياض باشا ، فتجلت عبقريته فى التعليم والتنبيه والتوجيه ؛ وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة فى البيت وفى القهوة ، فعشا على ضوئها الهادى طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة . ثم اتخذ من المحفل الماسونى الذى أنشأه ، منارة لهذه الشعلة ، فقسم الإخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة . فشعبة الحربية تنظر فى ظُلامة الضباط المصريين ، وتنذر ( ناظر الجهادية ) ، أن يُنصفهم من الضباط الجراكسة . وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم فى العمل والمرتب . وراع أُولى الأمر ما قرأوا فى تقارير الشعب ، وما سمعوا من لغط الموظفين ، وما رأوا من قلق المثقفين ، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه فى ذلك فقال له فيما قال : « إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب فى حكم

البلاد عن طريق الشورى » . ثم ازداد جمال الدين إمعاناً فى حملته ، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته ، حتى انتهى الأمر — بعد جهاد ثمانى سنوات — إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه ، فزينوا للخديو أن يخرجه من مصر فأخرجه .

وانتقلت الشعلة إلى باريس ، وسطعت فى العروة الوثقى ، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض فى جنبات الشرق كما تومض المنارة فى ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزره ، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه . واستزاره قيصر الروس واستخبره . فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه . واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الامبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون ، زوى عبد الحميد مابين عينيه ؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور !

وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهاداً مضنياً فى سبيل الله والعلم والحرية والشورى .

كان أينما حل تنفس الصبح واستيقظ الهجود ، وأينما رحل ارتجفت العروش واضطربت القيود !

طيب الله ذكرى هذا الإمام العظيم ، وأجزل له ثواب المصلحين المخلصين فى جنات النعيم !

# أعداؤنا الثلاثة

( ٢٥ مارس سنة ١٩٤٦ )

كانت « الرسالة » أول من حصر أعداءنا الثلاثة فى الجهل والفقر والمرض حين اقترحت على وزارة الشؤون الاجتماعية أن تحرر دستورها الإصلاحى تحت هذه العناوين ، لأنها جماع العلل التى يصدر عنها كل فساد وينجم منها كل شر[1] ؛ وقالت الرسالة يومئذ : إن هذه الوزارة تجديد رسمى لدعوة النبوة ، فلاك الأمر فيها الدرس والرواية والمشورة والعزيمة والنفاذ ؛ على أن يكون كل رأى فى وجهه ، وكل عمل فى وقته ، وكل أمر فى أهله . ثم انتظرنا وانتظر الناس ، فإذا هى وزارة كسائر الوزارات : مكاتب وكتاب ، وسعاة وحجاب ، وأوراق تفرق وتجمع ، وأرزاق تقدر وتوزع ، ثم علم من غير عمل ، أو عمل من غير علم ؛ وإذا نحن بعد ثمانى سنوات من عمرها لا نزال من الأمية والفاقة والعلة فى الموضع الذى كنا فيه إذا لم نكن تأخرنا عنه . ذلك لأنها وزعت جهدها الضئيل ومالها القليل على ماسلبت من اختصاص الوزارات فعجزت عن أداء ما خلقت له ؛ وتعاقب عليها الوزراء والوكلاء تعاقب الظلال الخفاقة ، فلم يمهلوا حتى ينضجوا الرأى ويرسموا الخطة ويبتغوا الوسيلة . فإذا سنح لها خاطر فى الإصلاح بدأته من آخره أو أخذته من طرفه فينتشر عليها الأمر وتلتبس أمامها الوجهة . فالأمل إذن فى استعدائها على الجهل والفقر والمرض وهى مصابة بهن جميعاً أشبه الأشياء باستثمار الصفصاف واستيلاد العقيم . ولكن علل الشقاء المصرى كانت قد رزت

(١) انظر المجلد الثانى من كتاب وحى الرسالة ص ١٠٦ .

فى وعينا القومى بروز العقيدة الراسخة والضرورة الملحة ، فهى تذب إلى العيون وثوب الحصى ، وتقع فى القلوب وقوع النبل ، فمن حاول أن يفر منها أو يغضى عنها كان كالمصحر فى وسط الزوبعة أنى اتجه وجد الرمل فى وجهه والظلام فى وجهته . وذلك مثل الذين تزعموا نهضة الأمة فى مدى ربع قرن فقصروا الجهود وحصروا الأفكار فى مكافحة العدو الرابع وهو الاحتلال . ولو كتب الله لهم التوفيق لشبوها على الأعداء الأربعة فى وقت واحد . ولومهد لهم سبيل الفوز لجعلوا الميدان الأول للعدو الأول وهو الجهل ؛ لأنه هو الذى ولد الفقر والمرض ثم استعان بهما على سلب الاستقلال وجلب الاحتلال ، وقتل الروح القومية فى الشعب ، فلم يكن له رأى عام لنقص إدراكه ، ولا خير مشترك لضعف إنتاجه ، ولا كيان صحيح لوهن جسمه . ولكن زعماءنا اختاروا أسلم الميادين ، ونهجوا أسهل الطرق ، وابتغوا عرض الحياة ، لأن محاربة الاحتلال لا تكلفهم غير تأليف المظاهرات وإنشاء المقالات وإلقاء الخطب ، ثم تنتهى بهم وشيكا إلى الحكم والثروة والجاه عن طريق الدستور أطال الله عمره وأعز نصره ! أما محاربة الجهل والفقر والمرض فجهاد لا يثبت له ولا يصبر عليه إلا أولو العزم من المجاهدين المخلصين المضحين الذين يعملون ليرضى الله ، ويشقون ليسعد الناس ، ويموتون ليحيا الوطن !

على أن الزعيم الحكيم يستطيع أن يدرك من وراء السياسة والحكم رضا قلبه ورضا شعبه ورضا ربه إذا تأبى على المطامع ، وتعالى عن الشهوات ، ووجه قوى الحكومة والأمة كلها إلى هذا الجهاد المقدس . إنه إن أحسن التنبيه وأخلص التوجيه وأحكم القيادة ، أبلى بلاء الرسل دون أن يتصدى لمخاطر الرسالة ، وجوزى

جزاء الملوك دون أن يتعرض لمكاره الملك ، فأجناده يضحّون وهو يُعيّد ، وقواده يحاربون وهو ينتصر ، وأنداده يفنون وهو يخلد !

* * *

ليت شعرى هل كان يفكر فى ذلك صاحب الدولة رئيس الحكومة القائمة حين قطع العزم على أن يكون برنامجه فى الحكم مفاوضة الاحتلال فى مصر والسودان على الجلاء ، ومجاهدة الجهل والفقر والمرض حتى الفناء ؟ !

نعم ، طوى برنامجه السياسى على هذين المطلبين ، ثم أخذ يهيىء لهما الأسباب ويرُصد الأهب ، فألف وفد المفاوضة من رجالات السياسة ، وفى الوقت عينه ألف مجلساً أعلى لشؤن الطبقات الفقيرة من وزارة المعارف والشؤون والصحة والزراعة والتجارة ، وجعل لنفسه الرياسة فى الوفد المفاوض وفى المجلس الأعلى ، ثم بدأ العمل فى الميدانين على السواء . والذى يعنينا اليوم ذكره أن هذا المجلس الأعلى قرر القيام بطائفة من أضخم المشروعات الثقافية والاقتصادية والصحية ، تحقق العدالة الاجتماعية ، وترفع مستوى العيش لجمهور الشعب وهو صلب المجتمع وأداة إنتاجه وعدة دفاعه ؛ ورأى تنفيذاً لتلك الأعمال الخطيرة أن يعقد لها قرضاً وطنياً بخمسين مليون جنيه يثمرُ فيه عفو المال وفضلات الرزق فتجدى على صاحبها مرتين : مرة فى نفسه ، وأخرى فى جنسه !

من تلك المشروعات العتيدة ما يعالج الجهل كاصلاح التعليم الإلزامى ومحو الأمية فيمن شبوا عن الطوق وجاوزوا حد الإلزام . ومنها ما يعالج الفقر والمرض كتقسيم القطر إلى وحدات اجتماعية عامة ، وتنقسم كل منها إلى عشرة آلاف وحدة ، تتمثل فى كل وحدة جميع الوزارات المشتركة فى هذا المجلس الأعلى فتكون

سفيراً بين الحكومة والفلاح ، وصلة بين العلم والزراع ، ورسولا من الطب إلى المرضى ، ووسيطاً بين التاجر والمنتج ، وبرزخاً بين الناس والمعرفة . وتلك هى الأعمال التى أنشئت لها وزارة الشؤون فلم تستطع النهوض بها ، ولم تصارح الناس بالعجز عنها ؛ وظلت تعمل على هامش الحكومة : تصدر المجلة ، وتعلن الموالد، وتسجل النقابات ، وتزور المساجين ، وتستقبل العمال ، وتأخذ شيئاً من كل شىء، ولا تؤثر أبداً فى أى شىء! وكان من وسائلها المرجوة لو رزقت ملكة الابتكار، ان تدبر المال والرجال بمثل ما يدبره اليوم رئيس الحكومة فتذلل العقبة التى وقفت دونها خائرة حائرة لا تعرف لأمرها قِبلة ولا دِبرة .

لقد عبأ رئيس الوزراء قوى الحكومة والشعب لمحاربة اعدائها الأربعة ، وليس فى الأمة اليوم كما يقول شبابها ويردد كهولها من يضن بماله ونفسه على هذه الحرب . فهل آن لمصر السادرة فى الخلاف والغى أن تدرك سر النهوض، وتعرف حقيقة الإصلاح ، وتعلم أن الأمة لا تكون متمدنة إلا إذا امحت هذه الفروق المخيفة بين الخاصة والعامة ، وبين المدينة والقرية ؟ إنك ترى الفقير القروى فى جسمه الضاوى وثوبه الخلق وجهله المطبق ، ثم ترى الغنى الحضرى وعليه زهرة العيش ونضرة الصحة ونور العلم ، فلا تصدق أن هذين الرجلين يرأمهما وطن واحد وترعاهما حكومة واحدة ؟

إن معرة الاحتلال العسكرى تصيب المحتل فى شرفه وضميره لأنه يبرره بضعفنا ويؤيده بقوته ؛ ولكن معرة الانحلال الفكرى والجسدى والاجتماعى تصيب الشعب فى كرامته ودينه ، لأنه يرضاه وهو قادر على الإفلات من ربقته .

لذلك كنا أحرياء أن نفكر بعض التفكير فى عاقبة هذه الأمور ؛ فإن الوزارة الصدقية محدودة الأجل بنتيجة المفاوضات ، فإذا أخفقت مفاوضة الاحتلال،

أو مال ميزان الانتخابات إلى الشمال ، اعتزلت الوزارة الحكم لامحالة .

وإذن يحق لنا أن نتساءل عن مصير العملين العظيمين اللذين بدأهما صدقي باشا ـ فأما المفاوضات السياسية فسيستأنفها وقد يتلوه وفد إلى ان يرث الله الجزر البريطانية ومن عليها ، لأن هذا النوع من الجهاد كلام ونحن نجيده ، وسلام ونحن نريده ! وأما هذه الهبّة الاصلاحية فأغلب الظن ألا تستمر ؛ لأنها بناء ونحن نحب الهدم ؛ وعناء ونحن نؤثر الراحة ؛ ومجد ونحن نكره أن يكون لغيرنا الاكرام !

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يخيب هذه الظنون ، وأن يقول للشيء كن فيكون !

# حل حاسم لمشكلة الأزهر

( ٨ إبريل سنة ١٩٤٦ )

غاية الأزهر التى اتجه إليها منذ اكتمل أمره أن يفقّه الناس فى الدين وفيما تفرّع عن أصوله من شتى العلوم، وسبيله إلى هذه الغاية أن يعلم اللغة وما اتصل بآدابها من مختلف الفنون؛ فالدين واللغة إذن هما علة وجوده وجوهر علمه وثمرة عمله. ومن مزايا الإسلام أن يمرُن مع الزمن ويتجدد بالعلم ليلائم كل عصر ويعالج كل حالة. ومن طبيعة العربية أن تتطور مع الجماعة وتتسع بالحضارة لتعبر عن كل معنى وتدل على كل ذات. وكان من ثمر هذه المرونة فى الدين هذا الفقه العالمى العجيب، ومن أثر هذا التطور فى اللغة هذا الأدب الإنسانى الخصيب. فلما تدفقت الخطوب على حواضر الإسلام والعروبة فمال الميزان ودال السلطان وانتقض الأمر وعجز العقل، جهل المسلمون مرونة دينهم فأغلقوا باب الاجتهاد، وأنكر العرب تطور لغتهم فصدوا عن سبيل الأدب. وتقدم الغرب وتأخر الشرق، وسيطر العلم وتعطل الإسلام، وتطور التعليم وجمد الأزهر، وولى المصريون وجوههم شطر أوربا يأخذون عنها ما كانت أخذته عنهم، ثم استأنفوا السير فى ركب الحياة. ولكن الأزهر ظل فى موقفه فلم يسر، وأخذته الصيحة من كل مكان فلم ينتبه، وسألوه أن يمدهم بشيوخ الدين ورجال العربية وهما غايته ووسيلته فلم يستطع. حينئذ اضطر أولو الأمر إلى إنشاء (دار العلوم) لتعليم اللغة، ثم إلى إنشاء (مدرسة القضاء) لتطبيق الشريعة، وتركوا الأزهر المعمور متحفاً لآثار غير ثمينة من الكتب القديمة والآراء العقيمة؛ يتعبد بألفاظها قوم من فارغى القلوب قد اطمأنوا إلى الخمول، ورضوا بالدون، وعاشوا على فضل الناس، حتى دخلت النهضة المصرية فى أوائل ربيعها المزهر، فهب كل وسنان

وانتعش كل ذابل . وتيقظ الأزهريون من رقادهم الطويل فإذا هم عراة من حلل الثقافة الحديثة فطفقوا يخصفون على سوءاتهم مما تناثر حول الأزهر من ورق الربيع ؛ ولكنهم ظلوا متميزين من سائر المصريين بهذا الورق الذى لا يدفىء ولا يستر ، فنزعوا بأنفسهم عن معرة التخلف ، وتنافسوا فى اقتباس المعرفة ، وأرادوا الدين للدنيا ، وطلبوا العلم للحياة ، وهتفوا وهتفنا معهم بالإصلاح ولكن بقايا الراقدين على حطام الماضى يفزعون من هذا الإصلاح لأنه يجرفهم كما يجرف السيل الهشيم ! فهم يُلقون بأجسادهم إلقاء فى طريق الشباب ليعوقوهم عن بلوغ الأمد المحتوم والأمد المحتوم الذى سيبلغه الشباب الأزهريون ولا شك هو أن يتعلموا ليعيشوا مادام الإسلام لا يأبى الرهبان ولا يبنى الأديرة وقد أخذوا منذ نقل الأستاذ المراغى طيب الله ذكره صورة النظام الجامعى إلى الأزهر ، يفكرون فى مصيرهم بعد العالمية والتخصص ، وفى موقفهم من دار العلوم وكلية الآداب ، ويقولون لأنفسهم حينا وللناس حينا آخر نحن خمسة عشر ألفا من شباب الأمة أو نزيد ، فينا مواهب وعلينا تكاليف ولنا مستقبل ، فلمَ نتعلم إذا قضى علينا ألا نعمل ؟ وكيف تنفق أموال الدولة على معاهد قصارى أمرها أن تخرِّج فى كل عام قوما متبطلين لا هُمْ لأنفسهم ولا لله ولا للوطن؟ وإذا كان تعليمنا على هذا المنهج الخاص لا يؤهلنا لابتغاء الرزق إلا من تعليم اللغة والدين فى المدارس ، فما غاية الحكومة إذن من قيام هذه المعاهد التى تنافسنا فى الحرفة وتخاصمنا على القوت ؟ وإذا كان تخلف الأزهر فى عهد إسماعيل قد اضطر على مبارك باشا إلى إنشاء ( دار العلوم ) فما الضرورة الملجئة اليوم إلى بقائها والأزهر جامعة والدرس مستقصًى والمدرس مختص؟ ولكن الدرعميين والجامعيين فى الجهة الأخرى يجيبون عن هذه النجوى أو الشكوى بأن الإعداد مختلف والتحصيل متفاوت . وما تستوى الفوضى والنظام ، ولا النقص والتمام ، ولا التقليد والأصالة . ووقف الفريقان يتلاحيان ، رأياً إزاء رأى ، وإضرابا وراء إضراب ،

واحتجاجا إثر احتجاج ، ومن هنا نشأت المشكلة بين المعاهد وأعضلت . وجهدت مشيخة الأزهر ووزارة المعارف جهدهما أن تعالجاها بالدواء المسكن لا بالطباب الحاسم ، فكانت كالثوب المتداعى كلما رتق من جانب تفتق من جانب .

لذلك نتقدم اليوم إلى هاتين الجهتين باقتراح نرجو إذا خلصت النيات وصدقت العزائم أن يكون مقطع الحق فى فض الخلاف وإصلاح الأزهر .

ذلك الاقتراح هو :

١ — أن يلغى التعليم الابتدائى من جميع المعاهد الدينية ليُلقى بمقاليده إلى وزارة المعارف تُلزِمه وتقسِّمه وتعممه على الوجه الذى تراه . وذلك بدء الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة .

٢ — أن تجعل المعاهد الدينية فى القاهرة وفى الأقاليم مدارس ثانوية يدخلها حاملو الشهادة الابتدائية العامة وتعلم فيها اللغات والرياضيات والآداب والعلوم على منهج وزارة المعارف . وفى أول السنة الثالثة منها يتجه طلابها اتجاهين على حسب مرادهم واستعدادهم : إما اتجاها إلى الدين وعلومه ، وإما اتجاها إلى اللغة وفنونها . فإذا انقضت السنوات الدراسية الخمس تقدم طلاب الشعبتين إلى امتحان الشهادة الثانوية مع سائر إخوانهم من جميع المدارس ، يمتحنون معهم فيما يتفقون فيه ، وينفردون انفراد شُعب التوجيهية فيما اختصوا به . والناجحون فى هذا الامتحان سيجدون أمامهم طريقين هم بالخيار فى سلوك أحدهما . طريق الوظيفة الوسط ، وطريق الدراسة الأزهرية العليا . فإذا اختاروا طريق الوظيفة عينوا كتبة فى المعاهد الدينية ، أو فى المحاكم الشرعية أو فى المجالس الحسبية ، أو فى بعض الأقسام من وزارات الأوقاف والمعارف والشؤون ، أو عينوا موثقين شرعيين فى المدائن والقرى . ذلك إلى أن لهم الحق بحكم شهادتهم أن يسابقوا فى الامتحان

إلى أى وظيفة من وظائف الدولة . وإذا اختاروا طريق الدراسة العليا دخلوا القسم الجامعى بالأزهر .

٣ — أن يقتصر فى التعليم الجامعى فى الأزهر على كليتين اثنتين : كلية الدين وتندمج فيها كلية الشريعة وكلية أصول الدين . وكلية اللغة وتندمج فيها كلية اللغة العربية ودار العلوم وقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعتى القاهرة والاسكندرية . وتشترك الكليتان فى الدراسة العميقة للغتين العربية والأوربية ، وتنفرد كلية اللغة بتاريخ الآداب العربية والأجنبية ، كما تنفرد كلية الدين بتاريخ الأديان السماوية والأرضية . وذلك بالطبع فوق ما تختص به كلتا الكليتين من علوم الدين ، أو من فنون اللغة · وما يتصل بهذه أو بتلك من العلوم الحديثة . ومدة الدراسة فى الكليتين أربع سنين للعالمية أو الليسانس ، وست سنين للتخصص أو الدكتوراه . ومن يرد من طلاب الكليتين الاستعداد للتعليم قضى فى معهد التربية سنتين بعد الليسانس لمن يريد التعليم فى الثانويات ، ومثلهما بعد الدكتوراه لمن يريد التعليم فى الكليات . والمتخرجون فى كلية اللغة يزاولون تعليم اللغة والأدب فى المعاهد الدينية ، وفى جميع مدارس الدولة ابتدائية وثانوية وعالية فضلا عن مزاولتهم الترجمة والتحرير والصحافة . وأما المتخرجون فى كلية الدين فيزاولون القضاء والمحاماة والإمامة والوعظ والخبرة والتفتيش فى المساجد والمعاهد وتدريس الدين والشريعة فى كل مكان يدرسان فيه .

بهذا النظام يحتفظ الأزهر بقديمه ويشارك فى جديد الناس . وبهذا النظام تمحى الفروق المعنوية والمادية بين طلابه وسائر الطلاب . وبهذا النظام تتحقق وحدة الثقافة وتنقطع أسباب الفرقة ويساهم الأزهر فى شركة المدنية . فإن أردتم الإصلاح فهذه سبيله واضحة . وإن أبيتم إلا التخدير والتجبير والتقية فأضيفوا من فضلكم كلية للدين إلى جامعة القاهرة ثم أغلقوا الأزهر !

# إصلاح الأزهر
## بين دعاته وأُباته

( ٦ مايو سنة ١٩٤٦ )

كتب الأستاذ محمود الغمراوى مقالا فى الرسالة صور فيه المخاوف التى تساور بعض علماء الأزهر من عواقب الاقتراح الذى اقترحته على مشيخة الأزهر ووزارة المعارف لحل مشكلة الأزهر . صور الأستاذ الفاضل ما توهم من تلك المخاوف تصويراً يروعك منه حفاظ المؤمن وإشفاق الناصح ؛ ولكن الألوان والظلال التى اختارها لصورته جعلتها أدخل فى باب الخطابة منها فى باب المنطق ! من تلك الظلال « هذه السهام التى تسدَّد إلى الأزهر ، وهذه الأسنة التى تشرع على القرآن » . ومن تلك الألوان هذا « الفرض الذى يقتل الأزهريون بأيديهم لغتهم ودينهم » وهذا التهويل عليهم « بالبلاء الوافد والخطب الراصد والموت الحاصد» . والأستاذ أعلم الناس بأن المستعمرين أنفسهم لم يبلغوا من الجحود بآيات الله أن سول الشيطان لهم بعض ذلك ، بله الذين يؤمنون بأن العالم لا يسعد إلا بالدين ، وأن الدين لا يجدد إلا بالأزهر ، وأن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل فى أصوله . ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هى وهو ، فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره .

على أن الأستاذ الغمراوى قصر جهده فى مقاله على عرض اقتراح الرسالة

فى صورة الهولة ليفزع بها المخلصين لدينهم ولغتهم فلم يشر بتعديل فيه ولا بتبديل منه ، كأنه يرضى للأزهر أن يظل كما هو يعلك الكلام ، ويجتر الماضى ، ويقتات الفتات ، ويبطل الاجتهاد ، ويعطل العقل ، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك !

ولكن الأستاذ من صدور العلماء المعروفين بطول الباع فى علوم الدين وسعة الاطلاع على فنون اللغة ؛ فلا بد أن يعلم أن ميزة الإسلام التى تفرد بها هى مسايرته للتطور ومطاولته للزمن ؛ فإذا حصرناه فى زمان محدود ، أو قصرناه على نظام معين ، سلبناه هذه الميزة . وفصلناه عن دنيا الناس . فهو إذن من المصلحين المحافظين الذين يجددون بقدر ، ولا يتقدمون إلا فى أناة وحذر ، لأنه يرى الحال داعية إلى الإصلاح ، ولكنه يطلب من الأستاذ العقاد ومنى أن نراجع الرأى فيما كتبناه لعلنا نجد « لونا آخر من العلاج يكون فيه للأزهر الشفاء والعافية » .

أولئك هم المجددون المحافظون ؛ وأما غيرهم ممن يعارضون الاقتراح فطائفتان : طائفة السلفيين المتزمتين ، وهؤلاء قد وقفوا عند حدود النقل ، فلا يرون لفهم أن يتفكر ، ولا لعقل أن يعترض ، ولا لمصلح أن يجدد ، لأن التجديد بدعة ، وكل بدعة على إطلاقها ضلالة . وطائفة الأحرار المستقلين ، وهؤلاء يعارضون الاقتراح لا لأنهم يناهضون الإصلاح ، وإنما يخشون أن يفلت زمام الأزهر من أيديهم فتصبح قيادته لوزارة المعارف . ويخيل إلىّ أن المعارضين الأفاضل على اختلافهم فى أسباب المعارضة لو قرأوا الاقتراح على عادة الأزهريين من التفلية والتحليل لما وجدوا فيه مبعثاً للخوف ولا مثاراً للشك . وبحسبنا أن نوضح ما أشكل من جوانب الرأى لنصبح جميعاً متفقين على الأسس التى يجب أن يقوم عليها بناء الأزهر القديم الجديد .

* * *

يرى الأستاذ الغمراوى والذين يذهبون مذهبه أن الاقتراح « يجبُّ نصف الأزهر ويدق رأسه » .

١ — لأن إلغاء التعليم الابتدائى من المعاهد الدينية يستتبع إلغاء حفظ القرآن ، إذ كان حفظه كله أو نصفه شرطاً فى قبول الطالب ، وإلغاء هذا الشرط ينقص الإعداد الدينى تلك السنوات الست التى كان يقضيها الصبى فى حفظ القرآن .

٢ — ولأن تحويل المعاهد الدينية إلى مدارس ثانوية تساير منهاج وزارة المعارف فى الثقافة العامة ، وتنفرد فى سنّى التوجيه بعلومها الخاصة ، يحرم الأزهر ست سنوات أخرى كان يقضيها الطالب فى دراسة اللغة والدين بأقسامه الابتدائية والثانوية .

٣ — ولأن المواد المدنية على نهجها المعروف فى برامج الوزارة ستغطى على المواد الدينية ، فيقل المحصول الدينى واللغوى لدى الطلاب ، وتضعف الملكة الأزهرية الخاصة لفهم الدرس والكتاب .

٤ — ولأن الاعتماد على حملة الشهادة الابتدائية العامة فى تغذية أقسام الأزهر الثانوية يعرضها للهزال بانصراف التلاميذ عنها إلى المدارس الثانوية الأخرى اتباعاً لأهواء العصر المادية .

وسترى بعد إيضاح ما انبهم أن هذه الأسباب منتفية عن معنى الاقتراح فى أصله . وما أراب من استراب إلا إجمالُ فكرته وإيجاز شكله .

* * *

١ — لا يستتبع إلغاء التعليم الابتدائى من المعاهد الدينية إلغاء حفظ القرآن

واستقطاع ست سنوات من زمن الإعداد الدينى واللغوى ؛ لأن المعاهد الدينية الابتدائية إنما تستقبل داخليها وهم فى سن الثانية عشرة ، وهى السن التى ينتهى فيها الصبى من الدراسة الابتدائية العامة دون أن يأخذ من زمن الدراسة الأزهرية وقتاً كثر أو قل ، وإنما تكون مداركه وملكاته قد تهيأت لحفظ القرآن فى مدى السنوات الثانوية الخمس أو الست عن رغبة وفهم . ومن الذى يمنع مشيخة الأزهر أن تجعل حفظ القرآن فرضاً على كل طالب فى كل سنة من سنى الدراسة فى المدارس الثانوية الأزهرية وأمرها فى يديها ، وإعدادها منها وإليها ؟

٢ — إن المعاهد الدينية التى نقترح جعلها مدارس ثانوية بالمعنى الرسمى المعروف ستظل بالطبع تابعة للأزهر خاضعة لإدارته ، فله إذا شاء أن يزيدها سنة أو أكثر ، وأن يبدأ الدراسة الدينية واللغوية من سنتها الأولى ، على شرط أن يحافظ على مواد الثقافة العامة المقررة فى برنامج الوزارة من لغات وآداب وعلوم ورياضة ، وأن يتقدم طلابها المنتهون إلى امتحان التوجيهية العام ، ليكون لهم ما لسائر إخوانهم من ميزة الشهادة الرسمية ، ولتفتح لهم أبواب الوظائف التى أجملناها فى الاقتراح لحاملى الشهادة الثانوية . وإذن تكون مدة الدراسة الدينية واللغوية اثنتى عشرة سنة لا ستاً كما ظن الأستاذ .

٣ — لا خوف من طغيان المواد المدنية على المواد الدينية فى الدرس والتحصيل مادام الوقت متسعاً ، والأستاذ كفؤاً ، والكتاب مهذباً ، والمنهاج مستقيماً ، وتوزيع المواد دقيقاً ، والإدارة حازمة ، والمراقبة يقظى ؛ فإن الوقت إذا أحسن استخدامه اتسع ضيقه ، والكتاب إذا حذف فضوله قصر طوله .

٤ — من المحال أن ينصرف التلاميذ عن المدارس الثانوية الأزهرية ؛ لأن الاقتراح يقصر وظائف تدريس الدين واللغة والأدب فى جميع مدارس الدولة والأمة على الأزهر ، فإذا أضيف إلى ذلك وظائف التحرير والترجمة

ومهنتا الصحافة والتمثيل ، كان الراغب فى ممارسة أمر من هذه الأمور محتوماً عليه أن يدخل الأزهر لأنه لا يستطيع بلوغه إلا عن طريقه .

وجملة الأمر أن الاقتراح يرمى إلى تجديد الأزهر وتوحيد التعليم على الوجه الذى يحفظ للأزهر طابعه وللأمة وحدتها . فإذا تجاذب الباحثون أطراف الرأى فى حدود هذين الغرضين ، استبان الطريق ، واتحدت الوجهة ، وتلاقوا جميعاً عند الغاية المقصودة لا محالة !

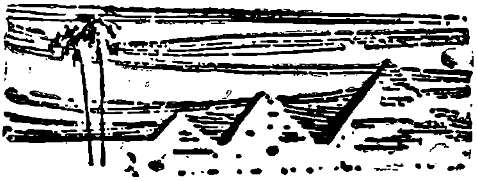

# آفة الشرق هذا الغرب

( ٢٠ مايو سنة ١٩٤٦ )

يخيل إلىّ من هول ما أسمع وأرى أن هذا الغرب قد مُسخ حوتاً من حيتان الأساطير له رءوس أربعة قد فغر أفواهها جميعاً على الساحلين الأفريقى والأسيوى يريد أن يطبق فكوكها على العالم العربى بأسره ، وإنما عوق هذه الحلاقيم عن الازدراد هذا الخلاف الصاخب بين تلك الرءوس على الاقتسام كيف يكون ، وعلى الالتقام متى يبدأ ! و إذا تصورت أفواج السمك حين يسوقها التيار إلى جوف الحوت فتجزع وتضطرب ، تصورت أمم الشرق الصغيرة وقد روعها هذا الوحش الهائل وهى وادعة فى ظلال دينها ، قانعة بحلال الرزق من أرضها ، فتنظر إليه نظر المقضى عليه ، تستنجد بالعهود فلا تُنجد ، وتستغيث بالمواثيق فلا تغاث ، وترى بين منخرَى الحوت تشرشل جالساً وقد انقلب سيجاره الفخم بين شفتيه مدفعاً ضخماً يقذف بالحمم السود على أرض ( العلمين ) وعلى ظهرها ، وبفضلها كتب الله له المجد ولشعبه السلامة ! .

تشرشل هذا الذى وقف ذات يوم على الساحل البريطانى يستقبل الهزيمة الساحقة الماحقة من دنكرك وقلبه واجف ودمعه واكف ، يضرع إلى الله أن يثبت قدميه العجوزين المتخاذلتين أمام الإعصار النازى الجارف ليعيد نعمة الحرية إلى الناس ، ويقيم ميزان العدالة فى الأرض ؛ فلما تمت له المعجزة ، وقَتل هتلر كما قتلت البعوضة النمرود ، قام اليوم يدعو أمريكا إلى شركة أخوية بين الناطقين باللغة الإنجليزية تصوب أسهمها المراشة إلى كل دولة تطلب المساواة ،

وإلى كل أمة تريد التحرر ، لأن الذى ورث ملكوت هتلر وسلطانه ، يجب أن يرث كذلك عنصريته وطغيانه ! .

تشرشل هذا الذى كان كلما لكمه هتلر بجمع يده الحديدية لكمة الموت ، خر فاقد القوة والوعى كالثور المنزوف ، فيدركه المرحوم روزفلت ، فيجلسه ويسنده ، ويمسح الدم عن وجهه ، وينفض التراب عن جسمه ، ثم ينضحه بالماء حتى يفيق . فإذا أفاق قام مترنحاً إلى الكنيسة يصلى ، أو إلى المذياع يستغيث ، أو إلى مجلس العموم يبكى ، أو إلى البيت الأبيض يستجدى ، أو إلى المحيط الأطلسى[1] يستوحى السماء رسالة العدالة الإجتماعية فتنزل عليه ألواحها المزيفة من سجيل ؛ هذا الرجل الذى نجا لأن عمره طويل ، وانتصر لأن جهده قليل ، يتبجح اليوم بالعصبية والامبراطورية والدومنيون ، ويألم أشد الألم لأن وزارة العمال قررت إجلاء الجنود الإنجليزية عن مصر بعد أربعة وستين عاماً جثمت فيها على صدرها المكروب فلا تنسم إلا كما ينسم المحتضر ، ولا تتحرك إلا كما يتحرك المبهوظ ! والمستر تشرشل يعلم كما يعلم كل الناس لماذا دخلوها ، وكيف احتلوها ، وكم سجلت مضابط برلمانهم العتيق وعود أسلافه بالجلاء عن بلد لم يملكوه بالفتح ولا بالإرث ولا بالهبة ، وإنما فرضوا لأنفسهم عليه ( حق إرتفاق ) بالمرور ، ثم جعلوا احتلاله واجباً لحماية هذا ( الحق ) ! ثم اختلفت الأسماء على هذا الاحتلال ، من الاستعمار المقنَّع ، إلى الحماية السافرة ، إلى الاستقلال الصورى ، إلى الصداقة الجبرية ؛ ولكن المسمى ظل فى جميع هذه الحالات واحداً ، وهو الوزير الذى يأمر فى ( دوننج ستريت ) ، والسفير الذى ينفذ فى ( قصر الدوبارة ) ، والأسطول الذى يهدد فى ( مالطه ) !

(١) إشارة إلى ميثاق الأطلسى .

حتى غيرت هذه الحرب الدنيا فغيرت عقول الناس ، وتبدلت وسائل القتل ، واختلفت أسلحة القتال ، وتغلبت مبادىء الاشتراكية ، وتأصلت فكرة الحرية ، واستحيا بنو آدم أن يظلوا على شريعة الوحوش يحكمون الأظفار والأنياب فيما يشجر بينهم من خلاف ؛ فاتخذوا ( ميثاقاً ) للأمم ، وألفوا مجلساً للأمن ، وأقاموا محكمة للعدل ، وطمعوا أن يقيموا العالم الجديد على هذه القواعد . ولكن تشرشل وسائر المحافظين لم يكونوا جادين يوم نادوا مع ترومان وستالين بهذه المبادىء ، لأنهم مطمئنون إلى براعتهم فى مماطلة الموت كلما طلع عليهم بمنجله الرهيب ! ومن يدرى ؟ لعل الموت الذرّى فى زيارته القادمة لا يقبل من المخادعين بعد ذلك مطلا ولا ختلا ولا فدية !

لقد كان الشعب الانجليزى بعيد النظر سديد الرأى حين دهور تشرشل وإيدن وأعوانهما عن كراسى الحكم فى صبيحة يوم النصر ؛ فإن من انتصر بالسيف لا يصالح إلا بالسيف ، ومن عشش الاستعمار فى رأسه وفرّخ فى نفسه لا يستطيع أن يؤمن بالديمقراطية والحرية إيماناً يحمله على أن يحبهما فى نفسه وفى غيره ، ويرجوهما لصديقه ولعدوه !

* * *

على أن عذر تشرشل فى موقفه من مصر ومن غيرها ناهض ؛ فإن الرجل ربيب العسكرية والاستعمار منذ درج ؛ ولكنك تكلف عقلك شططاً إذا حاولت أن تجد بعض العذر لموقف ترومان الرجل الشعبى من فلسطين ! ! لقد دس أنفه فى هذه القضية دساً ، لأن المقادير شاءت أن يكون له فى قضايا العالم رأى ؟ فهل فغمت أنفه رائحة العدل فيها ، أم سطع فى خيشومه عبير الذهب الصهيونى وهو يفيد فى الانتخابات والدعايات ، وينفع فى الحروب والملمات ؟

وماذا يضر إذا نافس الأمريكانُ الإنجليز فى إرضاء اليهود على حساب العرب

مادام الأمر لا يكلفهم إلا إيفاد (لجنة) تبحث وتحقق ، ثم إرسال (حملة) تنفذ وتطبق ؟ أما فلسطين فحسبها من العيوب والذنوب أنها شرقية ، وأنها عربية ، وأنها مسلمة ، فلم لاتكون مشاعاً بين أهل الديانات الثلاث ، ثم تُقطع إقطاعاً ليهود القارات الخمس ؟ ولا تسل بعد ذلك عن حرية الشعوب وحرمة الأوطان وقدسية الحقوق ؛ فإن ذلك كلام كان يقرر ويكرر وسيف هتلر مصلَت على الاعناق ، وكابوس النازية جاثم على الصدور !

* * *

واستالين ، ما شأنه والوصاية على طرابلس ؟ هل كان يظن أن انجلترا تترك مفتاح (كرارها) فى يد القط ؟ إنها ترضى إذا حيل بينها وبينها أن تعود إلى إيطاليا لأن إيطاليا ريح لا تثير الغبار ؛ وحصى لا يعوق السائر ! فإذا سألت هؤلاء الذين يحكمون ويقسمون : لماذا تردون المسلوب إلى سالبه ، ولا تردونه إلى صاحبه ؛ أجابوك جواب المستعمر الخبير : إنا إذا أعدنا طرابلس إلى أهلها خرجت برقة من قبضة بريطانيا ، وأفلتت تونس والجزائر ومراكش من ربقة فرنسا ، وجعلها فى وصاية الجامعة العربية لا يختلف عن استقلالها فى الخطر الذى يهدد الجامعة العربية ؛ لأن الشرق مادام سوقا للاستعمار ظلت سلعه المباركة موضع المقايضة والمعارضة ؟ فإذا حررت رقاب العبيد ، وأغلقت سوق الرق ، انقلب المستعمرون إلى ديارهم خاسرين يقتل بعضهم بعضاً من الخوف ، ويأكل بعضهم بعضاً من الجوع ! والرد الذى تقتنع به عقلية الغرب ، إنما هو مجابهة العدوان بالعدوان ، ومواجهة القوة بالقوة . وليست الإشارة هنا إلى العدوان والقوة من القول الجزاف ؛ فإن قوتنا الفكرية متى ذهب عنها مركب النقص الذى اعتراها من طول ما ضامها المستبد وسامها الدخيل ، استطعنا أن نقول صادقين

لأى أمة من الأرض : لقد اجتمع رجالنا برجالكم فى مؤتمر الميثاق وفى مجلس الأمن ، فهل وجدتم فى عباقرة أوربا وجهابذة أمريكا من يفوق عبد الحميد بدوى ، أو محمود حسن ، أو حافظ عفيفى مثلا ، فى رسوخ القدم فى القانون ، وأصالة الرأى فى المشورة ، ومتانة الحجة فى الجدل ، ومقطع الصواب فى الحكم ، وأما القوة المادية ، فالعدد وفر ، والإيمان صدق ، والرأى جميع ، والعروة وثيقة . فإذا أعوزتنا الوسائل تبرع بها من يترقب هذه الفرصة ليكيد ، ويستعجل هذا اليوم ليستفيد !

# وعينا القومي ينضج :

## مثال على بردى ، ومثال على الأردن

( ٣ يونية سنة ١٩٤٦ )

يخطىء من يقيس تقدم أمة أو تأخرها بما يشاهد من حال السابقين منها أو المتخلفين عنها؛ فإن من سبق إنما سبق بإعجازه، ومن تخلف إنما تخلف بعجزه . والإعجاز والعجز من الشذوذ لا يسبب حكما ولا يبنى قاعدة . إنما يصح القياس بحال الكتلة التى ظلت متماثلة فى اللون والكثافة والحركة بعد أن انفصلت منها قطعة إلى الأمام ، وانخذلت عنها قطع إلى الوراء ؛ لأن هذه الكتلة تمثل القدر المشترك من الشعور والإدراك والوعى والقلق والطموح والاندفاع ؛ فرأيها هو الرأى العام، وأمرها هو الدستور الحاكم ، ووحيها هو السياسة القومية ، وغضبها هو الثورة الوطنية ، ورضاها هو السلام الدائم . والحكم على الأمة العربية — لمن يحلو له أن يحكم — يجب أن يكون بناء على هذا القياس أو الأساس ، قائما على حركات كتلتها العجيبة التى مافتئت منذ مؤتمر فرساى تتقارب وتتضام وتتماسك وتتحد على الرغم من الأسباب المفككة والعوامل المهلكة التى ابتليت بها من سفه الأحزاب السياسية فى الداخل ، وطمع الدول الاستعمارية فى الخارج .

كانت هذه الكتلة الممزقة فاقدة الوعى حين أراد ( محمد على ) إحياء الامبراطورية العربية ؛ وكانت فاقدة الوعى حين ثار أحمد عرابى على العناصر الأجنبية ، وكانت فاقدة الوعى حين دعا مصطفى كامل إلى الفكرة الوطنية ؛ ولكن وعيها القومى أخذ يتنبه حين زلزلت الأرض قنابل الحرب العالمية الأولى ، فثارت الجزيرة وسورية والعراق على استعباد الأتراك ، وتمردت مصر على احتلال الإنجليز ، واستجابت الأمة العربية جمعاء لدعاء الحرية هنا وهناك ، وسارت وراء

قادتها بخطى الواثق المطمئن ، فأضلوها السبيل ، وأوردوها السراب ؛ ولكنها استفاءت من كلال السير ووعوثة الطريق وسعار الظمأ ، بصراً فى الوعى ، وقوة فى الموازنة ، وصدقاً فى التمييز ، وصحة فى الحكم ، فلم تكد الحرب العالمية الثانية تنطفىء حتى كانت أمام زعمائها تلهمهم فيقولون ، وتأمرهم فيفعلون ، وتوجههم فيتوجهون : ومتى عرفت الأمة نفسها ، وأحست نقصها ، وتبينت قصدها ، أبت على ولاة أمرها أن يدلسوا عليها الرأى ، ويموهوا لها الباطل ، ويقنعوها بما دون الحق .

وفيما يجرى الآن فى مصر وفى غيرها من الحوادث ، ويذيع فى المجالس والصحف من الأحاديث شواهد صادقة على اتساع الوعى القومى فى نفوس المصريين والعرب تثب فى عين المنكر إذا وازن بين ما كانوا عليه وبين ما صاروا إليه .

كان الساسة الذين احترفوا الوصاية عليهم يفاوضون فى أمورهم ، ويعاهدون على مصيرهم ، دون أن يحفلوا لهم برأى ، أو يرجعوا إليهم بخبرة ، وإن زعموا أنهم استشاروهم فأشاروا ، وخيروهم فاختاروا ! وهم اليوم يفاوضون تلك المفاوضة ويراجعون تلك المعاهدة ، ولكن الأمة هى التى وضعت المبادىء ، وحددت المطالب ، وأملت الخطوط ، وقدرت العواقب ؛ فليس لمفاوض أن يقولها ما لم تقل ، ولا لحاكم أن يريدها على ما لم ترد !

وهل نسيت يوم الجلاء فى سورية ؟ وكيف تنساه أذن الحى ولا تزال أناشيده وزغاريده تدوى فى سمع الزمان ! جلت جنود الاستعمار عن أرض سورية العزيزة فاهتز العالم العربى اهتزاز الغبطة ، واعتز اعتزاز النصر ، وشعر كل فرد من أفراده فى مختلف بلاده ، أن فريقاً من أهله تحرر من القيد ، وأن جزءاً من وطنه تطهر من المغير ؛ وأقبلت وفود الدول العربية تشارك دمشق فى الاحتفال بإقامة العرش الأموى بعد أن خرت قوائمه وابتذل حماه ، وقال العراق لمصر : ذلك يا أختاه هو الجلاء الذى يكشف الضر ، والاستقلال الذى يرضى الحر ، فمتى يكون لنا ولسائر أقطار العروبة مصير كهذا المصير ويوم كهذا اليوم ؟ !

ذلك مثال من أمثلة الوعى القومى العربى تجلى فى هذا الحادث الخطير صريحاً غير مشوب ، وصحيحاً غير مزيف ، فإذا وازنت بين موقف العرب من استقلال سورية ، وموقفهم من استقلال شرق الأردن ، فلن يخامرك بعد ذلك شك فى أن الأمة العربية الكريمة إنما تصدر عن وعى بصير ، وتنقل عن شعور صادق.

فاوضت انجلترا شرق الأردن مفاوضة (الند للند) ، ثم منحته ( الاستقلال التام ) ، وعقدت بينها وبينه ( معاهدة الشرف والفخار ) ، ثم رفعته من الإمارة إلى المملكة ، واحتفل إخواننا الأردنيون بمبايعة أميرهم المعظم عبد الله بن الحسين ملكا عليهم فزاد ملوك العرب ملكا، وزادت ممالك العروبة مملكة. وكان هذا النبأ العظيم عن هذا النصر الأعظم جديراً بأن يزلزل النفوس من الفرح ، ويبح الحناجر من الهتاف ، ويدمى الأكف من التصفيق ، ويحشد جيوش العرب فى ميادين عمان، ويدعو شعراء العرب إلى منابر عمان؛ ولكن هذا النبأ العظيم سرى به البرق ، وتموّج به الأثير ، وكأنما ضرب الله على الآذان فلم تسمعه ، وختم على القلوب فلم تتفتح له ! واحتفلت عمان وَحدها بيومها التاريخى المجيد احتفالا رسمياً لا روعة له ولا بهجة فيه . ذلك لأن العرب الذين لا ينفكّون يسخرون من احتقلال[1] مصر ، ويهزأون باستقلال العراق ، قد سئموا هذه المظاهر الكاذبة ، وأنكروا هذه الألفاظ الفارغة ، وكبر عليهم أن يشاطروا انجلترا السرور بافتلاذ قطعة من الوطن العربى لا يزيد عدد سكانها على خُمس سكان القاهرة ، لتجعلها وكراً للاستعمار يثب منه متى شاء علينا أو على من حوالينا من الأمم المطمئنة الوادعة .

أليس الوعى القومى هو الذى جعل العرب يميزون بين استقلال سورية واستقلال شرق الأردن ! أليس الوعى القومى هو الذى جعل لانجلترا من

---

(١) كلة نحتها المرحوم الأستاذ وحيد الأيوبى من كلمتى : احتلال واستقلال .

جامعة الدول العربية ما جعل لآل فرعون من موسى بن عمران ؟ آووه وتبنوه ليكون ظهيراً للكفر ، ونصيراً للظلم ، ووزيراً للاستبداد ، فكان لهم نذيراً من الله ، وداعياً إلى الحق ، وبشيراً بالحرية ؟

بلى ، هو الوعى القومى الذى تيقظ واستبصر فى نفوس العرب من ملوكها ورؤسائها ، إلى سوقتها ودهمائها . ولن تجد مصداقاً له ولا دليلا عليه أبلغ من هذا القلق الذى يساور كل نفس ، وهذا الامتعاض الذى يرتسم على كل وجه ، وهذا الانتفاض الذى يجرى على كل لسان . كل أمرىء يريد التغيير وينشد الكمال ويطلب الأحسن . وكل امرىء يحاول أن يفرق بين رجل ورجل ، ويميز بين عمل وعمل ، ويوازن بين مبدأ ومبدأ .

بلى ، هو الوعى القومى الذى يذكِّر العرب اليوم أنهم خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتسارع إلى الخير ، وتتعاون على البر وتتناصر فى الشدة ، وتأبى إلا أن تتبوأ مكانها الأول من قيادة الإنسانية . ذلك الوعى القومى هو ضمان للنهضة العربية من الانتكاس والردة ، وأمان للسياسة العربية من الغش والخديعة ، ووقاء للوحدة العربية من الشتات والفرقة . فمن يحاول بعد اليوم أن يقود الأمة العربية قيادة القطيع ليذبح ، أو يسوسها سياسة الخيل ليركب ، نبتْ فى يديه كما ينبو المارد فى يد الرجل إذا انطلق من حبسه ، وامتنعت عليه كما يمتنع الثور على الطفل متى شعر بنفسه .

# من مخلفات الحرب
# هذا الطبلاوى أفندى !

( ١٧ يونية سنة ١٩٤٦ )

تخلّص الإنجليز والأمريكيون من أوزار الحرب التى انقطع منها النفع ، فباعوا كل ما تركت من شىء حتى القنابل المحشوة ! وأقصوا كل ما خلّفت من شخص حتى تشرشل الجبار ! ونحن فى مصر لا نزال نعانى من مخلفات هذه الحرب وجرائرها ما يرمض الجوانح ويقض المضاجع .

لا أريد بمخلفات الحرب هؤلاء الجنود الغرباء الذين يملأون الدور ويزحمون الشوارع ، ولا هذه الضرائب الاستثنائية التى تقصم الظهور وتقوض المصانع ، إنما أريد أثرياء الحرب الذين يُفحِشون أسعار الخبز واللحم والفاكهة على الفقراء فى العواصم ، ويرفعون أجور القصور و ( العشش ) و ( الكابينات ) على الأغنياء فى المصايف ، ويخفضون مستوى الخير والحق والجمال والذوق والفضيلة فى جميع الأماكن ! أكثر هؤلاء طَغام ربّوا فى أحجار الفاقة ، ودرجوا فى أكواخ البؤس ، وأعوزتهم التربية الدينية التى تجمل الفقر بالزهد ، والثقافةُ المدنية التى تلطف الشقاء بالأمل ، فشبوا على غرائزهم الأصيلة ، يحتالون عند العجز احتيال الذئاب ، ويفترسون عند القدرة افتراس الأسود ، وهم بين أحوال العجز والقدرة يكابدون آلام الشوق المِلحّ المحرق إلى المال فى يد الغنى وفى بيوت التجار ، وإلى اللحم فى جسد المرأة وفى حانوت الجزار ، ويحاولون ما استطاعوا أن يطفئوا هذا السُّعار القاتل بالسرقة والقمار والتدليس والاحتيال والغش ، فلم يزدهم هذا الرى إلا ظمأ ، ولا هذه المتعة إلا حسرة .

فلما أوقد المستعمرون نيران الحرب الأخيرة فى بقاع الدنيا فأكلت شباب

الأمم ، وأهلكت ثمار الأرض ، ونقصت نتاج الناس ، قيدت المعاملات ، وحُدِّدت الأرزاق،فوجد هؤلاء الشرهون الجياع أن الانطلاق من هذه القيود إلى الحرام المشتهى والثراء المرجوّ ، أسهل على نفوسهم من تكاف العفاف و إضاعة الفرصة ، فاحتكروا السلع ، وأغلوا الاسعار ، وطففوا الكيل ، وأخسروا الميزان ، وأقاموا فى ظلمات الطرق وفى كهوف الأرض سوقاً سوداء يستغلون فيها عُرى الفقير وجوعه ليسلبوه ما تجمع فى يديه من ثمن عرقه ودمه . وظلت الحرب بضروراتها وشواذها تركم على أجسادهم اللحم والشحم ، وتكدس فى خزائنهم الأوراق والأرزاق ، حتى أصبحوا فى المجتمع المصرى طبقة متميزة لها طابعها الخاص وسمتها الفرد ، وهندامها العجيب ، وحياتها التى أصبحت للتصوير الهازل والصحافة الفكهة مدداً لا ينقطع ومنبعاً لا ينضب !.

أسخطنى على هذه الطبقة الجديدة قصة سمعتها عن أحد أعيانها البارزين سأقصها عليك ، وليست هذه القصة أول القصص ولا آخرها،فإن أغنياء الحرب ينفجرون كل يوم من فرط السمن والانتفاخ ، فيكون لهم من الشظايا والضحايا ما لهذه القنابل التى لا نزال نسمع انفجارها فى الطرق أو فى الملاهى !

استزارنى يوم الأحد الماضى صديقى الأستاذ ( ج ) فى دارته[1] الجميلة بالدقى، فزرته فى وقت الشاى ، وكانت الشرفة التى اختارها لجلوسنا تنظر إلى دارة تقابل دارته ، إلا أنها أوسع وأرفع وأفخم ، ولكن أنماط الناس الذين يدخلونها أو يخرجون منها أو يحفون بها لا تأتلف مع جمالها ولا ترتفع إلى مستواها . دع هذا الصياح الذى يتفجر فيها ، والزياط الذى ينبعث منها ، فربما كان أصحابه

(١) الدارة : خير ما وضع من الألفاظ للفلا Villa

الدارة غائبين والخدم ينفسون عن حريتهم المكظومة بهذا الهرج . فسألت صديقي من باب الكلام الذى لا يقصد به إلا تحريك اللسان قطعا للصمت أو فتحاً للحديث .

لمن هذه الدارة الفخمة ؟

فابتسم صديقي وقال وهو يشير إلى امرأة تجلس وحدها على مائدة من مقاعد حديقته :

لهذه المرأة !

ونظرت إلى المرأة التى أشار إليها فوجدت جسما كالخيال دقيق الشبح معروق العظام تستره ملاءة لف من الطراز الذى كانت تلبسه الخادمات قبل أن يصبحن ( أرتستات ) حرب ! فقلت لصديقي وأنا أبتسم كما يبتسم : ماذا تعنى ؟ فقال : إنما عنيت ما قلت ، وهو أن تلك الدارة لهذه المرأة ، وهى مع ذلك لا تجد اللباس ولا تملك القوت ولا يمر أسبوع دون أن تزورنى مرة أو مرتين لألتمس لها من جانب هذا الثراء الضخم فضلة من الرزق تمسك الرمق وتديم العفة ، ولكن !

— فقلت له والتعجب يترقرق فى عينى ووجهى : لم أفهم ماتريد فماذا تعنى؟

— فقال بلهجة الجد: أعنى أن هذه المرأة هى زوجة صاحب هذه الدارة وهو فلان الغنى الذى يسميه الناس (الطبلاوى أفندى) لأن بطنه المنتفخ المتسع المستدير يجعله أشبه بضارب الطبل العظيم حين يحمله على صدره . كان هذا الرجل فقيراً غير شريف ، ووضيعاً غير متواضع، تزوج وهو فى تلك الحال من هذه المسكينة فولدت له خمس بنات وثلاثة بنين أكبرهم كما تقول هى لا يبلغ الرابعة عشرة . وكانت تعيش معه هى وأولادها على الكفاف . تساعده فى حدود ماتستطيع بالعمل والتدبير والتقتير والقناعة، وتحتمل سرفه ونزقه بالصبر والإغضاء والنصيحة،

حتى أدركته ( نعمة ) الحرب فى سنتها الثالثة ، فوصلت حباله بحبال المتعهدين لجيوش الحلفاء بالمواد الغذائية فشاركهم فى الجمع والتوريد، وانفرد عنهم بالمصانعة والمهاواة ، حتى استطاع بجرأته بعد قليل أن يدخل على رؤساء العمل الإنجليز من الباب الخلفى ، فعاملهم بالغش ، وشاركهم فى الربح ، واستعان بهم على إخراج المحظور من السكر والرز ، وإدخال الممنوع من الحشيش والأفيون ؛ فتساقطت على رأسه وقفاه رزم ( البنك نوت ) تساقط البَرَد الغليظ ، حتى اجتمع له فى نهاية الحرب ربع مليون جنيه !

ومنذ رحلت جيوش الحلفاء خلع الطبلاوى رداء العمل ، وحشر نفسه فى صفوف المترفين والعِلية فلفّف جسمه بالحرير ، وختّم أصابعه بالماس ، وعدّد الألوان الفاقعة فى بدلته وحذائه ؛ ثم خلى جسمه المنهوم يضخم ويسترخى وينبعج جانباه ، وترك شاربه الخشن يغلظ وينتفش ويطول سبالاه ؛ ثم اقتنى الضياع والعقار ، وركب الرُّلزرايز والبكار . وكان يطلب الأغلى من كل صنف ، والأعلى من كل شيء . حتى تحدث الظرفاء عنه بأنه استشار الطبيب فى مرضه فأشار عليه باستعمال فيتامين بيه ( B )،فقال له: ولم لا تشير علىّ باستعمال فيتامين باشا ؟ وأنه طلب إلى مصور أن يرسمه فسأله :أتريد الصورة بالزيت؟فقال له: كلا، بل أريدها بالسمن . وأن طبيب الأسنان أراد أن يصنع لأحد أضراسه المنخورة غلافاً من الذهب ، فطلب إليه أن يصنعه من الماس ! ثم سكن هذه الدارة وألقى زمامه فى يد الغاوين من رواد اللهو وسماسرة الفجور ، فجعلوا له من كل غرفة مأخوراً ، ومن كل ردهة مرقصاً ، ومن كل بهو حانة .

وأعجب ما فى الأمر كله أن صورة بيته القديم كصورة ماضيه العظيم قد انمحت من ذاكرته ، فلم يعد يذكر عنوان بيته ولا سكانه ولا جيرانه ، كأنه لم يستقبل الحياة ولم يبصر الدنيا إلا سنة ١٩٤٥ ! وها هى ذى امرأته على الحال التى

ترى ، تأتى كلما دفعتها الحاجة لتتوسل بى وبغيرى إلى هذا الوغد ليرمى إليها من وراء السُّور من فضلات الفوانى وفتات الموائد ما يمسك الحياة عليها وعلى أولاده ؛ وهذا إن لم ينقص فلن يزيد .

فهل كنت تظن قبل هذا الحديث أن فى خلق الله أمثال هذا الرجل ؟

فقلت له : والله ياصديقى لو كان المحدّث غيرك لاتهمته بالتزويق والتزوير ، ولما صدقت أن يكون فى بنى الإنسان هذا الخنزير !

# لمن الملك اليوم؟
## نبوءة من غير نبي!

( ٦ يناير سنة ١٩٤٧ )

يعيش جارنا طاهر افندى الكاشف بعد خروجه إلى المعاش عيشة الصوفى المتبتل ، يتعبد النهار ، ويتهجد الليل ، ويزجى ما بقى من فراغه بمطالعة الصحف ومتابعة السياسة ومراقبة الحوادث. وقد آتاه الله ألمعية عجيبة يستشف بها حجاب الغيب كأنه رسول ينطق عن الوحى ؛ فلا يتظنن إلا تحقق ظنه ، ولا يتكهن إلا وقعت كهانته . وكثيراً ما يرى فى المنام أموراً لا يلبث أن يراها فى اليقظة . وربما أخذته حال من الذهول عن الوجود الخارجى تنفذ بصيرته فيها إلى غيابة المستقبل ، فيكون كما يقول أشبه بالصبى الذى ينظر فى فنجال ( المندل ) يرى ما لا يُرى ، ويسمع ما لا يُسمع !

قص على فى صباح هذا النيروز [1] رؤيا من رؤى يقظته لم أجد كلاماً خيراً منها أجعله مقدمة لهذا العدد وفاتحة لهذا العام . قال : كنت فى الساعة التى تفرق بين عام وعام فى تقويم الزمن ، وتفصل بين فصل وفصل فى رواية الحياة ، قائماً فى غرفتى أصلى ركعتين لله توديعاً لعام قضى ، واستقبالا لعام أهلّ . وكان الجو المتماطر [2] القار قد حبس الناس فى الدور فلا أسمع فى الشوارع المحيطة صوتاً ولا حركة ، فوجدت نفسى من جلال الساعة ورهبة الوحدة وعمق السكون ، كأنما تنسرح من ثوبها المادى وتندمج فى الروح العام والشعور المطلق ، ثم تغيب فى طوايا المجهول ، وتصفح كتاب الغد ورقة بعد ورقة ، حتى تقع على عنوان من

---

(١) النيروز : أول يوم فى السنة الشمسية .
(٢) المتماطر : الذى يمطر ساعة ويكف أخرى .

الدم معقود على ما سجلته يد الأقدار من قضايا الدول ومصاير الشعوب، فتحدق إلى العنوان ، وتدقق فى السطور . ثم خيل إلىّ وأنا مغمض العينين أنى أرى نقطة مربعة من النور تنداح فى الحماليق [1] وتنبسط حتى تصير فى مثل الصحيفة الكبيرة ، وأنى قرأت فى هذه الصحيفة كلاماً كنت فى أكثر الأيام أفكر فى بعضه ، وقد وعته ذاكرتى حتى لأستطيع أن أؤديه إليك الآن على سرده ، فقلت له أعد علىّ بعضه إن شئت . فقال . اجعل بالك إلىّ . ثم انطلق يتلو عن لوح قلبه :

« قال (جون بول) الماكر لصديقه العم سام الطيب بعد أن غسلا أيديهما من دم التنين الألمانى وحمدا الله على السلامة : ما هذا الدب الروسى الذى لجّ فى الخلاف وأصرّ على العناد حتى كدر بجموحه صفو السلام ، وزوّر بطموحه معنى النصر ؟ ألسنا بما جاهدنا فى سبيل الحرية والحق والعدل أولياء الله وخلفاءه ، جعل إلينا وراثة الأرض ، وكتب علينا سياسة العالم ؟ فما سكوتنا إذن عن هذا الدكتاتور الآخر ؟ فقال العم سام وقد تذكر أن استجابة روزفلت لتشرشل قد كسبته نصف الدنيا : من الطبيعى أن ينبو علينا هذا الوحش ما دام طعامه غير طعامنا ، وكلامه غير كلامنا ، ومرامه غير مرامنا ، ونحن خليقان أن ننظر فى أمره . فما عندك من الرأى ؟

قال جون بول وهو ينفض بيبته على كعب حذائه : الرأى عندى أن نتغدى به قبل أن يتعشى بنا . وسأضع بين يديك موارد الإمبراطورية ، لتضمها إلى موارد الجمهورية ، فيكون منها جميعاً ذلك السلاح الذرى الخفى الذى يمحو روسيا والروس فى يوم أو بعض يوم وحينئذ نقسم الكرة بيننا قسمين بالطول

---

(١) الحماليق : بواطن الجفون .

أو بالعرض كما تشاء ، وأترك لك أن تختار إما غرب جرينتش أو شمال خط الاستواء !

وكان الدب فى الوقت نفسه يقول لخليفة استالين : ما هؤلاء الذئاب الذين لبسوا مسوح الرهبان حتى سلموا وأمنوا ، وولغوا فى دماء المغلوبين حتى بشموا وسمنوا ، وظنوا أن قذائفهم الذرية مانعتهم من الله فبغوا بغى ( موسو ) ، وطغوا طغيان ( هتلر ) ؟ إن رسالة الشيوعية إعتاق الإنسان من رق الإنسان. ولن يزول من الأرض استعباد الأفراد برأس المال ، واستعباد الأمم فى سبيل المال ، مادام على ظهرها ناطق بالانجليزية . ومن المحال أن يتحالف الخير والشر ، ويتآلف الصلاح والفساد . فسبيلنا إذن أن نعمم رسالتنا ، ونتمم إنسانيتنا فنبيد هذه الجراثيم بما هيأه لنا الله من قوى المال ومعجزات العلم فيطهرُ الكون ويصلح المجتمع .

وما هى إلا مواضعة الرأى بين رب الشيوعية وزبانيتها حتى انبثت عيون الروس فى مخابىء انجلترا وأمريكا تبحث عن أوكار الطاقة الذرية . وفى ساعة من ساعات الليل الكافر أرسلت عليها صواريخ روسية ألمانية لم يصل إليها العلم السكسونى بعد . فزلزلت الأرض كلها بضع ثوان ، ثم سكن الزلزال وسكن معه كل حىّ وانقضّ به كل قائم .

وأصبح الصباح الأغبر الدامى فإذا العالم قد أسلم وجهه لقوة واحدة ، وإذا عملاق أصلع من عماليق موسكو يخرج من الكرملين كما يخرج العفريت من القمقم ، فيطول ثم يطول حتى يضع رجلا فوق لندن ، وأخرى فوق وشنطن ؟ ثم يقول وقد ازدهاه النصر وتملكه الفخر : لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه فى الغرب أحد ! ولكنه يطلع أمامه فيرى شفقاً من سنا الشرق يغشى بلاد الإسلام من مراكش إلى تركية وإيران وأفغانستان وباكستان وقسم عظيم من

ملـكوت الصين ، وقد تألقت فى جنباته المآذن والقباب ، وأشرقت من خلاله وجوه تمجّ أفواهها النور ، وتشع أعينها الأمل . وتجيب ألسنتها بصوت واحد تجاوبته الأرض ورددته السماء : **الملك لله الواحد القهار** ! ثم يعلو من بين هذه الوجوه وجه ترمقه الدول العربية ، وترقبه الأمم الإسلامية ، حتى يواجه العملاق الذاهب بنفسه ، ثم يقول له : ألست تزعم أن لك رسالة تشيع وسائل العمل بين العمال ، وتفك رقابهم من أغلال رأس المال ؟ إن هذه الرسالة آية واحدة من آي الرسالة الإلهية المحمدية شوهتها نقائص العقل البشرى بما دسّ فيها من إفراط وإقساط وتهور . وليس من المعقول أن يسعد الفرد وتصلح الأمة وترقى الإنسانية بإلغاء الوساطة الطفيلية بين المنتج والمستهلك وهى مشـكلة واحدة من مشكلات الحياة . هناك علاقة الفرد بنفسه وقد تركتموها كعلاقة الآلة بالمحرك عليها أن تعمل ولها الوقود والزيت والشحم . وهناك علاقته بأسرته وقد جعلتموها كعلاقة الفرّوج بالفرّوج فى معامل التفريخ الصناعى لا يعرف حنوّ الجناح ولا يدرك نعيم القرّ . وهناك علاقته بدولته وقد رددتموها كعلاقة قطع الشطرنج باللاعب ينقلها من خانة إلى خانة ولا إرادة ولا وعى . وهناك علاقته بربه وقد قطعتموها فانقطع نور الوحى عن ضميره وعقله . وبمثل هذه العلائق الواهنة لا يتماسك مجتمع ولا يترابط شعب ، فاذا كنت صادقاً فى دعواك ، مخلصاً فى دعوتك ، فاقتبس للعالم الجديد شريعة الإسلام ؛ فإنها وحدها هى النظام الذى يحقق الوحدة الإنسانية : يؤاخى بين الناس كافة فى الروح والعقيدة لا فى الجنس والوطن ، ويسوى بين الإخوة جميعاً فى الحقوق والواجبات فلا يميز طبقة على طبقة ولا جنساً على جنس ولا لوناً على لون ؛ ويجعل للفقير حقاً معلوماً فى مال الغنى يؤديه إليه طوعاً أو كرهاً ليستقيم ميزان العدالة فى المجتمع ؛ ويجعل الحـكم شورى بين ذوى الرأى فلا يحكم طاغ بأمره ، ولا يصر مستبد على غيه ؛ ويأمر معتقديه بالإقساط

والبر لمن خالفوهم فى الدين وعارضوهم فى الرأى ؛ و يوحد بين الدين و الدنيا ليجعل للضمير السلطان القاهر فى المعاملة ، وللايمان الأثر الفعال فى السلوك .

عندئذ يتصاغر عظموت العملاق و يتقاصر طوله ، ثم يقول فى استسلام و إسلام : تلك مبادىء الفطرة ؛ فإذا كانت هى مبادىء الإسلام فسيدخل فيه الناس بالطبع ، و يعتقدونه بالضرورة ، كلما تقدم العلم و ترقى العقل وتهذب الخلق وصحت المعرفة !

# من مذكراتي اليومية

**يوم الأحد ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٧ :**

اختلف أطبائي الخمسة في شرح ما بي ، ولكنهم اتفقوا على أن أذهب إلى حلوان فأنقع في هدوئها ودفئها أعصابي وأوصالي . ففي صباح هذا اليوم العابس القر انتقلت إلى هذه المدينة ونزلت فندقاً من فنادقها الكبرى ، ثم قطعت ما بيني وبين دنيا الناس فلا أشغل ذهني بفكر ولا يدي بعمل . هذا الفندق الغريق في الضوء والسكون أشبه الأشياء بالدير الجبلي في روعته الأخاذة ووحشته القابضة ؛ وهؤلاء النازلون به المستشفون فيه أشبه الأحياء بالرهبان المنقطعين في معيشتهم الرتيبة وعزلتهم الرهيبة ، إنه كالدير في غير بساطة ولا زهادة ؛ و إنهم كالرهبان في غير ورع ولا عبادة . هم أزواج ومزاج من جاليات الأمم الذين انتجعوا مصر انتجاع البدو منابت الكلأ ومساقط الغيث ، ففيهم اليوناني والطلياني واليهودي ، وفيهم كذلك خلق عجيب من جيراننا الأدنين يلبسون القبعة حتى لا يقال إنهم مصريون ، ويتكلمون الفرنسية حتى لا يتهموا بأنهم شرقيون . وأكثر هؤلاء الأخلاط كهول وكهلات يشكون ذات الصدر أو وهن الأعصاب أو وجع المفاصل أو داء الملوك ؛ فمنهاجهم اليومي أن يغدوا إلى العين الكبريتية فيستحموا ، أو إلى العين المعدنية فيشربوا . فإذا متع الضحى رجعوا فرادى وثُناء حتى يتجمعوا حِلقاً حول الموائد تحت مظلات الحديقة وفوق شرفات الفندق . فهنا جماعات العجائز السمان والعجاف جلسن يثرثرن وفي أيديهن إبرة الحياكة تدخل وتخرج ، وفي أفواههن آلة الغيبة تتحرك وتمرج ، فلا يزلن معظم النهار بين أيد تحوك ،

وألسنة تلوك ، وأهدافهن أعراض أولئك الحسان القليلات اللائى جلس متفرقات يهدهدن أجسامهن وأحلامهن على الكراسى الوثيرة الهزازة .

وهناك جماعات الكهول الثقال والخفاف يتراطنون بفضول الكلام وغث الحديث ولؤم الوقيعة ، وكل منهم يتغفل عجوزه المراقبة من بعيد ليخالس النظر إحدى أولئك الجميلات المنفردات فلا يرى منها بالا يعى ولا طرفا يجيب !

كان مرضى يمنعنى القرار فى مكان واحد ، فكنت أسترق السمع حينا إلى جماعة النساء ، فلا أجد حديثهن يخرج عن أن هذه الفتاة الداخلة عشيقة الغنى فلان تاجر القطن وقد أخفاها عن زوجه فى هذا الفندق ، وهو يزورها من الإسكندرية كل أسبوع فيقضى معها الليلة أو الليلتين ؛ وأن هذه المرأة الخارجة أرملة لعوب وصلت أسبابها بالمرابى الأرمل فلان ، فهو يلقاها كل عصر فى (دار الينبوع) أو فى (الحديقة الصينية) ؛ وأن هذه المستلقية على الكرسى الطويل يهودية بذلت سريرها لصديق زوجها فانتحر الزوج وأفلس الصديق ، وهى الآن فى حضن صاحب سينما .

ثم أسترق السمع حينا إلى جماعة الرجال فلا أجدهم يخوضون إلا فى الهجر والنكر ؛ ففلان أثرى بالسرقة ، وفلان يتجر بالفحش ، وفلان قضى بهذا الفندق شهرين ثم لم يعط الخدم يوم سافر إلا قرشا صاغا كان من نصيب الخادم الذى نقل له الحقائب ، فإذا أفضى بهم الحديث إلى قضية المصريين والإنجليز مطوا الشفاه ، وعوّجوا الأفواه ، وقاءوا على أنفسهم خلطا أسود من الغمز بنا والطعن فينا ، وأخونا الشرقى المقبع الذى يناقلهم الحديث لم يرد أن يقول لهم ولنفسه « حسبكم ! فإن لحم أشداقكم التى تلوونها بالبذاء ، وشحم أعناقكم التى تثنونها بالكبرياء ، هما من ضيافة هذه البلاد ! » ولكن المجتمع الأجنبى هنا كما كثر

بالمجتمعات الأجنبية فى كل مكان : نسيج من عمل الشيطان ، لحمته الجناية على الأخلاق ، وسداه الزراية على مصر .

### ملوانه فى يوم الجمعة ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٧ :

زوجة مدير الفندق يوغسلافية حسناء ، يحلو لها أن تلبس فى ساعة العمل القميص الرياضى الأبيض ، والبنطلون الرمادى الطويل ، وأن تسرح شعرها وتصففه على الأسلوب الغلامى الفاتن فتكون أشبه الناس بأبناء الذوات حتى فى العقوين الجميلين المكورين فى أعلى البطن وفى أسفل الظهر . ثم يعجبها و يعجب الناس أن تمشى البخترة فى الشرفة أو فى الردهة أو فى البهو ، فتوزع التحيات والبسمات على من تعرف ومن لا تعرف من نزلاء الفندق . فأينما تمر ينبثق منها على القعود الخمودِ أشعة من الصبا والفتوة ، فلا تجد غافياً إلا صحا ، ولا غافلا إلا وعى ، ولا مغمضاً إلا فتح عينيه ، ولا ساكناً إلا رفع يديه ، ولا شيخاً إلا تمنى أن تقف لحظة على طلله فتسأله كيف أمسى وكيف أصبح !

كانت تصدُّ عامدة عن الشباب أو أشباه الشباب حتى لا تُفسر نظراتها وبسماتها بغير المجاملة التى تقتضيها طبيعة عملها من مواساة المريض ومؤانسة الوحيد ومباسطة المنقبض ؛ ولكنها كانت تؤثرنى بقسط موفور من هذه المجاملة الغزلة ، وتعلل هذا الإيثار بأننى مصرى وهى ترتاح لهذا الجنس ، وبأننى حيى وهى تطمئن إلى هذا الخلق .

أقبلت علىّ ضحى اليوم إقبال الربيع فى لونه وحسنه وعطره . وكان المرض ساعتئذ قد أحرج صدرى وأفرغ صبرى وتركنى لا أتقارُّ من الضجر ، ولا أتفرَّج من الضيق . فلم تكد تحيى وتجلس حتى أحسست فى جسمى ذلك الخدَر العجيب الذى يسكن الألم ويحرك النفس . ثم أخذت تساقطنى أعذب الحديث حتى جرى ذكر هذه الطغمة التى تنعم بخير مصر وتنكره ، وتنتشى برحيق النيل ثم تعكره .

فقالت لا تعجب أن يجحد هؤلاء اللئام فضل مصر ؛ فإن منفعتهم قائمة على أن تظل موسومة بالعجز موصومة بالجهالة ! لقد خالطت بحكم عملى أغماطاً شتى من الأجناس فلم أجد أنبل فطرة ولا أسجح خليقة ولا أندى راحة من المصرى الأصيل القح . أتذكر ذلك الرجل البذىء الذى كنت تجادله بالأمس فى مشكلة فلسطين؟ إنه أغنى أرمل فى يهود الإسكندرية . ومع ذلك طمع يوم نزل الفندق أن ينام دون أن يأكل ؛ فلما أبينا عليه ذلك اتفق مع يهودية مصدورة تقيم فى إحدى الغرف المفروشة على أن تشترى غداءه وعشاءه بستين قرشا ؛ ولها فوق البيعة أن تتمتع بشمس الفندق وحديقته وأثاثه وحفلاته ؛ وبذلك ينام هو بستين قرشاً ويأكل بعشرين، وتنام هى بعشرين قرشاً وتأكل بستين ! فأين هذا الشحيح القذر وأمثاله منك وأنت لا تكاد تأكل خمس ما تنفقه ، أو من المصرى الآخر م. باشا، وطعامه يأتيه كل يوم من داره فيفرقه ؟ إن المصرى سمح سهل ، لا يساوم فى ( تعريفة ) الأجرة حين تعرض عليه ، ولا يراجع قائمة الحساب يوم تقدم إليه. فقلت لها . من هنا يا سيدتى جاءته الخيبة ! فلو انه كان بخيلا لاستدروا بالتقبيل كفه ، ولو أنه كان فظاً لاستماحوا بالتدليل عطفه !

## حلوان فى يوم الاحد ٣ مارس سنة ١٩٤٧ :

ذهبت صباح اليوم إلى نبع حلوان الجديد فإذا عليه أمة من الناس يستقون ويشتفون ، بعضهم من مخلفى الجيش ، وبعضهم من مرفهى العيش ، وكلهم من الممعودين أو المكبودين أو المرورين (١) فلا تعرف فى وجوههم نضرة الشباب، ولا على جسومهم بضاضة العافية .

انبجس هذا النبع منذ سنوات فى هذه البقعة التى انطمس فيها معنى الوجود فلا حياة ولا موت ، ولا سكون ولا حركة ، ولا أمس ولا غد ، فأصبحت بعد

---

(١) الممرور : من هاج به خلط المرارة .

نبوع هـذا النبع وما جر إليهـا من النفع ، مهوى الشعراء ومرَاد الأصحاء وَملاذ المرضى !

كذلك بنو آدم والدنيا ! جنادب[1] فى أجادب ! فلولا الينبوع الذى ولد الواحـة ، والنهر الذى خلق المملـكة ، والنبى الذى منح الجنادب أجنحة الملائـكة ، والحاكم الذى وهب الأجادب خصب الفراديس ، لما أخلد بعض إلى بعض ، ولما امتازت أرض من أرض !

الأرض لولا الرياض واحدة والنـاس لولا الفعال أمثال[2]

تقطع الناس فرقاً حول الينبوع يتساقون أقداحه الفاترات العِذاب . وقد لاحظت أن الذى قسم هذا الجمع إلى هذه الفرق إنما هو الدين لا الجنس ولا الوطن ولا اللغة ، فاليهودى مع اليهودى ، والمسيحى مع المسيحى ، والمسلم مع المسلم . ينظرون إلى الماء بعين واحدة ، وينظرون إلى السماء بعيون متعددة ! فأين هذا من اجتماع الحجيج حول زمزم ؟ إنهم هناك يجتمعون على ينبوع من الإيمان القوى المتحد يجرى فى أفواههم دعاء وأملا ، ويسرى فى دمائهم شفاء وقوة .

ذلك ما أكد لى للمرة السبعين أن الدين أقوى العوامل الروحية والاجتماعية أثراً فى توثيق العلائق بين معتقديه ، وتوهينها بينهم وبين منكريه ، فإذا شاء ربك أن يجعل الناس أمة واحدة أرسل إليهم ذلك الرجل المنتظر فيجمعهم بالرضا أو بالـكره على الدين الذى يكفل التعاون بالمؤاخاة ، ويضمن العدالة بالمساواة ، ويحفظ الـكرامة بالحرية ، ويرفع الإنسانية بالإيثار ، فإذا ما تم له ذلك عمد إلى سماسرة الدين وتجار السياسة وعباد الطمع فأقام لهم المشانق فى الساحات العامة من المدن المقدسة . يومئذ تنـكسر حدة العصبية ، وتنقمع شهرة المنافسة ،

(١) الجنادب . صغار الجراد .

(٢) الفعال بالفتح : الـكرم الخير .

وتنقطع أسبابُ الحرب ، ويغنى الناس عن هذه المؤتمرات والمجتمعات التى يقيمها ذؤبان البشر للحرية والديمقراطية وهى فى الواقع أسواق دولية للرقيق تباع فيها الأمم الصغيرة بالمساومة أو بالمزايدة !

* * *

الينبوع وميدانه الرحب ، وفندقه الفخم ، وحديقته المنمقة ، ومشربه الريان ، ومسبحه العريان ، تعج بالناس ولكنى وحيد . والسماء الصحو ، والنسيم الفاتر ، وسفح المقطم الحادر الضحيان ، وشاطىء النيل الأشجر الفينان ، تغرى كلها بالنشاط ولكنى مريض . وليس للوحيد المريض إلا أن يعود إلى مثواه عسى أن يجد فيه لساناً حلواً فى فم جميل يؤانسه ، أو قلباً طيباً فى صدر نبيل يواسيه !

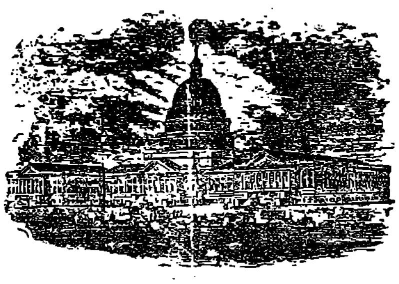

الهيضة بالهيضة تذكر :

# من ذكريات الطفولة

( ٦ أكتوبر سنة ١٩٤٧ )

كنت فى الثالثة عشرة من عمرى حين وفد على مصر وباء الهيضة (الكولرا) فى سنة ١٩٠٢ ، وكانت قريتنا الصغيرة الفقيرة تنقل خُطاها الوئيدة فى طريق الحياة وادعة بالأمن ، ناعمة بالرضا ، هانئة بالقناعة .

كان المرض قليلا ما يغشاها ! فإذا غشيها غشِى الكهل الضعيف . وكان الموت كثيراً ما ينساها ؛ فإذا ذكرها ذكر الشيخ الهرم . لذلك كان المرض لندرته مرهوب الاسم . وكان الموت لوحشته مهيب الصورة ، فإذا مرض الصحيح تجمع القوم فى منظرته أو على مصطبته ، يؤانسونه ويمرِّضونه ويدعون له . وإذا مات المريض لبسوا الحداد عليه العام كله ، فلا يلبسون الجديد ، ولا يحلقون اللحى ، ولا يأكلون الفسيخ ، ولا يصنعون الكعك ، ولا يباشرون المضاجع .

وفى ذات ليلة من ليالى الصيف على ما أذكر ، قيل إن لأسرة فلان قريباً غريباً علموا أنه مريض فذهبوا ليعودوه فى بلده فعادوا به . وهو يشكو مرضاً لم يشكه أحد من قبل : ظمأ لا ينقعه ماء ، وقىء لا يمنعه دواء ، وإسهال لا يقطعه شىء . وفى الصباح الباكر نعته الناعيات فأجمعت القرية على الحزن عليه ، وأقبلت الجيرة على العزاء فيه ، ورسموا المأتم أسبوعاً كالعادة . إلا أن ثلاثة من أسرة الفقيد مرضوا تلك المرضة وماتوا تلك الموتة ، فلم يقوضوا سرادق العزاء ، حتى أتى على جميع الأسرة الفناء . وصحا الناس من دهشة الروع وذهول الفاجعة ، فإذا كل غرفة فيها مريض ، وإذا كل ساعة فيها جنازة ! وهان الموت ورخصت

الأموات ، فلا يُعاد محتضَر ، ولا يشيَّع ميت ، ولا يُعزَّى حى . وقال فقهاء القرية إنه الهواء الأصفر الذى أهلك الله به عاداً الأولى فهيهات أن يعصمَ الناس منه بيوت مغلقة ، أو حصون معلّقة . فاستكان القوم للقضاء ، وصفت قلوبهم من الحقد ، وعزفت نفوسهم عن الدنيا ، وانصرف كل امرىء عن عمله فى انتظار أجله .

* * *

كان الموت الوحىُّ الذريع يخترم لِداتى فى الحارة واحداً بعد واحد ، فخلت الملاعب من الأطفال ، وأقفرت المكاتب من الصِّبية . وكان شوقى إلى بعضهم يدفعنى إلى أن أزورهم خلسة ، فأجد فيهم من يكابد هول الداء وحده ، فلا أبوه يخفف عن كبده سعار العطش ، ولا أمه تمسح عن ثوبه رجْع القىء ! لقد شغل كل إنسان بنفسه عن غيره ، ولها كل بيت بكبيره عن صغيره .

ولكن ( زهرة ) اليتيمة زينة الصبايا وبهجة الحارة كانت فى السواد من قلب أختها ، وفى السواد من عين أخيها ، مرّضتها الأخت حتى أخذتها سكرة الداء ، ومرّضها الأخ حتى غشيته غمرة الموت . وبقيت ( زهرة ) الجميلة وحدها تنتظر النهاية المحتومة فى حجرتها الموحشة على حصيرتها الخشنة . وكانت عمتها العجوز تزورها الحين بعد الحين لترمقها من بعيد ثم تنصرف . وكنت أكنُّ لهذه الفتاة نوعا من الحب المبهم يختلط فيه الإعجاب والحنان والعطف . وكان بيتنا يشرب الماء مغلى فلم يُصَب أحد منا بسوء ، فظننت أن الدواء فى هذا الماء ، فحملت منه قلة ثم دخلت بها عليها . فلما رأتنى افترت شفتاها الذابلتان عن ابتسامتها الحلوة . وأشارت بطرفها إلى الماء فجرّعتها منه جرعة . ثم جلست بجانبها أرنو إلى العينين الفاترتين وقد كانتا كعينى الرشأ ، وإلى الوجنتين الشاحبتين وقد كانتا فى حمرة الورد ، وإلى الجسد الضارع المشفوف وقد كان فى غضاضة السوسن . ثم

وضعت القلة مرة أخرى على فمها الجاف فرشفت منها رشفة ، ولكن الماء وقف في حلقها فلم تستطع أن تسيغه ثم شخص بصرها ، وحشرج صدرها وأخذها فواق ضعيف ، ثم لفها سكون شامل !

لا أزال أذكر هذا المنظر المروع وأتمثله كأنه وقع أمس ! ولا أزال أذكر أن تياراً من الرعب قد اعترانى ، فعقل يدى وعقد لسانى ، فخرجت من الحجرة هارباً بنفسى لا ألوى على شىء ، ولا أخبر أحداً بشىء !

واحسرتا على قريتى الصغيرة الفقيرة ! لقد جثم على صدرها الموت المائت حتى ختم على أكثر الدور ، ونقل نصف أهليها من الدور إلى القبور !

كانت حالنا يومئذ غير حالنا اليوم ؛ فلم يكن هناك مصل يقى ، ولا علاج يشفى ، ولا حكومة تطارد الوباء وتحصره ، ولا أمة تتبع النظام الصحى وتنشره .

# المسلمون في معترك الخطوب

( ٥ يناير سنة ١٩٤٨ )

كأن الحلفاء يوم عقدوا ألوية الحرب قد عقدوا غيب ضمائرهم على الغدر بأنفسهم وبالناس ، فلم يكادوا ينفضون أيديهم من تراب هتلر وحليفيه حتى أخذ بعضهم بتلابيب بعض يتصارعون على أسلاب الحرب ، ويتكالبون على جثث الضحايا ، فهذا يريد أن يغرز أنيابه هنا ، وذاك يحاول أن ينشب أظفاره هناك والاحوم طعوم ، والذبائح أجناس ، فوقف كل وحش بإزاء منافسه يهدده بما يملك من أسباب الحياة وما يعلم من أسرار الموت ، حتى خشع المهيض، واستكان الضعيف ، واستخذى الجبان ، وأقرت الأمم بالضيم ، واعترفت الدول بالرق ، وانتهى النزاع على ملكوت الأرض إلى قوتين متعارضتين : قوة الرأسمالية في أمريكا ، وقوة الشيوعية في روسيا : كلتاهما تريد أن تبسط سلطانها على المستضعفين في الأرض دون الأخرى . والدولة التي كانت تنافسها في استرقاق الشعوب نتفت ريشها الحرب فتأخرت عن صفها وهبطت عن مستواها ، فتركت لها تصريف الأمر وغفت في ظلال السكينة ترجو لأجنحتها أن ترتاش ولجروحها أن تندمل . فلم يبق في العالم اليوم من يقف أمام هاتين القوتين العارمتين موقف الأبي الذي يتكرم عن الذل ويتجافى عن المهانة إلا قوة واحدة تستمد بأسها من رَوْح الله ، وتقتبس هديها من نور الحق ، هي قوة الإسلام . وبحسبك أن تسمع مذياعك في أي ليلة ، أو تقرأ صحيفتك في أي يوم ، لتعلم أن هذه القوى الثلاث هي التي تتصارع وتتقارع في الغرب والشرق وما بينهما ، وسائر الأمم محتبون بهامش الميدان يشهدون هذا الصراع شهود المتفرج أو المهرج أو المراهن: فالروسيون يريدون أن يتدفقوا في سهول الشرق لينسخوا بمبادئهم دياناته وفلسفاته ،

والأمريكيون يقيمون من دونهم السدود ليظلوا مستأثرين وحدهم بخيراته ، والمسلمون فى تركية وإيران وباكستان وأفغانستان وأندونيسيا ، وفى أقطار العروبة من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى ، يجأرون بالشكوى ، ويصرخون من الظلم ، ويغضبون للكرامة ، ويثورون للحق ، وينادون بالجهاد ؛ ولكن أصواتهم الإنسانية اللينة تذهب فى عواء الذئاب ونباح الكلاب كما تذهب النسمة الرخية فى الأدغال الشواجن !

كأنما الحرب لم تخلف من المشكلات غير مشكلة الشرق الأوسط ! وكأنما الأسرى فى نظام هيئة الأمم المتحدة هم المسلمون ! فمن لم يكن له وطن من شذاذ الأمم جعلوا له موطناً من أرض العرب ! ومن ضاقت عليه مذاهب العيش فى بلده وسّعوها عليه من أرزاق العرب ! ومن نقت ضفادع بطنه من المستعمرين لازدراد بقعة حرام سكّنوا جوفه المسعور بقطعة من أملاك العرب ! ومن نازع المسلمين أو العرب على شيء من ديارهم الموروثة فضوا النزاع على حساب المسلمين أو العرب ! فالروس تتحلب أشداقهم على ابتلاع تركية وإيران ، والهندوس يجدون العطف الأوربى على عدوانهم الوحشى على أهل باكستان . وهولندة تحاول أن تمزق بحديد الأمم المتحدة إندونيسيا ، وهذه الدولة لا تزال تشعر بمسامير النعل الهتلرية الثقيلة تغوص فى ظهورها الوطيئة البضة وانجلترة العجوز تريد أن تخل لحاميتها أمريكا طريق الشرق فتقرر الجلاء عن فلسطين لتقطع السودان من مصر ، وهو إنسان عينها ومهجة قلبها ، لتجعله نقطة ارتكازها فى افريقيا وحقيقة مجازها إلى الشرق وفرنسا المنحلة ما زالت تفرض الباقى من سلطانها على الشمال الأفريقى كله فتقيم بينه وبين أبويه الإسلام والعروبة حاجزاً من الظلام والحصر والرقابة والتجسس ، وترغمه على الاندماج بها والفناء فيها فيستظل بغير علمه ، ويتكلم بغير لغته ؛ ويؤمن بغير دينه . ولولا ممالأة الدول ومواطأة اللصوص ومناوأة الخطوب لما ثبتت هذه القدم الناعمة فى رمضاء الريف وصخور أطلس !

وأمريكا التاجرة الطموح تصمم على أن تحول بين الشيوعية وثروة الشرق فتجعل من الإنجليز واليهود سداً كسد ذى القرنين بأخذ السودان من مصر، وفلسطين من العرب، وبقية امتداده من الإسلام. ولولا هذه النية الخبيثة لما ساعدت انجلترةَ على مصر فى مجلس الأمن، وعاونت اليهودَ على العرب فى جمعية الأمم المتحدة.

ها هى ذى تقسم فلسطين وبها إحدى القبلتين وثانى الحرمين قسمة ضيزى بين العرب الأصلاء واليهود الدخلاء وتحمل الصهونيين على ضمائرها وبواخرها من أركان الأرض إلى فلسطين لينصبوا فيها الصليب للحق كما نصبوه من قبل لعيسى، ويبذروا فى القدس الشقاق للناس كما بذروه فى يثرب لمحمد!

ليت شعرى ما جريرة العرب والمسلمين على الأمم الأوربيين والأمريكيين؟ هل جريرتهم عليهم أنهم فتحوا العالم وطهروه، وأعلنوا دين الله ونشروه؟ قد يكون مع الفتح ترة العنصرية، ومع نشر الدين تعصب الكنيسة، ولكن ترة المقهور وتعصب الكاهن لم يكونا وحدهما السبب فى ذلك الاستخفاف الدولى بالإسلام والعروبة؛ إنما السبب الأقوى فيما أعتقد أن المسلمين اعتمدوا على الحق دون القوة، وعولوا على القول لا على الفعل، واعتقدوا فى الشخص لا فى المبدأ. ونسوا أن دينهم قرآن وسيف، وتاريخهم فتح وحضارة، وشرعهم دين ودنيا، وحربهم جهاد وشهادة، وزعامتهم خلافة وقيادة.

فهل آن لأبناء الأمة الوسطى وورات الدعوة الكبرى أن يذكروا ما نسوا، ويجددوا ما طمسوا، ويعلموا أن الحق هو القوة، وأن القوة هى الوحدة، وأن وحدة العرب كانت معجزة دين التوحيد، قام عليها تاريخهم القديم، ولن يقوم على غيرها تاريخهم الجديد؟!

# بلاغة الرسول

( ٢٦ يناير سنة ١٩٤٨ )

كلفتنى الإذاعة المصرية فى احتفالها بذكرى مولد الرسول الكريم أن أكتب كلمة فى بلاغته تذاع فى عشر دقائق؛ وهذا تكليف بالمحال. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها؛ فإن عشر دقائق لا تتسع للحديث الموجز عن بلاغة كاتب. فكيف تتسع للحديث عن بلاغة رسول اصطفاه الله لرسالته، واصطنعه لوحيه، وعلمه من علمه؟

إن بلاغة الرسول من صنع الله. وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه، وتقصر مقاييسه عن قياسه. فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره. هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة؟ وهل يجد فى نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة؟ إن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية، وإذا كان كلام الله (كتاب) البيان المعجز، فإن كلام الرسول (سُنة) هذا البيان. وإذا كان البلاغ صفة كل رسول، فإن البلاغة صفة محمد وحده. تجمعت فيه صلى الله عليه وسلم خصائص البلاغة بالفطرة، وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة؛ فقد ولد فى بنى هاشم، ونشأ فى قريش، واسترضع فى بنى سعد، وتزوج من بنى أسد. وهاجر إلى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج؛ وهذه القبائل التى تقلب فيها الرسول هى بالإجماع أخلص القبائل لساناً وأفصحها بياناً وأعذبها لهجة. والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والمنطق إنما هى المخالطة والمحاكاة. ثم تولى الله عز وجل تأديبه وتهذيبه، فكمله برجاحة العقل وسجاحة الخلق وصفاء الحس وقوة الطبع وثقوب الذهن وتمكن اللسان

ومحض السليقة ، ليكون لساناً لكلمته ومظهراً لنوره . ثم أخذ يتصرف في التجارة على عادة قومه ، فضرب في الآفاق ، وتنقل في الأسواق ، فرأى المناظر الجديدة ، وسمع المناطق المختلفة ، وحصّل المعارف العامة . والأسفار والأخطار والهجرة بعد توفيق الله تفتق الذهن وترفد العقل وتزيد المعرفة . ثم كان يخلي ذرعه من صوارف الدنيا الليالي الطوال فيعتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى الملأ الأعلى . ثم كان من طبعه أن يديم التفكير ويطيل السكوت ، فإذا تكلم اختصر من اللفظ واقتصر على الحاجة ، وأتى الكلام بيناً فصْلاً يحفظه من جلس إليه ، ولو عده العادّ لأحصاه ، كما قالت السيدة عائشة ؛ كل أولئك قد مكن للرسول من ناصية البلاغة ، فأسلست له الألفاظ ، وأسمحت له المعاني ، فلم يندّ في لسانه لفظ ، ولم يضطرب في أسلوبه عبارة ، ولم يعزب عن علمه لغة ، ولم ينْب عن خاطره فكرة ؛ حتى كان كلامه كما قال الجاحظ « هو الكلامَ الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة وتنزه عن التكلف . واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، وتنزه عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشُد بالتأييد ويُسر بالتوفيق . ثم لم يسمّع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل معنى ، ولا أجْمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين من فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم » لذلك قال وقوله الحق . « أنا أفصح العرب ، بْيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر » . وقد قال له صاحبه أبو بكر : لقد طفت في بلاد العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أحسن منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي » ومن أولى بذلك كله ممن يخاطبه الله تعالى بقوله : وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ؟

إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى الأصالة والإيجاز .

فالأصالة ، وهى خصوصية اللفظ وطرافة العبارة تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية ، ويرتجله من الأوضاع التركيبية ، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية ، كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حتف أنفه . الآن حمى الوطيس . هدنة على دخَن ؛ وقوله لحادى النساء : رويدك ! رفقاً بالقوارير . وقوله فى يوم بدر : هذا يوم له مابعده . ولتمكن الأصالة فيه كان يقتضب ويتجوز ويشتق ويبتدع ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ؟ وسراً من أسرار اللسان ، يزيد فى ميراث اللغة ، ويرفع من قدر الأدب .

والإيجاز ، وهو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول ؛ لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ ، وشدة فى التماسك ؛ وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور وقوة الذهن ؛ وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول : ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه حتى عُدّت من خصائصه .

على أن الرسول عليه السلام كان يطيل إذا اقتضت الحال ذلك . فقد روى أبو سعيد الخُدرى أنه خطب بعد العصر فقال : « ألا إن الدنيا خضرة حلوة ! » ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . اتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا مخافةُ الناس ، ألا يقول الحق إذا علمه . . قال أبو سعيد ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف . فقال : « إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى » .

والمأثور من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم خطب وكتب وأحاديث ، وكلها تتسم بالإلهام والإبداع والعبقرية ، وتمتاز بالجزالة والجلالة والسبك

وهو فى بعضها يستعمل الغريب ويلتزم السجع تبعاً لما جرى على ألسنة الوافدين عليه من مختلف القبائل . من ذلك حديثه مع طهفة بن أبى زهير النهدى ، ومع لقيط بن عامر بن المنتفق ، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره .

وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار ، وتلك ميزة الرسل من قبل ؛ لأن المرسلين فى مقام المعلمين ، وأنجع ما يكون التعليم إذا كان على طريقة التمثيل والمحاورة ، كقوله عليه السلام « إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . المؤمن هين لَيِّن كالجمل الأنِف إن قِيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ ، أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . ولو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً . إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . إياكم وخضراء الدمن : المرأة الحسناء فى المنبت السوء . المرأة كالضلع إن رُمت قوامها كسرتها . الناس كلهم سواسية كأسنان المشط . جنة الرجل داره . ومن روائع تشبيهاته عليه السلام قوله : إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع . فنقر رجل منهم موضعه بفأس ؛ فقالوا له ماتصنع ؟ قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا .

والسفينة التى ضربها الرسول مثلا هى اليوم دنيا الإسلام والعروبة ، تقسمها الإخوان والبنون فى عهود الضعف والانحلال فصار لكل منهم وطن ودولة ؛ ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة ، كما تجمع السفينة مواضع الركاب ؛ فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره ؛ فهو حرى ألا يوبق بحريته الوطن الجمع ؛ والوطن الجمع حرى ألا يغرق فى عبابه الوطن المفرد وكأن

الرسول صلى الله عليه وسلم ، بما آتاه الله من ألمعية الذهن وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لجامعة الدول العربية لعلها تتذكر فتتدبر . وهذه هي بلاغة الإلهام والفيض ، تكشف الحجب بنور الله ، وتخترق الغيوب بنفاذ البصيرة ، وترسل الكلمة من فيض الخاطر وعفو البديهة فتكون حكمة الحاضر ونبوة المستقبل !

صلى الله عليك يارسول التوحيد والوحدة ، ونبي الحرية والديمقراطية ؛ وإمام السياسة والتشريع ، وأمير الفصاحة والبلاغة ، وداعية السلام والوئام والمحبة !

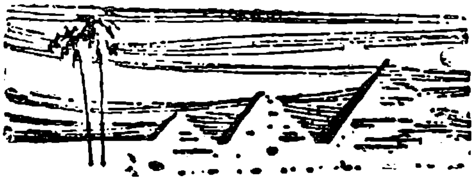

# محمد إسعاف النشاشيبى

( ٢ فبراير سنة ١٩٤٨ )

أهكذا ، وفى أسرع من رجْع النفَس يسكت اللسان الذليق ، ويسكن العصب الثائر ، ويخمد الذهن المتوقد ، ويقف الفؤاد الذكى ، ويصبح النشاشيبى نعياً فى الصحف ، وخبرا فى البلاد ، وحديثاً فى المجالس ، لا يقول فنسمع ، ولا يكتب فنقرأ ! ؟

أهكذا ، وفى مثل ارتداد الطرف يترك النشاشيبى قلمه سائلا بالمداد ، وكتبه مهيأة للطبع ، ومجالسه مشتاقاً للسماع ، و ( رسالته ) منتظرة ( للنقل )[1] ، ويذهب إلى حيث لا يرجع ولا يكتب ولا يتحدث ؟ !

سبحانك يارب ! شعاع أرسلته ثم رددته ، وروح بثثته ثم استعدته ، وظل بسطته ثم قبضته ، ولواء رفعته ثم خفضته ، وبنو آدم العاجزون الضعاف لا يملكون أمام أمرك البادى وسرك المكنون إلا أن يشكروا على العطاء والأخذ ، ويحمدوا على المحبوب والمكروه !

كنتُ ثالث ثلاثة استبقاهم الوفاء بجانب إسعاف فى ساعاته الأخيرة ؛ وكان

(١) نقل الأديب ، مختارات من أعذب الأحاديث كان ينشرها تحت هذا العنوان فى مجلة الرسالة .

الطبيب واقفاً يصف الدواء و ينظم العلاج و يرشد الممرضة ؛ وكان المريض جالساً في سريره حاضر الذهن حافل الخاطر يغالب انبهار النفَس من الربو ؛ و يجاذب العوّاد مارقّ من الحديث : فهو يضع لسانه حيث شاء من نوادر اللغة وطرائف الأدب ، فينتقل من الكلام في ( ليس غير ) إلى الكلام في ترجمة ( جوتة ) لقصيدة خلف الأحمر ، حتى إذا سمع الطبيب يصف له البنسلين قطع الحديث وقال بلهجته المعروفة : أنا أكره البنسلين لأنه أنقذ ( تشرشر )[1] ! فقلنا له : ونحن نحبه لأنه سينقذ أبا عبيدة ! وكانت مظاهر العزم في حديث ( أبي عبيدة ) توسع في أنظارنا فسحة الأمل ، وتصرف عن أذهاننا فكرة الخوف ، فلم يدر في خلدنا أن المنية كانت مرنّقة فوق سريره تنتظر أنفاسه المعدودة أن تنقضي ، وألفاظه المسرودة أن تنفد ، فلم يكد السامر ينفض والساهر ينام حتى ختمت على فمه المنون فسكت سكوت الأبد !

ولد محمد إسعاف بن عثمان النشاشيبي بالقدس حوالى سنة ١٨٨٢ في أحد البيوتات التي تجاذبت السيادة على فلسطين . وكان أبوه من ذوى الثراء والدين والخلق فنشأه على الطباع العربية الأصيلة من جرأة القلب وصراحة الرأى وحرية الضمير . ثم أراد أن يجمع له أطراف المجد بالعلم والمال فبعث به إلى المدرسة البطريركية ببيروت فشدا شيئاً من مبادىء الآداب والعلوم ، ثم انقلب إلى أبيه ، وكان يومئذ وحيده ، فنظمه بالعمل في سلكه ، ونزل له بالبيع الصورى عن أكثر ملكه . وأخذ إسعاف يتقلب في ظلال أبيه على مهاد النعيم والخفض حتى تزوج أبوه زوجة أخرى ، ورزقه الله ولداً آخر ، فأراد الأب إسعافا على أن يرد إليه ما أعطاه ليكون شركة بينه وبين أخيه ؛ فأبى إسعاف أن ينزل عن شىء دخل في رزقه وأصبح من حقه ... وانشقت العصا بين الأب وابنه ، فخرج إسعاف

---

(١) يريد المستر تشرشل وهو أصل نكبة العرب في فلسطين .

من كنف الأبوة مغاضباً يضطرب فى المعاش ويسعى على نفسه . ومنذ ذلك اليوم عرف إسعاف الهم وذاق الألم وكابد البؤس . كان يعمل ليلهو فأصبح يعمل ليعيش . وكان يقرأ ليلذّ فأصبح يقرأ ليعلم . وكان يحيا لينعم فأصبح يحيا ليموت . وولىّ أبوه غفر الله له وساطة الناس أذناً صماء فلم يعنه على تكاليف العيش بتمكينه من ريع أرضه ، فذهب يستقطر الرزق من تعليم العربية فى بعض المدارس وكان يعول بعض الضعيفات من أهله ، فتحمل فى سبيل ذلك رهقا شديدا بقى أثره بارزا فى نفسه طيلة حياته ، تعاوده ذكراه فى سكينته فيضطرب وفى لذته فيتألم . ثم حسم الله الخلاف بينه وبين أبيه بالموت ، فوضع إسعاف يده على نصيبه من الثراء العريض . وعاد إليه الحظ باسما يتملقه ويعتذر إليه ، فتلقاه الكادح المحروم كما يتلقى الثرى المكروب ماء المزن . وفى القدس شيد قصره المنيف ليكون مثابة للأدباء ومجمعاً للأدب ، ثم اقتنى مكتبة من أنفس الكتب وأندرها ، وأقبل عليها وهو لا يزال فى ربيع العمر فقتلها علماً وفهما وتدقيقا وتعليقا واختيارا واستظهارا ، فلم يترك كتابا مما أخرجته المطابع أو نسخته الأقلام فى القديم والحديث إلا قرأه وعلق عليه واستفاد منه . ثم وقف بعد ذلك نفسه ووقته وجهده على دراسة الإسلام الصحيح فى مصادره الأولى ، وتحصيل اللغة وعلومها وآدابها من منابعها الصافية ؛ وأعانه على ذلك قريحة سمحة وبصيرة نيرة وحافظة قوية وذوق سليم ، فكان آية من آيات الله فى سعة الاطلاع وكثرة الحفظ وتقصى الأطراف وتمحيص الحقائق . ثم جلس على مكتبه كما كان يجلس ابن دريد ، عن يمينه زجاجة فيها مداد القلم ، وعن يساره أخرى فيها مداد الفكر ؛ وأخذ يعسل كما تعسل النحل إذا امتلأ جوفها بالرحيق . وفاضت بهذا العسل المصفى أنهر الصحف والمجلات فى الشام ومصر ، فاشتاره القراء متنوع الطعوم مختلف الألوان متعدد الأسماء . ولئن سألوا لمن هذا الشراب أعياهم أن يجدوا فى إمضاءاته الرمزية من نحو ( ن ) و ( أزهرى للمنصورة ) ( * * * ) و ( السهمى ) !

لأن النشاشيبي لم يكتب للشهرة والمجد ، إنما كان يكتب للعصبية والعقيدة . أخلص لله فأخلص لقرآنه ، وأولع بمحمد فأولع بلسانه . فإذا جلس إلى الناس في القدس أو في دمشق أو في القاهرة كان مجلسه ندوة علم وأدب وفكاهة ، ولا تُذكر مسألة إلا كان له عنها جواب ، ولا تثار مشكلة إلا أشرق له فيها رأي ، ولا تروى حادثة إلا ورد له عليها مثل ، ولا يحضر ندوته أديب مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد . ثم كان في غير مكتبه ومجلسه يشارك في ( معارف ) فلسطين بعمله ، وفي المجمع العلمي العربي بعلمه ، وفي الثقافة العامة بكتبه ، وفي المحافل الأدبية بخطبه وفي المساعي الخيرية بماله . ثم أقلع منذ أربعة عشر عاماً عن شهوات الجسد فلم يبق له من لذاذات العيش إلا الكتاب العربي والسِّكارة التركية . ولكن إسرافه على شبابه أعقبه علة في شعاب الرئة جرّت إليه علة الربو . واصطلحت هاتان العلتان على القلب طيلة عشر سنين حتى أضعفتاه ، ومن هنا جاءت منيته .

كان النشاشيبي جاد الله بالرحمة ثراه رجلَ وحِده في الأسلوب والخط والحديث والتحصيل . أسلوبه عصبي ناري تكاد تحس الوهج من ألفاظه ، وتبصر الشعاع من مراميه . وخطه نمط عجيب بين الكوفي والتعليق لم يأخذه على أحد ولم يأخذه عنه أحد . وحديثه نبرات قوية تبرز الألفاظ ، وحركات سريعة تمثل المعاني ، وانفعالات شتى تتعاقب على قسمات وجهه وأصابع يده . وتحصيله عجب من العجب : لا تستطيع أن تذكر له كتاباً من كتب العربية لم يقرأه ، ولا بيتاً من شعر الفحول لم يحفظه ، ولا خبراً من تاريخ العرب والإسلام لم يروه ، ولا شيئاً من قواعد اللغة ونوادر التركيب وطرائف الأمثال لم يعلمه ؛ فهو من طراز أبي عبيدة والمبرد ، ولذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقاً واختياراً وأمالي . ثم كان إلى كل أولئك متواضع النفس ، فكه الأخلاق ، لطيف الروح ، نفاح اليد ، عفيف اللسان ، مأمون المغيب ، لا يتعزز بحسبه ، ولا يطاول بماله ،

ولا يباهى بعلمه ، ولا يفخر بشيء مما يتمدح به الناس إلا بالانتساب إلى العرب والانتماء إلى محمد !

إن النشاشيبي كان خاتم طبقة من الأدباء اللغويين المحققين لا يستطيع الزمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجود بمثله . فمن حق المحافظين على التراث الكريم ، والمعتزين بالماضي العظيم ، أن يطيلوا البكاء على فقده ، وأن يرثوا لحال العروبة والعربية من بعده !

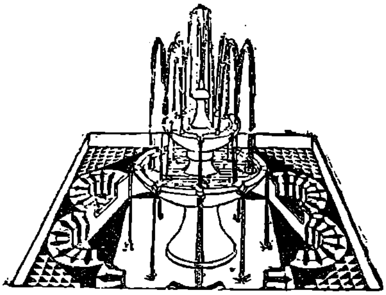

في الروتين الحكومي

# إرادة الصغير إرادة الكبير

( ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ )

من العجائب التي قلما يعجب لها أحد أن هذه الأداة الحكومية على ضخامتها وجلالتها وخطرها، إنما يحركها صغار الموظفين حيناً بالعقل وأحياناً بالهوى. فإذا حدث في أسافلها الخطل أو الخلل — وكثيراً ما يحدث ذلك عن جهل أو عن علم — اصَّعَّد آليًّا في أعاليها حتى يبلغ ذرى الرياسة فيدخل على المدير أو على الوزير، مزوداً بالتقارير الشارحة، مؤيداً بالتواقيع المختصة، فلا يسعه إلا أن يصدق ما بين يديه، فيقبل الخطأ على أنه صواب، ويرد الحق على أنه باطل. وتلك إحدى سيئات الهيرارشية (hièrarchie) وهي النظام الإداري الذي يقضي بتدرج المناصب في العمال والأعمال والتبعات: فيبدأ الأمر بالأصغر فالصغير، ثم ينتهي إلى الكبير فالأكبر. وكلما انتقل الأمر من درجة إلى درجة أسرع النظر فيه، وقلت الرقابة عليه، وخفت المسئولية عنه.

فالعهدة في هذا النظام كما ترى على الضمير، إذ سلمت الأداة وانتظم العمل، وإذا اعتل اعتلت الحكومة واضطرب الحكم. أما حياطة القانون (للأوراق الرسمية) بتشديد العقاب على من عبث بها أو زور فيها فذلك أمر لا طائل من ورائه إذا خفي العبث أو غفت الرقابة أو اشتركت المنفعة!

تعال أقص عليك بعض ما أعلم عن هذه الهيرارشية من سوء عسى أن يكون في قصصه إنعاش لضميرك إن كنت عاملاً في هذا النظام وعبثت به، أو تعزية لنفسك إن كنت معمولاً به وتأذيت منه:

غضب مالك الأرض فى قريتنا على شاب من شبابها الأخيار لأنه جرؤ على سعادته يوماً فطلب منه أن يردم بركة من بركه التى تحيط بالقرية إحاطة الغل بالعنق ، وأراه أن من الخير له أن يقى فلاحيه حمى الملاريا ليظلوا قادرين على رى أراضيه بعرقهم ، وتغذية خزائنه بدمهم . وكان لهذا المالك الغضبان قرابة ببعض أولى الأمر فى وزارة الداخلية ، فاستعداهم عليه ، فألف الإدارى الصغير تقريراً غيابياً عن هذا الرجل رماه فيه بتهديد حياة الناس بالإجرام ، وتكدير أمن البلاد بالشغب . ووافق المأمور المعاونَ ، وأيد المدير المأمورَ ، وصدّق الوزير المدير ، وحكم على البرىء حكما عسكرياً بالاعتقال ستة أشهر تجدد لمثل ذلك ، إذا لم يرضَ عنه المالك ! فلما علمت بالأمر طلبت الإذن على وزير الداخلية ، وكان يومئذ ، ف . س ، وعرضت عليه القضية ، فى لغة أنيقة ولهجة رقيقة : إن هذا الرجل من الأشقياء ( الخطرين ) ، ولا أحب أن يشفع مثلك فى مثله ، فقلت له : يا باشا ، إن الرجل من كرام قريتى ، وأنا أعرفه كما أعرف أبناء أسرتى . فقال : وماذا أصنع فى تقرير رسمى حققه المركز وأيدته المديرية واعتمدته الوزارة ؟ فانصرفت حردان أسفاً على الحق يدمغه تقرير باطل فيزهق ، وعلى العدل يصيبه تقرير جائر فيهلك . وبقى المسكين فى سجنه يقاسى ألم الجور وذل الاعتقال ، حتى سقطت الوزارة القائمة ، وألغيت العسكرية الحاكمة ، فزالت عن الرجل فى التوِّ صفات الإجرام ، وخرج من معتقله إلى أهله بسلام !

* * *

وفُصل من وظيفته مُحْضر شاب كان يعمل فى محكمة ( عنيبة ) من مركز الدر ، لأنه غاب عن مكان عمله خمسة عشر يوماً من غير إذن . وسبب غيابه أن المرض أدركه فى آخر يوم من أيام إجازته السنوية ، وكان يقضيها مع أسرته بالمنصورة ، فطلب إجازة مرضية ، فأباها عليه مفتش صغير كانت بينه وبينه

خصومة ، وقرر للرياسة أن الرجل صحيح البدن ولكنه مريض النية، فهو يأبى العودة إلى بلاد النوبة ويتمارض ليسعى . وصدق الكبير فأمره بالعودة إلى العمل بعد انقضاء الأجل . وكانت العلة شديدة ، والشقة بعيدة ، فلم يدخل عنيبة إلا ليقرأ كتاب فصله ، ويرجع بالشقاء والبؤس إلى أهله !

وقضى المسكين فى العطل أشهراً يطعم أطفاله الأربعة وأمهم بالدين ، ويدافع الضر عنه وعنهم بالأمل ، حتى عرضت بنفسى ظلامته على صاحب المعالى ا . ع . وكان يومئذ يتولى وزارة العدل بالنيابة ، فاقتنع ببطلان تهمته ، وأعاده إلى وظيفته بمرتبه ودرجته ومدته .

وقضى المسكين فى العمل أشهراً يجاهد نصيب العيش ويكابد وصب الداء حتى أودى به الشلال على السرير موحش ووساد قلق . وكان فى إدارة المستخدمين بوزارة العدل عصبة من صغار الموظفين تتجر بمنح العلاوات والدرجات ، فيقضون المبرم ، ويبرمون المنقوض ، والكبار من غير فطنة ولا علم يحلون ما عقدوا ، ويعقدون ما حلوا ، فقررت هذه العصبة أن إعادة الموظف المرحوم إلى عمله بعد فصله كانت تعيينا من جديد يجبُّ أربعة عشر عاما قضاها فى الخدمة ! وانتظرت العصابة من ورثة الميت المساومة ؛ ولكن اليتامى الأربعة الضعاف ، وأمهم الأيم الصغيرة الفقيرة ، كانوا لا يخرجون من مسكنهم النابى ، ولا يفيقون من حزنهم الطويل ، فأمضى الكبار ما قضى به الصغار ، وقدرت المكافأة بجنيهين تقطع منهما الدمغة !

وبلغتنى المأساة فعرضتها على صاحب المعالى ا . م . ب وزير العدل — وكان قد كشف بفطنته ويقظته سر العصابة — فنظر فى هذه القضية بنفسه ، وكتب إلى ( المالية ) كلمة العدل فيها بيده .

* * *

وشكوت إلى ( مصلحة الطرق والكبارى ) بالمنصورة أن ضيعتنا جزيرة فى بحر الأمير عمر طوسون ، لا يصلها بالشاطىء العام إلا طريق وعر غير سالك. وسألتها أن تمهده ولو على حسابى ؛ ولكن المهندس الصغير تلكأ لسبب أحذره أنا ، وربما تحذره أنت . فلجأت إلى الرياسة العليا فقررت الطريق وأمرت أن يمهد ويصان . فلما جاء الأمر بالتنفيذ ورم أنفه واستطار عناده وأقسم ليقفن دون هذا الطريق مهما يكن الأمر والآمر . وكتب تقريراً زعم فيه أن الطريق خمسة آلاف متر وهو لا يزيد على سبعين قصبة ، وأن فى بعضه عقبة كأداء وهو وحده هذه العقبة ! فلما رأت الإدارة هذا الاختلاف بين ما قررت وقرر أرسلت إلى العزبة ثلاثة من مهندسى القاهرة فوافقوا أمامى على ما قررت ، ورسموا الطريق على ما قدّرت ، ولكنهم حين خلو إليه فى مكتبه أصبح الخفيف ثقيلا ، والممكن مستحيلا ، والكذب صدقا ، والعام خاصا والضرورة ترفا ، والمنفعة مضرة ! ومن هذا الزور الجرىء ألف الموظفون الصغار التقرير ، ورفعه كبيرهم إلى المدير ، فلم يسعه إلا أن يصدق الأوراق الرسمية ، ويعتمد التوقيعات المختصة .

ورفعت أنا تقريرى إلى صاحب المعالى أمير الأدباء ووزير المواصلات ، فهو ينظر فيه نظر القاضى العالم والحاكم الحازم ، وسيستشهد بالطريق الناطق على التقرير المكتوب ويستدل بالواقع الصادق على التقدير المكذوب !

* * *

هذه أمثلة ثلاثة مما أعرف ، ولعل أمثالها ألوف مما يعرف الناس ، سردتها عليك فى هذا الإيجاز لتصدق أن إرادة الصغير هى إدارة الكبير ، وأن ليس على صغار الموظفين رقيب إلا الشرف والضمير !

# أول ما عرفت شوقى

( بمناسبة ذكراه السادسة عشرة )
( ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٨ )

عرفت أحمد شوقى عن عِيان سنة ١٩٢٧ فى المهرجان الذى أقيم لتكريمه فى القاهرة . عرفنى به الأستاذ محمد كرد على ، وكان قد وفد فيمن وفدوا من أقطاب الأدب وأعيان العرب ليشاركوا مصر فى تكريم شاعر العربية العظيم . فذهبت إليه فى فندق الكنتننتال أزوره . فوجدته بالشرفة جالساً فى قلادة من أولى الفضل يتوسطها شوقى . فلما رآنى مقبلا هش لى ورفّ علىّ ، وقال لشوقى وهو يبسم ويتهلل : هذا هو الرجل الذى أنصفك ! فلما استسمانى الشاعر النابه عجب الأستاذ كرد على ألا يكون بيننا تعارف ونحن نعيش فى بلد واحد ونسير فى طريق واحد . وسمانى له ، فتلقانى ببشره وشكره وأنسه . ثم توثقت بينى وبينه أسباب المودة سنتين كاملتين رحلت بعدهما إلى العراق . وفى أثناء مقامى ببغداد اصطفاه الله لجواره ، فلم أره بعد ذلك إلا رؤيا ، ولم أتمثله إلا ذكرى !

كان الأستاذ كرد على يشير بانصافى لشوقى إلى مقال نشرته يومئذ فى العدد الخاص بتكريمه من مجلة (السياسة الأسبوعية) عنوانه (ما لشوقى وما عليه)[1] ؛ وكان أكثر ما كتب فى هذا العدد عن شوقى أقرب إلى التكير وأدنى إلى الجرح ، فداخل شوقى ظنون من إخراج هذا العدد ، وحك فى صدره أشياء من جهة الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة ، وأرهج بعض الناس بين الصديقين بالفساد حتى كادت تقع بينهما جفوة .

---

(١) نشر فى كتابى ( فى أصول الأدب ) .

قال لى شوقى وقد أخذ بذراعى والقوم منصرفون : إنى أشكرك على نقدك وتقريظك على حد سواء ، فإن الحق فيما آخذت لى ظاهر ، والعدل فيما أخذت علىّ صريح . و إنى أسلم لك ماعددت من هفواتى وأرده إلى اختلاف الأثر بين عصرين وثقافتين وذوقين . وليس من السهل أن يتجرد الشاعر أو الكاتب جملة أو فجأة من عوامل الوراثة والدراسة والبيئة . ولكن ما رأيك فيما كتب فلان وفلان ؟ وهل كان من مقتضيات الحال أن تنشر مجلة صديقى هيكل آراء خصومى فى عدد تكريمى ؟ فقلت له : إن رئيس تحرير السياسة كاتب يعرف قيمة النقد ، ويرعى حرمة الرأى ؛ وقد طلب إلى طائفة من أعلام الأدب أن يدلوا بآرائهم فى الشاعر من غير تحديد لجهة ، ولا تعيين لقصد ، ليكون العدد الخاص على ما أعتقد دراسة فنية شاملة لنواحى الشاعر تتعارض فيها الآراء ، وتتقارع فيها الحجج ، فتتألف من هنا ومن هناك صورة تامة لفن الأمير تكون فى وسط هذا المهرجان تمثالا فيه الجمال والجلال ، ولكن فيه كذلك الصفات الطبيعية الأخرى التى يريدها الخالق الكامل للمخلوق الناقص . فقال شوقى بصوته الخفيض وابتسامته الوديعة : يظهر أنك لاتقرأ ما بين السطور ، ولاتعرف ما وراء الستور . فقلت له : ربما !

ووقفت بنا سيارته على ( كرمة ابن هانىء ) ، وكانت ليلتئذ تتلألأ بالنور والسرور ، وتزدان بالزهور والحضور . فأصاب القوم ما شاءوا من مرىء الطعام وهنىء الشراب ، ثم تجمعوا زمراً فوق أرائك البهو وكراسى الردهة ، يستمعون إلى الملحن الناشىء والمغنى الحدث محمد عبد الوهاب وهو يغنى بصوته الرخيم الخافت « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » . وكان شوقى آنس الله وحشته يؤثرنى بالرعاية ويخصنى بالحديث ، شأنك مع الصديق الجديد والزائر المحتشم .

وفى أصيل اليوم التالى بعث إلىّ بسيارته الفخمة تحملنى إلى داره . وكانت

الدار حين دخلتها ساكنة كالصومعة ، رهيبة كالمعبد ، فمن رآها ليلة أمس ثم رآها عصرية اليوم تذكر حال السكران الطافح ترنحه الخمر فيعربد ، ثم يهوده الخُمار[(١)] فينام .

كان شوقى جالساً فى ركن من أركان الشرفة ومعه على مائدة صغيرة حافظ وعبد المطلب وحفنى محمود . فلما أخذت موضعى من المجلس قال شوقى إنه دعانا على هذا الوضع من اختلاف السن والذوق والثقافة ، لنقرأ نونيته التى نظمها للمهرجان . وأخذ حافظ يقرأ القصيدة فنقف عند كل بيت ، ننظر فى سياقه وموسيقاه ، ثم نروّى فى معانيه وألفاظه ، فربما استبدلنا لفظاً بلفظ ، وآثرنا عبارة على عبارة ، وذوق الشاعر العبقرى من وراء أذواقنا جميعاً ينقد ويوازن ويختار ، حتى استوى القصيد على فنه الرفيع منضد اللفظ نقى المستشف . وأردنا بعد ذلك أن نسمع حافظاً ، برد الله بالرحمة ثراه ، فاعتل بعلة لا أذكرها . ولكنه رأى من خلال المناقشة تجانساً بين ذوقى وذوقه فسألنى أن أصحبه فى العودة : وفى قهوة بميدان الأوبرا كانت موضع ملهى (بديعة) اليوم ، جلست أنا وحافظ رأساً إلى رأس ، يقول فى شوقى وأسمع ، ويفتنّ فى النكات وأضحك ، حتى قال : سأنشدك قصيدتى لترى فيها رأيك . وأخذ شاعر النيل يقرأ لى عينيته المشهورة بصوته الفخم وإلقائه المعبر حتى فرغ منها . ثم نظر إلى نظر المستفهم المطمئن المعجَب ، فقلت له : هنيئاً لك التصفيق الحاد والاستعادة المتكررة يا حافظ ! قصيدة شوقى للقراءة وقصيدتك للسماع ، ومعانيه للخاصة ومعانيك للجمهور ! فقال فى لهجته الساخرة الفكهة : وهل يعنينى غير الجمهور ؟

توالى اللقاء بينى و بين شوقى بعد ذلك ، مرة فى داره ، ومراراً فى محل (صولت) .

---

(١) الخمار : صداع الخمر وأذاها .

وكان كلما أنشأ عبقرية من عبقرياته أقرأنى إياها. وذلك شأنه فى جميع أطوار عمره : يعرض مايقرض على الآذان المتباينة والأذهان المتفاوتة ليعلم موقعه من كل ذوق وأثره فى كل نفس. وكان أشدها مكن الألفة بينى وبينه مشابه فى الطبع من فرط الحياء، وحب العزلة، وقلة الكلام، والإنقباض فى الندىّ الحافل، والابتعاد عن الحفل الجامع ؛ فكأن كلا منا كان يرى فى الأخر عزاء عن نقصه وعوضاً من حرمانه.

كان شوقى يرى كأكثر الناس أن الرجل إذا لم يعمل فى الحكومة كان أشبه بالمتشرد. لذلك كان قلقاً علىّ من هذه الناحية ؛ فهو يستكبرنى على العمل الحر ويعجب ألا يكون لى مكان فى وزارة المعارف ! ثم أخذ يسعى من وراء علمى لدى وزير المعارف على الشمسى باشا ويمهد لى السبيل إلى لقائه. وفى ذات ليلة من لياليه قال لى ونحن فى ركن من أركان صولت : سأنتظرك غداً هنا فى الساعة الحادية عشرة، فتعال ومعك مجموعة من كتبك لنزور وزير المعارف. فقلت له : وما شأنى بوزير المعارف ؟ فقال إنه يود أن يراك. ولعل من الخير أن تراه. فلما دخلنا على الوزير فى الموعد الموقوت قدمنى وكتبى إليه، فسلم الرجل تسليم البشاشة، وشكر شكران الغبطة. وجرى فى حضرته حديث عنى استجاز شوقى فيه ما لا يجوز إلا للشاعر من المبالغة فى المدح والمجاملة فى الثناء. ولما خرجنا من عنده ربت على كتفى وقال وهو مبتهج : لقد وعدنى الوزير أن يضمك إلى الوزارة! فقلت له ولم أدهش لأنى حزرت ذلك من قبل : ألهذا جشمت نفسك يا سيدى ونفسى ؟ حدّ الله مابينى وبين الحكومة ! لقد حاول هذه المحاولة منذ أربع سنين طاهر باشا نور وعبد الفتاح باشا صبرى فجذبت عنانى من يديهما ومضيت. وأراد صديقى طه حسين وأستاذى لطفى السيد أن يدخلانى الجامعة منذ سنتين فلذت بالفرار بعد صدور القرار. أنا ياسيدى أستاذ فى الجامعة الأمريكية، مرتبى

ضخم ، ومكانى مرفوع ، ورأيى مسموع ، وحريتى مطلقة . فهل نافعى أن أدع الطريق الذى قطعت أكثره إلى طريق أبدأه من جديد ، وأن أعمد إلى رجلى الطليقتين فأضعهما فى قيد من حديد ؟

ولكن شوقى الصديق الشفيق لم يرضه هذا المنطق ، فظل مشفقاً علىَّ من العمل الحر حتى رحلت عن هذا البلد ، فودعنى راضياً وما كنت أدرى وا أسفاه أنه وداع الأبد !

# أسرة طيبة

( ٨ نوفبر سنة ١٩٤٨ )

كنا فى سنة ١٩٢٠ نسكن حى ( غمرة ) فى شمال القاهرة . وكان يسا كننا فى العمارة التى نحن فيها أسر مختلفة الجنس والدين والطبقة . تعيش كل أسرة منها فى انعزال عن الأخرى فلا يتلاقى الجيران إلا على السلم أو لدى الباب . وربما لقى الجار جاره فى بعض الطريق فلا يعرفه ، إلا إذا كان ممن يعلق شخصه بالذهن لسمةٍ تميزه من سائر الناس كحسن يخترق البصر ، أو قبح يسترعى النظر ، أو شذوذ يشغل البال . . . من هؤلاء الذين يدخلون فى هذا الاستثناء المعلم فهمى رزق أستاذ الدروس الخصوصية فى حى ( الظاهر ) ، ومدرس الدين والعربية فى مدرسة ( التوفيق القبطية ) ، فلا تجد أحداً من سكان العمارة ولا من قطان الحى ينكره إذا رآه ، أو لا يذكره إذا عرفه ! كان يسكن الشقة المقابلة لشقتنا ، وكانت هذه الشقة لا تفتح فى اليوم كله إلا أربع مرات : مرتين حين يغدو هو وأخوه الأصغر فى الصباح ؛ ومرتين حين يروحان فى المساء ، ثم لا يدرى غير الله أتغلق بعدهما على أم أو زوج أو أخت أو خادم . لا يستطيع بشر أن يعرف ذلك ، لا بالعين لأنه لا يرى إنساناً من نافذة ، ولا بالأذن لأنه لا يسمع صوتاً فى غرفة . أما الشذوذ الذى يغرى به الطرف ويجمع له البال فهو فى شكله العجيب : كان مفرط القصر واسع البطن دقيق الأطراف[1] ، أوقص العنق ، مخروط الوجه ، أخوص العين ، أكزم الأنف ، أهرت الشدقين ، غليظ الشارب والحاجبين . ومالى أطيل عليك الوصف ، وأنت تستطيع أن تخفف مؤونته على قلمى إذا تصورت كرة أرضية من الخشب أو من

---

(١) أطراف البدن : اليدان والرجلان والرأس . أوقص العنق : قصيره . ومخروط الوجه : طويله . وأهرت الشدقين : واسعهما . وأخوص العين : ضيقها ، وأكزم الأنف . قصيره .

غيره قطرها متران ، وضع فوق قطبها الأعلى وجه عليه طربوش ، وتحت قطبها الأسفل قدمان فيهما حذاء ، ثم تدلى من الجانب الأيمن ذراع قصيرة فى آخرها مذبة عاج ، ومن الجانب الأيسر ذراع أخرى فى طرفها جريدة ( الوطن ) ؛ ثم اكتسى الظهر جاكتة كحلاء ، واكتسى البطن والساقان بنطلوناً أبيض . فإذا تخيلت بعد ذلك الكرة تمشي فتدب فى البطء دبيب السلحفاة ، وتخطو فى السرعة خطو الأوزة ، اجتمعت فى ذهنك صورة مقاربة للمعلم فهمى . حينما رأيته لأول مرة يتدحرج هابطاً فى السلم . وكان قد علم من قبل أن جاره مدرس الأدب فى الإعدادية الثانوية ، وناقل آلام فرتر هذا العام إلى العربية . فلما أبصرنى صاعداً حيَّانى وعرّفنى بنفسه ؛ ثم سألنى أن يجلس إلىّ فى القهوة قليلا ليعرض علىّ مسائل فى الإعراب له فيها رأى . فقلت له : ولماذا نجلس فى القهوة وبين بيتى وبيتك خطوتان إذا شئت خطوتهما إليك فى أى وقت تحدده . فقال : أفضل أن أزورك فى عشية الغد .

وفى الجلسة الأولى جرى بينى وبينه حديث فى السياسة ونقاش فى النحو تبينت من خلالها أن الرجل طيب القلب ، وآفة الطيبة أنها تصاب أحيانا بالغفلة فتوقع صاحبها فى الزهو وتورطه فى الدعوى ؛ فهو يفخر بأنه خطأ قول الشنقيطى فى اللغة ، وزيف رأى اليازجى فى النقد ! ويدعى أن مصطفى باشا كامل يستشيره فى خطبه قبل أن تلقى ، وأن سعد باشا زغلول كان يسترشده فى بياناته قبل أن تنشر .

وفى الجلسات الأخرَ علمت أن الرجل لم يتم التعليم الابتدائى ، وأنه بحث عن مرتزق لا يضر فيه الجهل فلم يجد غير التعليم والصحافة ! فاختار التعليم فى المدارس الابتدائية ، وتخصص فى تدريس اللغة العربية ، فكان يعلمها مشاهرة فى المدرسة بجنيه ، وفى البيت بريال . ومن هذا المال اليسير ينفق على كسوته وقهوته

وسجائره ، ثم يعتمد فيما جاوز ذلك على مرتب أخيه ، وهو موظف بالابتدائية في وزارة المالية ، وعلى تدبير أخته ، وهي تخيط في بيتها لبعض البيوت التجارية. وهو وهذا الأخ وهذه الأخت هم الأقانيم الثلاثة التي تتألف منها هذه الأسرة المسيحية الطيبة ؛ فهمي هو الأب ، وشحاتة هو الإبن ، وعائدة هي روح القدس ! ثلاثة أرباب وثلاثة عبيد ، كل منهم لأخويه إله بالاحترام وعبد بالحب ، وثلاثتهم يعيشون على الإيثار والتضحية ؛ فالأخ الكبير قد نيف على الأربعين ولا يريد أن يتزوج لأن أخته لا تزال آنسة ؛ والأخ الصغير أربى على الخامسة والثلاثين ولا يبغى الزواج لأن أخاه لا يزال عزباً ؛ والأخت قد هدفت السادسة والعشرين وهي تدفع الخطاب عن يدها لأنها لا تحب أن تترك أخويها عزبين .

وكل أخ يؤثر أخويه على نفسه ؛ فالمعلم فهمي يحنو على عائدة وشحاتة حنو الوالد الحدب : يقوم عنهما بشؤون البيت مع الناس ، ويجلب لهما حاجة المطبخ من السوق ، ويقبل مُكرهاً أن يخصه أخواه ببعض المال لأنه بكر الأبوين ومظهر الأسرة .

وشحاته أفندي يؤدي مرتبه أول كل شهر إلى أخته فلا يأخذ منه إلا شهرية الحلاق . وماذا يصنع بالنقود ؟ إنه لا يركب الترام ، لأن له قدمين قويتين تحملانه إلى الديوان ثم إلى البيت . . وإنه لا يشترى الطعام ، لأنه يأخذ فطوره معه كل صباح : رغيفاً في منديل وطعمية في علبة ، أو ملوخية في قارورة . . . فإذا رجع من عمله ، تولى كنس الغرف ونفض الأثاث وغسل الآنية ؛ ثم يجلس بعد ذلك إلى أخته فيدير لها مكينة الخياطة ، أو يرفه عنها بأحاديث المدينة ، أو يذهب إلى التجار بالمخيط ليعود من عندهم بالقماش .

أما الآنسة عائدة فتشبل على العزبين إشبال الأم العطوف : تدبر لها المنزل

فتطهو وتغسل وتكوى ؛ وتدبر منهما الجسم فتقى وتُعالج وتمرِّض ؛ ثم لا تكلفهما بعد لباس البيت إلا فستانا بسيطاً كل عام تذهب به أيام الآحاد إلى القداس .

وكان مرض الواحد مرض الثلاثة ، إذا شكا أحدهم علة شكا الآخران ألمها معه . وقد حرص المعلم فهمى على أن يقيس حرارة أخويه إذا لحظ عليهما فتوراً أو سمع منها شكوى . وفى ذات ليلة من ليالى الشتاء طرق علىّ الباب فى أخريات الليل ، فانتبهت فزعاً وفتحت فإذا هو ينتفض انتفاض المحموم وينشج نشيج الطفل . فقلت له : خير ياصديقى ! ما الذى يبكيك ؟ فقال : أختى فى نزاع الروح ، وإن حرارتها ثلاث وأربعون درجة ؛ وقد بعثت أخى فى طلب الطبيب القريب ، فلما أخبره أن حرارتها ثلاث وأربعون درجة أغلق الباب فى وجهه وهو يصيح : إذهب يامجنون إلى الحانوتى ولا تضع وقتك !

قال المعلم فهمى هذا وهو يجذب يدى حتى دخل بى غرفة المريضة فوجدتها راقدة على سريرها العالى ، لحافها دائر على خصرها ، ويداها مشبوكتان على صدرها ، ونفَسها يتردد هادئا كنفَس الطفل ، ووجهها يشرق نديا كوجه الصبح . وكان على مقربة من سريرها منضدة عليها مصباح كبير من طراز المصابيح التى كانت تضاء بها الصواوين فى الأعراس والمآتم قبل أن تعم الكهرباء . فلما وقفت إلى جانب سريرها وجسست يدها ومسست جبينها وجدت حرارتها توشك أن تكون طبيعية ؛ ولكن أخاها أرانى مقياس الحرارة فوجدت زئبقه على الآخر . فنفضت المقياس ووضعته فى فم المريضة المستسلمة ثم قرأته فإذا هو سبع وثلاثون درجة ونصف درجة ! فلما نطقت بالرقم دبت الحياة فى عائدة ففتحت عينيها ، وعاد الهدوء إلى فهمى فكف دمعه ، وأخذ شحاتة الدهش ففغرفاه ، وسرى النشاط من الغرفة إلى سائر البيت فقفزت من تحت الكنبة أرنب ، وقاقت من فوق

المائدة دجاجة ، وتمطت من بين الفراش هرة . ولـكن المعلم فهمي أراد أن يتأكد مما قلت، فأخذ مقياس الحرارة وأدناه من المصباح لضعف بصره، ثم أخذ يقلبه وينظر، ثم يقلبه ، وينظر ، حتى مضى على المقياس دقيقتان بجانب المصباح المشتعل الوهاج، ثم اهتدى أخيراً إلى الزئبق الصاعد فإذا هو الآخر الطرف الأعلى من المقياس. فقال وهو يرتجف : أنظر ! هاهى ذى الدرجة ثلاثاً وأربعين ! فقلت له وأنا أبتسم إبتسامة عريضة : هذه ياصديقى درجة المصباح لادرجة المريضة ![1] .

* * *

أقلعت الحمى المزعومة عن جسد عائدة الرشيق الغض ، فشعرت شعور الفتاة الصحيحة بأن رجلا أجنبيا فى غرفتها فنهضت بحـكم الغريزة تتعهد مواضع احتشامها ، وتجمع بيدها ما تشعث من هندامها . ثم نظرت إلى بطرفها الساجى نظر المطمئن الشاكر .

فقلت لها : كيف تجدينك الآن يا آنسة ؟ فأجابت فى ابتسامة خجلة وصوت خريد : « أجدنى والحمد لله كأن لم يكن بى شىء . وإنّا لنعتذر إليك ياسيدى من إزعاجك فى مثل هذه الساعة . والحق أنى لا أعرف كيف جرى ذلك ! شـكوت أول الليل فترة فى جسدى لعلها مسّة من البرد ، فلما قاس أخى حرارة جسمى وقال إنها ثلاث وأربعون درجة اعتقدت أنى مشفية على الموت ؛ لأن فهمى لا يمزح فى مثل هذه الحال ، والمقياس لم يغشنا قبل هذه المرة . وحينئذ شعرت بدمى يفور ، وبنفَسى يتتابع ، وبنبضى يسرع ، وبروحى تذوب ، وبجسمى ينحل. ثم نزلت بى غشية الموت فرأيت ثلة من القديسين وفى أيديهم الأناجيل يرتلون من حولى آيات الغفران وأدعية الرحمة . فلما أوشك السراج أن ينطفىء سمعت

---

(١) كانت حرارة المصباح هى التى مددت الزئبق فارتفعت الدرجة لشدة قرب الميزان من المصباح ولطول مكثه على هذا الوضع .

قديساً من بينهم يقول ضاحكا : إن حالتها تـكاد تـكون طبيعية ، وإن حرارتها سبع وثلاثون درجة ونصف درجة ! ففتحت عينىّ فإذا بك واقف على سريرى وفى يدك المقياس . ثم فهمت من الحديث الذى جرى أن حرارة المصباح الشديدة هى التى رفعت الدرجة حين أدناه أخى من لهيبه وقلبه طويلا على حره . حينئذ فتر الدم الغالى ، وأبطأ النبض السريع ، وتماسك الروح القلق ، وخف الجسم الثقيل ، فنهضت أشـكر عائدى الـكريم وأعتذر إليه ، وجلست أطمئن بيتى المرتاع وأسرِّى عنه .

فقلت : نحمد الله على أن جعل مرضك وهماً لا حقيقة ، ونسأله ألا يصيبك المرض إلا بهذه الطريقة . ثم هممت بالانصراف ، فأقسم المعلم فهمى ألا أخرج حتى أشرب قدحاً من شاى شحاته ، أو كأساً من عرق ( عزّوز ) .

فقلت له وأنا أمكّن لنفسى فى الـكرسى المخلّع :

— لا بأس أن أبر يمينك بأخف الضررين . هات الشاى نشرب به على صحة الآنسة .

فذهب شحاته يطبخ شايه ، وسرعان مارجع خزيان يعتذر بأن زجاجة المصباح الأصغر قد تحطمت فى الفزعة التى سببها المصباح الأكبر .

فقلت لهم : وماذا يضطركم إلى الاستضاءة بالـكيروسين والعمارة كلها تستضىء بالـكهرباء ؟

فأجاب المعلم فى لهجة الأستاذ وهيئة العبقرى .

خلاف بينى وبين شركة النور على التأمين الذى تأخذه مقدماً من المشترك .. هى تريد أن ( أدفعه ) ، وأنا أريد أن أمنعه . ومعاذ الله أن أكون مغفلا كجميع مشتركيها فأنزل لها عن بعض مالى بغير حق . إن التأمين مال ميت . لأنك لا تستفيد منه مادام النور ، والنور لا تستغنى عنه مادامت الحياة . وقد تحدثت

فى ذلك إلى رئيس الوزارة فاقتنع ووعد بأن يطلب من الشركة إما أن تأخذ التأمين بأجر ، وإما أن تكتفى منه بالتأمين على استهلاك شهر .

ومنذ تلك الليلة تفتحت بيننا الأبواب وتكشفت دوننا الحجب ، فإذا أصبحنا تذاكرنا فصول النحو فى مكتب فهمى . وإذا أمسينا تناقلنا شهى الحديث فى مجلس عائدة . واتفقت لى مع الآنسة الطيبة خلوات أنست فيها النفس بالنفس ، واطمأن الضمير إلى الضمير ، فعلمت من دقائق نفسها أنها أحبت ، وأن حبيبها كان من أهل الرواء الباهر والثراء القليل . كان يعمل فى تقطير ( العرق ) وجلب ( الملوحة ) ويطمع منها فى صداق ضخم يوسع به معمله ، ويبنى عليه مستقبله ، وكانت هى ترجو أن تدبر له هذا الصداق من تجارة أبيها الرابحة فى القطن والزيت. ومضى على هذا الحب العنيف العفيف ثلاثة أعوام كانت فى خلالها تلقى فتاها فى إيابها من المدرسة ، أو فى ذهابها إلى الكنيسة ، فينضحان هواهما المكظوم المحروم بما تيسر من أناشيد الغزل وأحاديث المنى ، ويتشاوران فى مستقبل هذا الحب الجائش النامى : متى يعرف الأبوان . ومتى تعلن الخطبة ، ومتى ينعقد (الجبنيوت) ، ومتى يكون الزفاف ؟ وانتهى التشاور بينهما ذات يوم إلى أن يتقدم الخاطب فى الأحد القريب إلى أبويها فيطلب يدها ويعلن خطبتها . ومضت هى تهيىء سمع أمها إلى هذا الخبر ؛ وكانت الأم قد عرفت عن طريق غريزتها وأمومتها سر هذا الحب فلم تدهش حين صارحتها ابنتها به ، ووعدتها أن تظفرها فى وقت واحد برضا الأب وضخامة الصداق : ولكن أمها مرضت فى ذلك الأسبوع مرض الموت فتأجلت الخطبة . ولحق بها أبوها بعد عام فتجدد التأجيل . فلم يمل الخاطب الحبيب هذا الانتظار ، لأن حظ عائدة من الجمال يتسع له الصبر ، ونصيبها من تركة أبيها يستحيل منه العوض . ولكن تركة المرحوم تكشفت بفضل المضاربة فى البرصة عن دين فادح كان يستره بجمال المظهر وحسن السياسة ، فلم يجد بنوه شيئاً فى البنوك ولا فى الدفاتر . فخرج فهمى من المتجر وتبطل ، وانقطع شحاتة

عن المدرسة واشتغل ، واعتكفت عائدة فى بيتها عن الناس فلم تزر أحداً ولم تقبل أن يزورها أحد . ثم قصرت جهدها على أخويها وحبها على المسيح ؛ فهي تعمل طول الأسبوع فى البيت ولا تخرج إلا يوم الأحد إلى الكنيسة . ثم استعاضت عن عشرة الناس بعشرة الحيوان . فهى تربى الأرانب فى المطبخ ، وترعى الدجاج فى الصالة ، وتقتنى كلباً فى الغرفة ، وتصطحب هرة فى السرير . ولكنها منذ عرفتها وتألفتها نظفت البيت ونظمت الأثاث وجملت المنظر واكتفت من خلطائها العُجم بالكلب والهرة .

ثم تعاقبت السنون وتبدلت الأحوال فانتقلنا من حى إلى حى ، وتحولنا من ناس إلى ناس ، فانقطع علم ما بينى وبين هذه الأسرة الطيبة ، فلم أعد أرى فهمى البطين ، ولا شحاتة الأعجف ، ولا عائدة الرشيقة .

وفى يوم من عطلة عيد الأضحى الماضى كنت واقفاً أجيل النظر فى المعرض الزجاجى لمكتبة من مكاتب الفجالة ، فرأيت بجانبى رجلا أشمط الرأس معروق العظام يحمل قرطاساً من البلح الأمهات ويديم النظر إلى وفى عينيه استفهام وعلى شفتيه كلام . فلما حدقت ببصرى إليه عرفت فيه شحاتة أفندى ، فسلمت عليه بشوق ، وسألته عن أخويه بلهفة . فقال لى والأسى يقطر من وجهه ويظهر فى كلامه : قضى فهمى بالشلل ، وقضت عائدة بالسل ، وقضى الله أن أعيش بعدهما لأبكى عليهما وحدى ، ثم لا أجد من يبكى عليهما ولا علىّ بعدى !

فشجعته ثم ودعته ؛ وانصرفت وفى نفسى أن أحيى ذكرى هذه الأسرة الطيبة بهذه الكلمة فى « الرسالة » .

# أسرة منبوذة

( ١٣ ديسمبر سنة ١٩٤٨ )

جمعني مجلس من مجالس المنصورة الأدبية ببعض السيدات الحديثات من اللائى يتزعمن دعوات الخير ، ويتصدرن حفلات التكريم ، ويغشين أندية الرياضة . وكان مجلسي من الصالون بين سيدتين رشيقتين أنيقتين لهما اطلاع على الأدب ومشاركة فى الثقافة . فجرى الحديث بينهما وبينى أول الكلام فيما يشغل الناس عن أمر فلسطين ومصير اللاجئين ؛ ثم أفضى إلى ذكر ما تبذلان من الجهد الجاهد فى معونة الهلال الأحمر ومبرة محمد على ، فلم سياق حديثهما وما شاب أداءه من نبرات الزهو وحركات العُجب على ما تضمران من حب الظهور ورغبة الشهرة ، فى طوايا ما تظهران من حب الخير ورغبة المنفعة . والمرأة الجميلة الغنية لا تجد فى الحياة المصرية مظهراً لفتنتها ، ولا معرضاً لزينتها ، ولا سبيلا لشهرتها ، إلا فى الحفلات الخيرية والخدمات العامة . فهى تشترك فيها بالشعور والحضور لتظهر ، وتتبرع لها بالجمال والمال لتُذكر ! بله ما تشعر به من الرضا والغبطة بمنافستها للرجل فى ميدان عمله ، ومساعدتها للوطن على تحقيق أمله .

انتقلنا إلى حديث الأدب فذكّرتنى إحداهما بما كتبته فى الرسالة عن ( مثل المصرية الحديثة ) فشكرت بعضه وأنكرت بعضه . وكان الذى أنكرته ما يرمى إلى تقييد المرأة وقصر كفايتها على تربية الطفل وتدبير البيت ومعاونة الرجل . ثم مضت تنوه بما يكون المرأة الحرة المستقلة من أثر فى الأسرة وبلاء فى المجتمع إذا شاء الرجال أن يفردوها بشؤون البيت ويشركوها فى أمور الوطن . وفى اللحظة التى كانت تقول فيها : « إن المرأة روح الأمة والرجل جسمها ؛

وإن الزوجة رأى الأسرة والزوج عزمها ، طغى على صوتها الحماسى صوت سيدة نَصَف كانت تتحدث فى تأثر وامتعاض إلى هلال[1] من عقائل المدينة فيهن ربة الدار ؛ فأصاختا وأصاخ الجلوس فإذا هى تروى حادث الطلاق الذى وقع فى الأيام الأخيرة بين فتى محافظ أبوه من نبلاء الريف ، وبين فتاة حرة أبوها من أطباء المدينة . وكان سبب هذا الطلاق الذى أعقب الزواج أن العروس كانت مغرقة فى التحرر ، مسرفة فى التجدد ، فسمت بنفسها على أسرة العريس ، ورمت حماها بالرجعية وحماتها بالأمية ، وطلبت أن تسيطر على أرزاق البيت وعلى أهله ، فتبدل أثاث الغرف كل سنة ، وتغير زى النساء كل شهر ، وتقيم حفلة استقبال كل أسبوع . ثم اقترحت أن يزال الجدار الحاجز بين البهو والردهة ليكون منهما مرقص متى أريد الرقص ، ومقصف متى أريد القصف ؛ وأن يُقلع الشجر المثمر فى الحديقة لينشأ على مكانه ملعب للتنس وحوض للسباحة . وكان المطلب الأخير ألا يدخل البيت ريفيون من أقارب الزوج ولا فلاحون من رجال العزبة . فلم يستطع الزوج معها صبراً ، ولم يجد أبوه لترويضها حيلة ، فكان الفراق وكانت الفضيحة !

فلما سمعت جارتاى الخبر وكانتا على علم به من قبل ، قالتا بلسان واحد : « المودرنة للمودِرن ، والقديمة للقديم ! والمخطىء هو الذى ينزل فى غير أهله ، ويقع على غير شكله ! »

ثم تركت القوم يعلقون على الحادث والحديث بما يشاءون ، وانتقلنا إلى مائدة الشاى ثم عدنا حيث كنا . وعادت جارتى اليسرى إلى حديث التقيد والانطلاق ، وكانت جارتى الأخرى قد فتحت محفظتها وأخرجت منها قلم (الروج)

---

(١) جماعة يجلسن على هيئة الهلال .

أو الإصبع الأحمر ، وأخذت تجدد به صبغة شفتيها ، ثم أعادته وأخرجت سيكارة إنجليزية وأشعلتها ، وقطعت صاحبتها الحديث وفعلت فعلتها . ثم لحظتا بعض الهنوات على زينة المدعوات وأزيائهن ، وتبادلتا بعض الغمزات على كلام المتحدثات وآرائهن . ثم أقبلتا عليّ تستأنفان ما كنا نخوض فيه من الحديث فوجدتاني شارد اللب مطرق الرأس مطبق الجفنين كأنما أخذتني فترة النعاس ، فقالتا لي : ماذا عراك ؟ فقلت لهما : ذكرى بعثها في الخاطر هذا الأحمر على شفتيكما وخديكما ! فقالتا : أنعم بذكرى تظفرنا منك بحديث ، وتمتعنا بلذة الموازنة بين القديم والحديث !

نعم ياسيدتيّ أذكر أني كنت وأنا صبي أمر في طريقي إلى الكتاب بمنزل المعلم يوسف النجار فأجده كل صباح جالساً تحت جداره ، في يمناه قدومه وفي يسراه يد فأس يسويها ، أو بسخة محراث يقويها ، أو ورش طنبور يجدده ؛ وأصحاب هذه الأدوات من شباب القرية قيام من حوله أو قعود ينتظر كل منهم دوره ليقدم آلته أو ليسأل حاجته . وكان مظهر النجار المرح ومنظر حلقته الصاخبة يغريان صبيان الكتاب بالوقوف ، فيقفون ليسمعوا هذا يستحثه بالسب لأنه عوّقه عن الحولي وذاك يبادره بالعتب لأنه غشه في خشب الزّحافة ، وذلك يركبه بالدعابة لأنه غبنه في ثمن النورج ؛ ثم ليروا المعلم يوسف مكباً على عمله ، ووجهه متهلل بالضحك ولسانه متحرك بالمزاح ، يجزي على السباب بالنكتة اللاذعة ، ويحتج على العتاب بالحجة البارعة ، ويرد على الدعابة بالسخرية المرة . حتى إذا انصرف الفلاحون إلى حقولهم ، انصرف هو إلى دورهم ، فتسأله هذه إصلاح المطرحة ، وتسأله تلك تثبيت الباب ؛ وهو يجيب كل طلب بابتسام ، ويؤدي كل عمل باهتمام ؛ لأنه يقوم لأهل القرية جميعاً بنجارة البيت والغيط مسانهة ، فيأخذ من كل أسرة كيلتين في موسم القمح وكيلتين في موسم الذرة . ومن هذه الجباية السنوية تجتمع له ثروة

من الحب تظهر بركتها في عيشه الرضىّ وباله الرخى وزيله الجميل . واستبد النجار الوحيد بخير البلد وارتفع به الغنى إلى طبقة أعيانه . ونظر يوسف في أمره فلم يجد في نفسه حاجة يتمناها على الله غير زوجة تكون لعُشه الخالى سكينة وزينة . والتمسها فى فتيات القرية فلم ينلها ، لأن الفقيرة أقل مما يبغى ، والغنية أكثر مما يستطيع . فأشارت عليه أمه العجوز أن يتزوج من قرية أخواله وهى على بعد كيلين من قريته . فدله نصيبه على فتاة رأيناها بعد زفافها عليه ودخوله بها فإذا منظرها يملأ العين ويشغل الفؤاد : جسم بض ممتلىء يكاد الثوب من ريِّه يلتصق به ؛ وقوام سبط معتدل بتثنى تثنى الغصن الأملد ؛ ووجه مشرق اللون كأن على كل صفحة من صفحتيه وردة جورية أو تفاحة أمريكية ؛ وساعدان عبلان يحليهما من الرسغين إلى المرفقين أساور من الزجاج الأحمر المذهب ؛ ويدان رخصتان تزينهما أسطار من الوشم الأخضر المنمنم ؛ وهندام مدنى جرىء ظل حديث الدور والمصاطب مدة طويلة !

كثر الفضول حول دار النجار ، فكل امرأة تريد أن ترى ، وكل رجل يحب أن يسمع . ومضت الأيام ومال بعض الجارات على بعض يقلن وهن يملأن جرارهن من النهر . إن لامرأة المعلم يوسف لونا حين يتنفس الصبح ، ولونا حين يمتع الضحى . لونها فى طلعة الشمس أسمر حائل ، ولونها فى ميعة النهار أزهر مشبوب !

ثم مضت الأيام وقالت جارة لصواحبها وهن يحملن الحطب إلى البيوت : لقد رأيت بعيني محمدا العطار يقف على باب النجار ويعطى زوجه شيئا فى السر، فأخذته مسرعة وهى تتلفت ، وغيبته فى ثوبها وهى تهمس . ومحمد العطار هذا بائع جوال يتنقل بحماره وخُرجه بين القرى المتجاورة ، فيبيع اللبان اللدن والصابون الممسّك والمناديل المزركشة والغوائش الملونة وسلعا أخرى تتصل بالزينة

والتجميل يسارُّ بها النساء ، فينفرن منها ويطول حديثهن عنها .

ثم مضت الأيام وجاءت جارة أخرى تعرض على جاراتها وهن يخبزن رُغفانهن فى الفرن المشترك ، حُقه صغيرة من الصفيح الأخضر على غطائها المستدير مرآة ، وفى جوفها الفارغ آثار من صبغ أحمر . وتقول إنها التقطت هذه الحقة خفية من دار النجار ، وهى تؤكد أن هذا الأحمر هو ( حسُن يوسف ) الذى طالما أغراهن به العطار ؛ وترجح أن هذه المرأة الفاجرة تصبغ به وجهها . ولا يجرؤ على تغيير خلقة الله إلا الغوازى فى القرى وبنات الهوى فى المدن . ولا بد أن تكون هى من هؤلاء أو من أولئك .

وانتشر الخبر فى القرية انتشار الظلام ، فلم يبق من لا يعرف أن زوجة المعلم يوسف تستعمل حُسن يوسف .

ثم مضت الأيام وغدوتُ ذات صباح إلى الكتاب ومررت فى طريقى إليه بدار النجار فإذا الحال غير الحال والمنظر غير المنظر : تقوض المجلس وأقفر المكان ، فلا الرجل قاعد تحت جداره ينجرُ ، ولا الجمع حاشد من حوله ينتظر ! وأسأل نفسى وأسأل الصبيان : ماذا صنع الدهر بالمعلم يوسف ؟ لم يعدُ رجل يستأجره لعمل ، ولم تعد امرأة تزوره فى حاجة ! فيقولون لقد قاطعه القريب وتحاماه البعيد ، لأنه تزوج من الخبيزة ! والخبيزة كما علمت من بعد اسم يطلقه أهل المنصورة وضواحيها على المواخير . وللمواخير الفسق ما لحارات اليهود من تعدد الأسماء فى مختلف الأنحاء على مسماها القذر الواحد !

وطال احتباس الرجل فى بيته وتعطله من عمله حتى صدىء قدومه ومنشاره ، وبيع فى الدين متاعه وعقاره . فاقترحت عليه أمه أن يطلق زوجه إبقاء على سمعته وصحته وصنعته . فقال لها فى إباء وألم : وما ذنب هذه المسكينة يا أماه ، وإنك لتعلمين كما أعلم أنها طاهرة الثوب قاصرة الطرف ، وإنما جنى عليها هذه

الجناية تقليدها البرىء لابنة عمها المتزوجة فى القاهرة . وقد حرمت على نفسها منذ أن شاع ماشاع أن تتزين حتى بالزجاج ، وأن تتجمل حتى بالكحل . والرأى عندى أن نهاجر تحت الليل إلى عزبة من العزب المنشأة فى أطراف باقاس فنستأنف هناك حياة جديدة ، وعسى الله أن يجعلها بفضل براءتنا واستكانتنا موفقة سعيدة .

وأصبح الناس فإذا دار النجار مفتوحة بعد أن ظل بابها مغلقاً أثناء الأنهار سنة وشهرين لم يدخل منه داخل ولم يخرج منه خارج . فنفذ المارّون بأبصارهم إلى دهليزها فلم يلحظوا حركة تبدو ، ولم يسمعوا صوتاً ينبعث . فتسللوا إليها حذرين مستطلعين فلم يجدوا وا أسفاه إلا رَبعاً أوحش بعد أنس ، وروضاً صوح بعد بهجة ، وشملا تبدد بعد اجتماع .

ثم مضت الأيام وتعاقبت الأعوام وفعل الزمن فعله فى العقول والميول فأصبحنا فإذا الرجل هو الذى يشترى الأحمر لزوجته لتصبغ ، ويخلع المعطف عن ظهر أمه لتعرْى ، ويشعل السيكارة لأخته لتدخن ، ويقدم المراقص إلى ابنته لترقص !

ما أقربنا من ذلك الزمن وما أبعدنا عن تلك الحياة ! كان الولد يشب ثم يتزوج ثم يولد له ، ويبتليه الله بالتدخين فلا يستطيع أن يعلن ذلك لأبيه ، ولا يجرؤ على أن يدخن فى حضرة من يكبره . وكان الإخوة لأب وأم يعيشون فى دار واحدة ثم لا يرى أحدهم زوجة الآخر . وكانت المخدَّرة إذا سهَّلت من حجابها ، أو تبرجت بين أترابها ، انتفت منها العشيرة وتحامتها الجيرة . ثم أمسينا فإذا المرأة هى التى تدبر الأمر وتسير العرف وتحجب الرجل : وإن مجلسى منكما هذا المجلس ، وظهور كما علىَّ هذا الظهور ، لشاهدان على هذه الحال !

فقالت جارتاى بلسان أوشك أن يكون واحدا فى لفظه : تلك سنة الحياة يا أستاذ ! قدمٌ ينسخه تجدد ، وتأخر يدفعه تقدم ، ورق يخلفه تحرر ! فقلت لهما

إن ألفاظ التجدد والتقدم والتحرر كألفاظ الحق والعدل والاستقلال ، لها في كل ذهن معنى ، وفي كل نظام صورة ، وفي كل أمة دلالة . لقد تقدمنا في التعليم ولم نتقدم في التربية ، وجددنا في الصورة ولم نجدد في الفكرة ، وتحررنا من السوط ولم نتحرر من الهوى ! وهنا سحبت جارتي اليسرى من محفظتها سيكارة أخرى ، ثم بحثت عن علبة الثقاب فلم تجدها ، فاضطررت إلى أن أقطع الحديث وأدور بين الجماعة ، لألتمس لها من بعضهم ثقابا أو ولاعة !

# الإسلام دين القوة

( ٣ يناير سنة ١٩٤٩ )

الإسلام دين القوة ؛ وهل فى ذلك شك ؟

شارعه الجبّار ذو القوة المتين ؛ ومبلغه محمدٌ الصبّار ذو العزيمة الأمين ؛ وكتابه هو القرآن الذى تحدى كل إنسان وأعجز ؛ ولسانه هو العربى الذى أخرس كل لسان وأبان ؛ وقواده الخالديون[1] هم الذين أخضعوا لسيوفهم رقاب كسرى وقيصر ؛ وخلفاؤه العمريون[2] هم الذين رفعوا عروشهم على نواصى الشرق والغرب . فمن لم يكن قوى البأس ، قوى النفس ، قوى الإرادة ، قوى العدة ، كان مسلماً من غير إسلام ، وعربياً من غير عروبة !

الإسلام قوة فى الرأس ، وقوة فى اللسان ، وقوة فى اليد ، وقوة فى الروح .

هو قوة فى الرأس لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة ، وتصحيح الشرع بالدليل ، وتوسيع النص بالرأى ، وتعميق الإيمان بالتفكير .

وهو قوة فى اللسان لأن البلاغة هى معجزته وأداته . والبلاغة قوة فى الفكرة ، وقوة فى العاطفة ، وقوة فى العبارة .

وهو قوة فى اليد لأن موحَيه — وهو الحكيم الخبير — قد علم أن العقل بسلطانه واللسان ببيانه لا يغنيان عن الحق شيئاً إذا ما أظلم الحس وتحكمت النفس وعميت البصيرة ، فجعل من قوة العضل ذائداً عن كلمته وداعياً إلى حقه ومنفذاً لحكمه ومؤيداً لشرعه . كتب على المسلمين القتال فى سبيل دينهم ودينه ؛ وفرض عليهم إعدادَ القوة والخيل إرهاباً لعدوهم وعدوه ؛ وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله . ولكن القوة التى يأمر بها الإسلام هى قوة الحكمة والرحمة

(١) نسبة إلى خالد بن الوليد .　　(٢) نسبة إلى عمر بن الخطاب .

والعدل ، لاقوة السفه والقسوة والجور ؛ فهى قوة مزدوجة ، أوقوة فيها قوتان: قوة تهاجم البغى والعدوان فى الناس ، وقوة تدافع الأثرة والطغيان فى النفس .

والإسلام بعد ذلك قوة فى الروح لأنه يمحص جوهرها بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل .

وأنت إذا عرضت على الفكر السليم الحكيم مرامى العقيدة الإسلامية ، وجدتها كلها تتجه إلى القوة : أو إلى ما تحصل به القوة . فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء ، وطهارة روحية بالذكر ، ورياضة بدنية بالحركة . والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق ، وتنمية للمال بالتطهير ، وتمكين المجتمع بالتعاون . والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف ، وقوة سياسية بالتشاور والتحالف ، وقوة اقتصادية بالبياعات والتسوق . وإن أشد ما تجتمع به القوة وتتسق عليه الحال هو الوحدة والجماعة ، وهما لباب الدعوة الإسلامية . فالوحدة هى الأساس الذى حمل ، والجماعة هى الصرح الذى قام . كانت الوحدة هى الأساس لأنها توحيد لله بعد إشراك ، وتوحيد للعرب بعد شتات ، وتوحيدٌ للرأى بعد تفرق ، وتوحيد للغة بعد تبلبل ، وتوحيدٌ للقبلة بعد تدابر . وكانت الجماعة هى الصرح لأنها جُمعة القلوب التى ألف بينها الله ، وجملة الشعوب التى رفع شأنها محمد . ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة ، فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يقتل ، والطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين تقاتَل . والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة . وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم ؛ ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم فى أداء الحج مرة — على الأقل — فى كل عمر .

على ذلك كان إسلام محمد وأبى بكر وعمر . وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد وعمرو . كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق والسيف

للباطل . وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة ، حتى بلغوا من القوة أن فعل كتاب الرشيد ما يفعل الجيش ،(١) وبلغوا من المروءة أن سيّر المعتصم جيشاً لإنقاذ امرأة(٢) . فلما شتت الوحدة ، وتفرقت الجماعة ، وصارت سيوف المسلمين خُشُباً يحملها خطباؤهم على المنابر ، ومصاحفهم تمائم يعلقها مرضاهم على الصدور ، أصبحت دولهم تبعاً لكل غالب ، وتراثهم نهباً لكل غاصب ؛ وبلغوا من التخاذل والفشل أن الأندلسيين يجليهم النصارى عن أقطارهم بالأمس فلم يجدوا الرشيد ، وأن الفلسطينيين يشردهم اليهود عن ديارهم اليوم فلا يجدون المعتصم !

إن مسلمى هذا الزمن الأخير صاروا من جهلهم بالدين وعجزهم فى الدنيا على أخلاق العبيد ، يُطأطأ إشرافهم فلا يفدى لهم جبين ، وتُنقص أطرافهم فلا يَحمى لهم أنف ، وتنزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير عليهم العدو فيتوا كلون تواكل الأخوة دبّ فيهم الحسد . وتجمعهم الخطوب فيفرقهم الطمع والهوى ، ويلجأون إلى جماعة الدول المتحدة فيخذلهم العدو والصديق ! كأن الإسلام الذى كان عامل قوة وائتلاف ، قد انقلب اليوم علة ضعف واختلاف ! وكأن الذين كنا نقول لهم بلسان الجهاد : أسلِموا تسلموا ، يقولون لنا بلسان الاضطهاد : تنَصَّروا تنْصروا ! ولكن الإسلام دين الله لا يغيره الزمن ، ولا تجافيه الطبيعة ، ولا يعاديه العلم ، ولا تنسخه المذاهب ؛ وإنما المسلمون اليوم هم أعقاب أمم وعكارة أجناس وبقايا نظم ورواسب حضارات وربائب جهالات وطرائد ذل ، ففسدت مبادىء الإسلام فى نفوسهم المشوبة كما يفسد الشراب الخالص فى الإناء القذِر .

إن جامعة الدول العربية كانت تعبيراً جميلاً لحلم ساور النفوس الطيبة حقبة

---

(١) إشارة إلى كتاب الرشيد إلى نيقفور امبراطور الروم .

(٢) إشارة إلى فتح المعتصم لعمورية .

من الزمن . ولكن الحلم قد يقع ولا يقع ، والتعبير قد يصدق ولا يصدق . ولو كان ميثاق هذه الجامعة قبساً من نور الله وهدياً من سنة الرسول لما رأيناها في نكبة فلسطين تعد ولا تنجز ، وتقول ولا تفعل ، ولو ظل أمرها قائماً على الخطب الحماسية والوعود المغرية والتصريحات البليغة والاجتماعات المتعاقبة ، لظلت في نفوس العرب والمسلمين مناط الثقة ومعقد الرجاء ومثابة الأمن ؛ ولكن طالعها السيء ابتلاها وهي لا تزال في زهو النشأة وصفو المآدب بحرب الصهيونية المهينة ، فتحمست الدول السبع ، وسيّرت كتائبها المظفرة إلى عصابات اليهود في فورة من الأناشيد والخطب . فلما صار الأمر جداً والكلام فعلاً وقفوا على أطراف الميادين وقفة الحائر القلق : هذا يتجه إلى بريطانيا وفي يده التاج الناقص ؛ وذاك يلتفت إلى أمريكا وفي كفه العقد المبرم ؛ والآخرون يتهيبون الأمر وينتظرون في ظلال الهدنة المفروضة ما تلده الأحداث ويقرره مجلس الأمن !

وليس من هؤلاء الآخرين المنتظرين والحمد لله مصر ؛ فقد قضت عليها حمايتها للاسلام ورعايتها للعروبة وأمانتها للجامعة أن تقف وحدها في الميدان الغادر تكافح في صدق وصبر جيوش اليهود وقواد الروس وأسلحة الأمريكان ومكر الإنجليز ؛ ثم لا تتلقى من أخواتها الشقيقات إلا هتافاً كهتاف الحمام وحناناً كحنان الأوز : بروق باسمة من غير غيث ، وصكوك ضخمة من غير رصيد !

لقد تكشفت مأساة فلسطين — واسوأتاه — عن قلوب شتّى ووجوه متعارضة . والإسلام — كما رأيت — وحدة وجماعة . فمن فصم العروة بعد توثيقها ، ونقض اليمين بعد توكيدها ، وفرق الكلمة بعد توحيدها ، فهو مسلم من غير إيمان وعربي من غير شرف ، وإنسان من غير ضمير .

# قروية فيلسوفة

( ٣١ يناير سنة ١٩٤٩ )

لا ياصديقى ! لا أريد أن تَبيضّ صحيفتى ![1]

كان العشاق لا يطيقون الرقيب وله عين ، فكيف يطيقونه اليوم وله عين ولسان ، وقلم وسلطان ؟ دعنا من حديث شرق الأردن والعراق والجامعة ، وتعال أحدثك حديثاً رفيقاً رقيقاً ، إن خلا من الفائدة فلا يخلو من اللذة ، وإن بعد عما يشغل الناس فلا يبعد عما يشغل النفس :

أم عامر قروية شيخة ، تعد الستين من عمرها فى سرها ، ولكنها كسائر النساء لا تجاوز الثلاثين منه فى جهرها . وهى فى سبيل التدليل على استحارة شبابها واكتمال قواها تتحامل على نفسها ، فتحلب الجاموسة ، وتملأ الزير ، وتخبز الفطير ، وتكنس الدار ، وتكسح الزريبة ، وتعلف الماشية ، وتطهو الطبيخ ، وتعلق فى عنقها مفاتح الحبوب والنقود واللبن والكرار ، فلا يستطيع أحد من أولادها وحفدتها أن يصل إلى شىء من أولئك إلا عن يدها . فإذا أشفقت عليها كَنَّتاها[2] ورغبتا فى أن تعيناها على شأن من شؤون المنزل ، قالت لهما فى كبرياء وأنفة : أنا لا أزال صبية مثلكما ! عليكما الغيط ، وعلىّ البيت ! والحق أن السيدة أم عامر قروية ذكية : تمرست بالشدائد فازدادت مِرَّة[3] ، وتصرفت فى الأمور فاكتسبت خبرة ، واضطربت فى المعاش على هوى الزمن القلّب فتعلمت بالتجربة ، وتفلسفت بالسليقة ؛ فكلامها حِكم وحديثها أمثال ورأيها حجة . ومن أجل ذلك تميزت شخصيتها فى المجتمع

---

(١) إشارة إلى ما كان يقترفه ( رقيب المطبوعات ) يومئذ من حذف ما لا يروقه من المقالات فى الصحف والمجلات فيظهر بعض الصفحات بيضاء

(٢) الكنة : زوجة الابن (٣) المرة : القوة .

الريفى فأصبحت كالعرافة فى العهد القديم ؛ تستخيرها كل امرأة ، وتستشيرها كل أسرة . وهى إلى ذلك طويلة الأنف تدسه فى كل منزل ، شرفاء[١] الأذن ترهفها إلى كل مجلس ، فلا يقع فى العزبة حادث أو حديث إلا كان عندها علمه ومن لدنها ذيوعه .

رأيتها صباح يوم من أيام ديسمبر جالسة فى الجرن تنزع الأغلفة عن أمطار الذرة المندّاة ، وحفيدها الصغير نائم على كتفها ، وكلبها الأبقع رابض بقربها ، وحمائم البرج القريب ينتهزن غفلتها النادرة فيقعن من وراء ظهرها على جانب المفرش يقتلعن الحب من قوالحه . وكان الفلاحون ونساؤهم قد خرجوا إلى الحقول ، صغارهم ليسيموا[٢] الأنعام فى البرسيم الغض ، وكبارهم ليطهروا المصارف من الغرين الراسب ، فلم يبق فى الضيعة إلا عجوز تستدفىء بالشمس ، أو طفلة تلعب فى الطين ، أو دجاجة تبحث فى الأرض . فأغرانى هدوء المكان ودفء الجو وما سمعته عن حال العجوز ، على أن أذهب إليها . فحييتها ، ثم جلست إزاءها على أعواد الذرة اليابسة وسألتها : كيف حالك ياأم عامر ؟ فأجابت العجوز بلهجة تنم على الرضا والغبطة : حالى خير حال والحمد لله ! العيش مخبوز ، والماء فى الكوز . فماذا أبغى فوق ذلك ؟ فقلت لها : وهل يقنع ابن آدم ؟ تبغين الأرض المملوكة ، والدار المشيدة ، والثوب الحرير ، والمركب الفاره ، واللحم فى كل وجبة ! فقالت وهى تضحك : هبنى ياسيدى أصبحت ( بدراوية ) ، عندى الآلاف من الحقول ، والمئات من العجول ، والقناطير من الذهب ، والصناديق من الحلى ، والدواليب من الثياب ، فهل أنال من كل أولئك غير ملء الجوف وستر الجسم؟ إن الحلاوة التى تجدها فى قالب السكر الصغير ، هى بعينها الحلاوة التى تجدها فى قمع السكر الكبير . وإن اللذة التى تذوقها فى رطل اللحم الذى تشتريه ، هى نفسها

(١) أذن شرفاء : طويلة (٢) سام الماشية : رعاها .

اللذة التى يتذوقها ( البدراوى ) فى الخروف الذى يذبحه وإن الدائرة الضيقة التى أضطرب فيها أنا وعيالى تجمع من متاع النفس والجسم ماتجمعه الدائرة الوسيعة التى يركض فيها الباشا هو وأهله . فالمسألة إذن مسألة قلة وكثرة ، لا مسألة نعيم وبؤس . وما دام القليل يكفيك من الكثير ، والصغير يغنيك عن الكبير ، فإن فضول العيش شغل وهمّ وفتنة . اسمع أقص عليك من بعض أمرى ما يثبت فؤاد القانع ، ويغير اعتقاد الطامع .

قالت أم عامر — والمعنى لها واللفظ لى — : نشأت كما تنشأ القرويات الفقيرات على التلول كالكلاب وأنا طفلة ، وبين الحقول كالذئاب وأنا صبية . آكل الجشب[1] وأستمرئه ، وأشرب الكدر وأستسيغه ، وألبس الخشن وأستلينه ، وأفترش المدَر[2] وأستوطئه ، وأعالج الصعب وأستسهله . والذى أحلى المر فى فمى ، وجمل القبيح فى عينى ، وألان الغليظ الجانبى ، صحة كصحة الظبى الشادن[3] لم تجنح يوماً لراحة ولم تحتج أبداً إلى دواء ؛ ومرانة على عنف الطبيعة لا تفرّق طاقتها بين صبح ومساء ، ولا بين صيف وشتاء ؛ ونفس راضية تقنع بميسور العيش وتخضع لمكتوب القضاء .. فأنا أشارك أمى فى عمل البيت ولا تستثن غير الكانون ، وأعاون أبى فى شغل الغيط ولا تستثن غير المحراث . وفى الفترات القصيره القليلة بين عمل وعمل ، يجدوننى فى الحارات أمرح أو فى القنوات أصيد .

أذكر أنى كنت ذات يوم جالسة على حافة الجدول المنساب أتغذى أنا وأختى الصغيرة على خوان من النجيل ، فرأيت ابنة الباشا مالك الأرض وسيد الناس مقبلة يقدُمها كلبها الذئبى الضخم ، ويتبعها خادمها النوبى النحيل ، وفى يدها صنارة تطويها على قصبتها وتنشرها ، وابنة الباشا صبية لا تجاوز العاشرة ، فهى فى مثل سنى تقيم طول عامها فى المدرسة بالقاهرة ، فلا تُلمّ بالريف إلا أياماً فى أوائل الخريف .

---

(١) الطعام الجشب : الغليظ الخشن .
(٢) المدر قطع الطين اليابس « الطوب »
(٣) الظبى الشادن : القوى المترعرع

أقبلتْ حتى وقفت بإزائى وحيَّت ، ثم ألقت صنارتها فى الماء وجعلت تنظر إليها وتنظر إلىَّ ... فدعوتها إلى الطعام على عادتنا ، فشكرت واعتذرت ثم قالت وهى تبتسم :

أتأكلين الحشيش ؟

فقلت لها ليس هذا حشيشاً ، وإنما هو بقلة من أحرار البقول[1] نسميها السريس ، وأنا آكله ليخفف من ملوحة المش ويكسر من حرارة البصل .

فقالت وهى تمط شفتيها الرقيقتين . ولكن اللحم خير منه !

فقلت لها : نعم ، اللحم خير منه ؛ ولكن موسمه لم يحن بعد .

فنظرت إلى نظرة المتعجب المهتم وقالت :

موسمه ! وهل للحم موسم ؟

فأجبتها : نعم ، إن للحم مواسم خمسة لا نأكله إلا فيها : نصف شعبان ، وأول رمضان ، والعيد الصغير ، والعيد الكبير ، وليلة عاشوراء .

فقالت وماذا تأكلون بقية العام ؟ .

فقلت : نأكل الحبوب والبقول واللبن الرائب والجبن الأريش والمش المعتق . . فبدت على قسماتها الجميلة مخايل الشك فى قولى ، وهمت أن تقول شيئاً لولا أن رأت غماز الصنارة يغطس ويعوم فشغلت به ، وجذبت الصنارة من الماء ، فإذا بها قد علقت بشبارة حجم كفها الصغيرة ، فاستطارها الفرح وهزها النجاح ، وأخرجت الصنارة من فم السمكة المضطربة وناولتها الخادم . وأرادت أن تطعمها فلم تجد طعماً ، فسألتنى من أين يأتون بالثعابين الصغيرة التى تقدم إلى السمك بالصنارة ؟ فقلت لها وقد فهمت أنها تريد تلك الديدان الطويلة الحمر التى تعيش فى الطين : أنا آتيك ببعضها : ثم حفرت بجانب القناة وأخرجت لها من باطن الحفرة قطعة من الطين

(١) أحرار البقول ما يؤكل منها غير مطبوخ كالخس .

وأريتها كيف يجول فى أحضانها الدود ، فابتهجت لذلك ابتهاجاً شديداً . ومن ذلك اليوم وصلنى بها سبب من الأنس والعطف ، فـكانت كلما زارت القرية افتقدتنى وطلبتنى ، فيرسلنى إليها أهلى فخورين مسرورين ، فألقاها فى حديقة القصر ، أو فى ساحة الجرن ، فنعدو على مخضوضر النبات ، أو نرتجح على فروع الشجر ، أو نصطاد على حوافى الماء ، أو نستبق على ظهور الحُمُر ، أو نتهادى على مماشى الحقول ، وقدرتى على كل أولئك فوق قدرتها ، وكلمى أعلى من كلمتها . فأنا أشأوها فى العدْو ، وأمهرها فى الارتجاح ، وأكثرها فى الصيد ، وأسبقها فى الرهان ، وأحملها فى اجتياز المواحل ، وآخذ بيدها فى تخطى الحفر ، وهى ترى ذلك كله فتعجب وتقول :

كيف تستطيعين مالا أستطيع وأنت لاتطعمين اللحم ، ولا تأكلين الفاكهة ، ولا تذوقين الشكولاتة ؟

فأقول لها : إن الله يعطينا القوة لأنه خلقنا للعمل ، ويعطيكم الثروة لأنه خلقكم للإنفاق !

* * *

وترعرعت سيدتى « جيهان » وشبَّت ، فانقطعت عن حياة المدرسة واتصلت بحياة القرية ، فـكنت عندها فى منزلة بين الصديقة والخادمة . أقضى معها آخر النهار فى حديقتها ، أو أول الليل فى غرفتها ، أطرفها بأخبار القرية ، وأطربها بأغانى الريف ، وأنا أراها كل يوم تفتر وتضعف وتذوى ، وهى ترانى كل ليلة أنشط وأقوى وأنتعش ، فيشتد عجبها ، وتزداد حيرتها ، وتحاول أن تعرف الأسباب التى جعلتنى قوية على الفاقة والحرمان والكد ، وجعلتها ضعيفة على الغنى والسرف والرفاهة . فمن هذه المحاولات أنها طلبت منى أن آتيها خفية بوجبة من المش والبصل والسريس وخبز الذرة ، ولم يكن فى الأرض سريس يومئذ

فاستبدلت به الجلوين وجئت بما طلبت . وكانت تنتظرنى وحدها فى كشك الحديقة . فلما وضعت بين يديها ماحملت نظرت إليه نظرة الهائب ، وأقبلت عليه إقبال المضطر ، واقتطعت من الرغيف لقمة وغمستها فى المش ووضعتها فى فمها . فلم تكد تذوقها حتى كرّشت من وجهها ، وخاوصت من عينها ، كما تفعل الفتاة الساذجة إذا أكرهها الطبيب على جرعة من الكنياك . ثم تحاملت على نفسها من الطعام بضع لقيمات ، ثم تقززت منه وقالت فى اشمئزاز وتكرّه :

كيف تعيشون على هذا و إن مذاق بعضه لأليم ، و إن مذاق أكثره لتافه ؟

فقلت لها : يا سيدتى ، لقد أتيتك بطعامى ولم آتك بشهوتى ، ولو أتيتك بشهوتى لاحتجت أيضاً إلى معدتى !

واعتلت صحة الآنسة جيهان من سأم الراحة ومعاناة الترف ، فقلبوها بين المصايف والمشاتى ، ونقلوها ، ونقلوها بين الجبال والأبحر ، وعرضوها على طب مصر وطب أوربا حتى شبا وجهها(١) ونضر عودها ، وثاب إليها جسمها ، فزوجوها من أحد الباشوات القارونيين(٢) فلم تجد عنده أكثر مما وجدت عند أبيها . نعم ، وجدت لذتين لم تجدهما من قبل : متعة الزوج وفرحة الولد ؟ ولكنهما لذتان شائعتان بين الإنسان والحيوان تجدهما كل زوجة تحب وكل والدة تلد . وهاهى ذى قد بلغت الغاية فى الثراء الضخم والجاه العريض . أبوها باشا ، وأخوها باشا ، و إبنها باشا ، وكل أولئك لم يعصمها من السكر والروماتزم والكباد والسمن والرهل والأرق ، فلا تأكل إلا أقل الأكل ، ولا تنام إلا أيسر النوم ، ولا تتحرك إلا أثقل الحركة . وها أنا ذى لا أنفك على الحال التى كنت عليها : أبى

(١) شبا وجهها : أضاء بعد تغير (٢) القارونيون : نسبة إلى قارون صاحب الكنوز المشهور .

فقير ، وزوجي ضرير ، وابني الأول خفير وابني الثاني أجير . ومع ذلك لا أزال شابة على رغم السنين ، قوية على رغم العمل، صحيحة على رغم النصَب، سعيدة على رغم الفقر ،أدير أسرتي كـكل سيدة ،وأصيب لذتي كـكل حرة، وأرضى قسمتي كـكل مسلمة . وما أظن أن سيدتي جيهان تـكره أن أكون أنا في ثروتها وأن تـكون هي في صحتي ، أليس كذلك ياسيدي ؟

فقلت لها وأنا معجب بمنطقها وبيانها : بلى كذلك يا أم عامر ا وإن لله في ذلك حكمة . إن صحة الفقراء تعويض من ثروة الأغنياء، وإن السعادة من عند الله يمنحها من يشاء ويمنعها مَن يشاء .

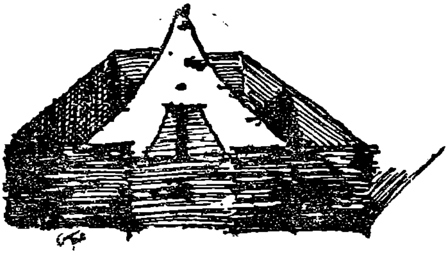

# أنطون الجميّل

## خطبة العضوية فى مجمع اللغة العربية

( ١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٩ )

اسمحوا لى أيها السادة أن أتقدم بأجزل الشكر وأخلصه إلى إخوانى الذين تفضلوا فشرفونى بانتخابهم إياى زميلا لهم فى هذا المجتمع الموقر . وإنى أسأل الله أن يعيننى على استحقاق هذه الثقة الغالية ، وأن يُقدِرنى على تكاليف هذا الشرف العظيم . ثم أخص بأجمل الحمد وأطيبه صديقى الأستاذ محمد فريد أبوحديد على استقباله الذى أشاع فيه من سراوة خلقه وسخى تقديره ماهز من عطفى وبسط من انقباضى . وإنى لأذكِّره فى غضبة ولذة ما يحمل كلانا لأخيه من ذكريات عذاب نشأت منذ أكثر من ثلاثين عاما فى ظلال الشباب وكنف الأخوة ، ولا يزال لها فى النفس إشراق وبالقلب نوطة . وأشهد لقد لابسته تلك السنين الطوال فزاملته فى جهاد العيش ، وآخيته فى نسب القلم : فى المدرسة الإعدادية ، وفى لجنة التأليف ، وفى تحرير ( الرسالة ) ، فلم أره تخلف يوما عن مكانه بين أولئك الذين يعرفون كرامة النفس ، ويحفظون غيب الصديق ، ويقيمون قواعد العمل والمعاملة على آساس العلم والخلق .

ثم أرجو أن تشاركونى فى دعاء الله رب جميع الناس أن يتغمد برضوانه وغفرانه فقيدنا الكريم أنطون الجميل . وإنى لأعترف أن خسارة المجمع فيه لن يعوض منها أن أكون خلفه . ولا أقول هذا مجاملة لسان ولا تواضع نفس ؛ فإن صادقت الرجل خمس عشر سنة بلوت فيها ما عنده ؛ فأنا من أعرف الناس بفضله ومن أعلمهم بموضوعه .

عرفت صديقي أنطون سنة ١٩٣٤ . وكان لقاؤنا الأول في دار صديقتنا المرحومة ( مي ) ، وكانت هي التي دبرت هذا اللقاء ودعت إليه ؛ فقد سمعتْه مراراً يذكرني بالخير ويؤثر ( الرسالة ) بالثناء ، فجمعت بيننا في مساء أحد من آحاد فبراير من تلك السنة ، وقالت بلهجتها الأنيقة وهي تعقد بيني وبينه المعرفة: إن كلا منكما يعرف اسم صاحبه في الأسماء ، ولعله يعرف وجهه في الوجوه ، ولكنه لا يعرف أن ذلك الاسم لهذا الوجه . ومن سعادتي أن تكمل معرفتكما عنـــدي .

فقال لي الجميّل وهو يبتسم ابتسامته الرقيقة المعبرة : نعم إني أعرفك، وإن لم أرك . عرفتك مما قرأت لك وسمعت عنك فوجدت بيني وبينك مشابه في استعداد الفطرة وأسلوب العيش هي التي حببتك إليّ وجذبتني إليك . فقد بدأت حياتي معلما للأدب كما بدأت . ثم حررت جريدة « البشير » ببيروت دينية يشوبها الأدب ، وأصدرت ( الزهور ) في القاهرة أدبية يهذبها الدين ؛ وهاتان النزعتان أجدهما مجتمعين في ( الرسالة ) . ثم كرهت التحيز لأي حزب، والتعصب لأي مذهب ، والإضافة إلى أي شخص . فأنا أنشد الخير في كل عقيدة، وأؤيد الحق في كل هيئة ، وأحب الجمال في كل إنسان . ولولا أن (الأهرام ) أمانة في عنقي لقطعت ما بيني وبين السياسة . ويظهر لي أنك تنهج في حياتك هذا المنهج، وتسلك في عملك هذا المسلك .

ثم تشاجن الحديث وأخذ ثلاثتنا بأطرافه . فعلمت في هذا المجلس وفي المجالس التي أعقبته ، أن الجميل — فضلا عن وجوه الشبه التي رآها بينه وبيني — أزهري مثلي ، يعرف قواعد اللغة كما يعرفها الأزهر ، ويفهم تاريخ الأدب كما تفهمه دار العلوم .

ولست أعني بأزهرية الجميل ذلك التأثير القوي الذي يؤثره الأزهر في كل

كاتب وفى كل شاعر من طريق مباشر أو غير مباشر ، إنما أعنى بأزهريته ما أعنيه بأزهرية فقيدنا العزيز الآخر على الجارم، وهو أن كلا الرجلين كان ربيب مدرسة اشتقت من مصدر الأزهر وتفرّعت من أصله . والأمر فى أزهرية الجارم أبين من أن يُبين ، ولكنه فى أزهرية الجميل يحتاج إلى بسط قليل :

كان الأزهر فى أوائل النصف الأخير من القرن الماضى لا يزال يرسل وحده أشعة الثقافة فى العالم الإسلامى كله ؛ ولكنه كان فى أثناء الغفوة العامة يحفظ علوم الدين ولا يجتهد ، ويدرس فنون اللغة ولا يطبق . وكانت معاهد العلم فى المغرب والشام والعراق تتعلم فى كتبه وتجرى على مناهجه ، حتى وقع فى سورية ومصر أمران خطيران كان لهما الأثر البالغ فى تطور المجتمع وتقدم التعليم ونهوض الأدب : حدوث الفتنة الدامية فى لبنان سنة ١٨٦٠ ، وولاية اسماعيل على مصر بعدها بثلاث سنين . كان من أثر تلك المذبحة الأليمة أن لجأ اللبنانيون من قراهم إلى بيروت فتجمعت فيها الحركة ، وأن وُضع للبنان نظامه الخاص ففتح بابه للأجانب فدخله المستعمرون والمبشرون من فرنسا وأمريكا ، وأنشأوا فى ظل الامتيازات الأجنبية الكلية الأمريكية سنة ١٨٦٦ ، والكلية اليسوعية سنة ١٨٧٤ . وكان اللبنانيون فى عهد بنى عثمان كالموالى فى عهد بنى أمية ، أبعدوا عن مناصب الدولة فاشتغلوا بالعلم ، وحيل بينهم وبين موارد الثقافة فى عاصمة الخلافة فاعتمدوا فى التعليم على أنفسهم . وكانت ( المدرسة الوطنية ) التى أنشأها المعلم بطرس البستانى سنة ١٨٦٣ أول مدرسة تخرج فيها صفوة من الأبناء كانوا عدة الكليتين الأمريكية واليسوعية فى تعليم اللغة العربية وكانت كتب التعليم فى هذه المدارس هى كتب الأزهر بعد أن بيَّض اللبنانيون أوراقها الصفر ، وسهّلوا أساليبها الوعرة ، وقرنوا قواعدها الجافة بالأمثلة الشارحة والتطبيقات المدربة ، واحتذوا فى تنسيقها على مثال مادرسوه من كتب التعليم الفرنسية .

ثم كان من أثر جلوس إسماعيل على كرسى الخديوية أن بسط ظلال الأمن على ربوع مصر ، ومهد لرجوع المدنية إلى ضفاف النيل ، فوفد علينا الأجانب للتبشير والتعليم والعمل والتجارة ، وفيهم جماعتا الفرير والجزويت . ثم فتح ما انغلق من المدارس ، ووصل ما انقطع من البعوث ، وأسس نظارة المعارف ، ووسع دائرة التعليم ، فاقتضى ذلك كله أن ينشىء مدرسة يتخرج فيها المعلمون ، فأنشأ دار العلوم فى سنة ١٨٧١ ليتخصص طلابها فى الآداب العربية ، و يشاركوا فى العلوم الدينية والعقلية ، و يأخذوا بنصيب من الثقافة الأوربية . وكان أساتذتها يومئذ من نابغى شيوخ الأزهر ، وتلاميذها من متقدمى طلابه ، وكتبها من أمهات كتبه . ولكن اتصال أهلها بالحياة المدنية ، وتأثرهم بالآداب الغربية ، واقتباسهم لطرق التعليم الحديثة ، جعلت لهم فى التفكير والتعبير والسمت طابعا خاصا يميزهم من رجال الدين فى الأزهر وتوابعه . فمدرسة دار العلوم كانت فى القاهرة أثرا لسياسة إسماعيل العامة ، كما كانت المدرسة الوطنية فى بيروت أثراً لنظام لبنان الخاص . وكانت هاتان المدرستان كما قلت شُعبتين من أروقة الأزهر ، أمدّهما بالغذاء والرى ، ووصلهما بالروح والحرارة ؛ ولكنهما لأسباب متجانسة ، وعوامل متشابهة ، تميزتا منه بالشكل واختلفتا عنه فى الثمر . غير أن الاختلاف فى المدرسة المصرية كان ضعيفا لقربها من الأزهر فى البيئة والعقيدة والعقلية والتقاليد؛ فهى فرع طبيعى من أصله ، ونوع ممتاز من جنسه ؛ ولكنه كان فى المدرسة اللبنانية شديداً لبعدها عن الأزهر فى المكان والدين والتربية والسنن الموروثة والصلات الأجنبية ، فهى أشبه بالطعمة الغربية أدخلت فى جذعه فجاء ثمرها مغايراً للأصل فى طعمه ولونه ، ومختلفاً عنه فى قيمته وجداه .

سارت المدرستان على جانبى الركب الحثيث فى طريق النهضة ، مدرسة مصر يمينية تتأنى وتتزن ، ومدرسة لبنان يسارية تتسرع وتخف . وكان الزمام

أول الأمر عندنا وعندهم فى أيدى المحافظين كحمزة وحفنى والمهدى والاسكندرى وشاويش ووالى هنا ، وكالبستانيين بطرس وسليم وسليمان ، واليازجيين خليل وناصف وإبراهيم هناك ؛ فكان التقليد غالباً ، والتطور بطيئاً ، والفروق بين المدرستين قريبة . فلما أسرع الركب ، واتصل القديم بالحديث ، وامتزج الشرق بالغرب ، وانشقت من مدرسة دار العلوم المحافظة مدرسة أخرى تتميز بالإيجاز والطبيعة والسهولة والحرية والمنطق ، هى مدرسة لطفى السيد . ومن رجالها قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، وعبد القادر حمزة ، كما انشقت من المدرسة اليازجية المحافظة مدرسة أخرى تتميز بالشاعرية والطرافة والانطلاق والتمرد ، هى مدرسة جبران ومن أتباعها ميخائيل نعيمة ، وأمين الريحانى ، ومارى زيادة .

وظلت المدرستان الشقيقتان المصرية واللبنانية تنتجان الأدب فى ضروبه المختلفة بأسلوبين مستقلين ، أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر ، على ما كان بينهما من تفاوت فى الطاقة والمادة والصنعة والتقييد والتحرر ، وبقيت المدرسة الأزهرية الأم عاكفة على النظر المجرد والجدل العقيم بين أروقة الأزهر والزيتونة والأموى والنجف ، تنتج الخام ولا تصنع ، وتشحذ السلاح ولا تقطع ، فلم يكن لها فى ذلك العهد الغابر أدب غير أدب الشواهد ، ولا أسلوب غير أسلوب الحواشى ، حتى إن شيخاً من كبار شيوخها كان ناظراً بحكم منصبه على وقف خيرى ، فاضطر إلى أن يكتب رسالة إلى محافظة القاهرة فى شأن من شؤونه ، فلم يفهموا مما كتب شيئاً فلما أعادوا الرسالة إليه يستوضحونه المبهم ضحك هزؤاً بالجهل ، ومصمص أسفاً على العلم ، ثم كتب على الرسالة حاشية على طريقة : قولى كذا معناه كذا ، وقولى كذا أريد به كذا ، ثم ردها عليهم ، ولو أنهم ردوها عليه مرة أخرى لكتب — رحمه الله — تقريراً على الحاشية !

* * *

كان الفرق بين مدرسة القاهرة ومدرسة بيروت كالفرق الذى كان بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة . كان البصريون يقدمون السماع فلا يرون القياس إلا فى حال تضطرهم ، ويتشددون فى الرواية فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخلص من صميم العرب ، لكثرة هؤلاء بالبصرة وقربها من عامر البادية . أما الكوفيون فكانوا لخلاطهم أهل السواد والنبط يعتمدون فى أكثر المسائل على القياس ، ولا يتحرجون فى الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم فالمصريون لقربهم من الأزهر واعتمادهم على القرآن ، وقلة اختلاطهم بالأجانب ، كانوا أشبه بالبصريين فى تقديمهم السماع ، وتشددهم فى القواعد ، وخضوعهم للمعاجم ، ونفورهم من الدخيل ، وجريهم على أساليب القدامى ، واعتقادهم أن العربية لغة العرب الأولين ، فلا يملك المولدون أن يُنقصوا منها ولا ألى يزيدوا فيها . واللبنانيون كانوا لبعدهم عن بيئة القرآن ، وتأثرهم بأسلوب الإنجيل ، وكثرة اختلاطهم بالفرنسيين والأمريكيين ، وشدة احتياجهم فى الترجمة والصحافة إلى تطويع اللغة وتوسيعها لتعبر عن المعانى الحديثة ، كانوا أشبه بالكوفيين فى تقديمهم القياس ، وقبولهم الكلمات المولدة والنصرانية و لدخيلة ، واقتباسهم بعض الأساليب الأوربية ، وتساهلهم فى بعض القواعد النحوية والتراكيب البلاغية . ولذلك رماهم الدّرعميون[1] بضعف الملكة ، وسُقم الأداء ، وقصور الآلة ، فلم يقيموا لإنتاجهم وزناً ، ولم ينيطوا بمعاجمهم ثقة . ولكن الحق أن المدرسة اللبنانية كانت عملية تقدمية حرة ، واكبت الزمن فى السير ، وطلبت العلم للعمل ، وسخرّت الأدب للحياة ، ونظرت إلى اللغة نظر الوارث إلى ماورث ، يملك عليه بمقتضى الشريعة والطبيعة حق الانتفاع به على الوضع الذى يريد ، وحق التصرف فيه على الوجه الذى يحب . وقد تطوّفت العربية منها أيادى مشكورة

---

(١) الدرعميون كلمة منحوتة من دار العلوم .

بما أمدتها به من مصطلحات الفنون المختلفة ، وأسماء المخترعات الحديثة ، عن طريق الترجمة والتأليف والتمثيل والصحافة والتجارة . ثم كان في جانبها الزمن وفي مؤازرتها الطبيعة ، ففعلا فعلهما في تطوير المصرية حتى قل بينها و بين أختها الخلاف وكثر التشابه . وجاء مجمع اللغة العربية فأخذ بحكم قانونه يوفق غير عامد بين المدرستين ، فتسهل في القواعد ، وتجوز في الوضع ، وتسمح في الدخيل ، وسلم بالواقع ، وأصغى إلى مذهب الإجماع اللغوي الذي دعا إليه الدكتور السنهوري ، وإلى مذهب القياس في اللغة الذي قال به الأستاذ أحمد أمين .

والمتتبع لتطور المدرستين أيها السادة يرى أن كلتيهما قد مرت في أطوار ثلاثة : طور التقييد والمحاكاة ، وطور التحرر والاعتدال . ثم طور التمرد والانطلاق. ولكن الانتقال من طور إلى طور كان في مصر متثاقلاً متداخلاً ، يرود قبل النجعة ، ويحوم قبل الوقوع . على حين كان في لبنان متسرعاً لا يتأنى ، مصمماً لا ينخزل . فبينما نجد مراشا الحلبي في ( مشهد الأحوال ) يقلد ابن حبيب الحلبي في ( نسيم الصبا ) ، ونصيفاً اليازجي في ( مجمع البحرين ) يقلد الحريري في المقامات ، وإبراهيم اليازجي في (لغة الجرائد) ينهج نهج الحريري في ( درة الغواص ) ، إذ نجد آل البستاني وآل الحداد وزيدان ومطران والخوري والجميّل وملاّط يتوخّون السهولة والابتكار والطرافة ، والجبرانيين والمهجريين يجنحون إلى الأصالة والإبداع والتطرف ؛ والزمن بين هؤلاء وأولئك مُتقارب ، والعوامل المؤثرة فيهم لا تكاد تختلف وليس بسبيلنا اليوم أن نحلل العوامل في كل تطور في كل بلد ، ولا أن نعين الرجال في كل مدرسة في كل طور ، ولا أن نورد الأمثلة من أدب كل رجل في كل فن ، إنما سبيلنا أن نقول إن الجميل كان من خير من يمثلون اللبنانية في طور الاعتدال ، وإن الجارم كان من خير من يمثلون المصرية في مثل تلك الحال .

* * *

صيدانى ، سادتى : ولد أنطون الجميل فى بيروت سنة ١٨٨٧ ، وبيروت حينئذ كانت ملاذ العلماء والأدباء من لبنان وسورية ، ومنتجع المبشرين والمستشرقين من فرنسا وأمريكا . وكانت النهضة الأدبية فى عاصمة الجبل قد أثمرت بواكيرها ودنا جناها ، فنال الفتى أنطون ما تيسر له منه فى الكلية اليسوعية . والمارونيون كانوا يفضلون التعليم الفرنسى ، لصلتهم الدينية القديمة باليسوعية ، وعلاقتهم السياسية الجديدة بفرنسا . وحذق أنطون على الأخص اللغتين العربية والفرنسية ، والنبوغ فيهما كان فاشيا فى شباب لبنان ، لأن تعليمهما كان جاريا على الأسلوب اللاتينى فى تأليف الكتاب وإعداد المعلم واختيار الطريقة ؛ فالكتاب متعمق فى القواعد متنوع فى التطبيق ، والمعلم متضلع من العلم متقص فى التحقيق ، والطريقة قائمة على الحفظ معتمدة على التمرين . ذلك إلى أن الغالب على التعليم الفرنسى الأدب ، والغالب على التعليم الأمريكى العلم . واللبنانيون كانوا يومئذ يتهيأون للعمل الحر فى خارج لبنان ؛ لأن النصارى فى سورية كانوا كالشيعة فى العراق لم يكن لهم فى حكومة الترك مكان . والعمل الحر كان فى التعليم أو فى الصحافة أو فى الترجمة أو فى التمثيل أو فى التجارة ، وكلها أعمال تقتضى التبريز فى اللغات والتبسط فى الآداب . لذلك لم يكد الجميل يتخرج فى الكلية اليسوعية حتى عين معلماً فى مدرسة القديس يوسف ، ولكن ميله إلى الكتابة واستعداده للتحرير ، ساعدا على اختياره محرراً لجريدة ( البشير ) سنة ١٩٠٨ ، وقد كان يصدرها الآباء اليسوعيون فى بيروت ، ويجعلون إدارتها لأب من صالحى الآباء ، وتحريرها لأديب من نوابغ الأدباء . ثم دعاه إلى الهجرة ما دعا أحرار لبنان من ضيق العيش وسعة الأمل وفساد الحكم ، فهاجر إلى مصر سنة ١٩٠٩ وحرر فى صحيفة الأهرام الفرنسية . ثم أعلنت وزارة المالية المصرية سنة ١٩١٠ عن حاجتها إلى مترجم ، فتقدم إلى المسابقة فى هذه الوظيفة ففاز بها . ولكنه لم يقطع صلته بالصحافة فأصدر فى تلك السنة نفسها مجلة الزهور أدبية شهرية . واتصلت

منذ يومئذ أسبابه بالحكومة ورجال الحكم . وكان الجميل على طبيعة قومه عمولا لا يدخر جهداً ولا يضيع فرصة ولا يستوطىء راحة ، فبان شأوه على أقرانه ، ودل فضله على كفايته ، فترقى فى المناصب حتى عُين سكرتيراً للجنة المالية ثم اعتزل العمل الحكومى ليتولى رياسة تحرير الأهرام ، فسطع مجده ، وضخم أمره ، وانبسط نفوذه ، واضطرب فى مجال الحيوات المصرية السياسية والاجتماعية والأدبية اضطراباً عجيباً ، ينبه ويوجه ، ويوفق ويشارك . عمل فى مجلس الشيوخ ، وفى مجمع اللغة ، وفى جمعيات البر ، وفى جماعات الأدب ، وفى شعب الثقافة ، وفى لجان الاقتصاد ، فلم تكن عضويته فيها جميعاً مظهراً من مظاهر الفخر ولا مورداً من موارد المنفعة ، وإنما كانت هماً من هموم الجد يستفرغ الوسع فيه ، ويتوخى النجاح له ، ويدفع العوائق عنه . وكان الرجل على حظ عظيم من الخلق الكريم والطبع المهذب والحلم الراجح ، فساعدته هذه المزايا على أن يكون له فى المجتمع هذه المكانة وفى العمل هذا البروز . كان أديب النفس واللسان والقلم ، فلم تكن لنفسه جلافة تنفر ، ولا للسانه بادرة تُخشى ، ولا لقلمه سن تخز . وكان مرهف القلب والعقل والذوق ، فكان يشعر بقوة ، ويفهم بزكانة ، ويذوق بلذة . وكان دقيق العمل والوقت والأسلوب ، فلا يقدر بالقياس الجزاف ، ولا يوقت بالزمن المبهم ، ولا يعبر باللفظ المقارب ؛ إنما كان يتبين الغرض ثم يرميه بالذهن النافذ واللفظ المحكم فلا يخطئه . ولعل كلماته السياسية فى الأهرام كانت على وجازتها أدل كلامه على خلقه وأدبه . كان يعالج مشكلات السياسة والحكم بأسلوب فيه صراحة الجبليين وكياسة اليسوعين ونعومة الفرنسيين ، فيكشف عن المخبأ من غير فضيحة ، ويدل على الفساد من غير اتهام ، ويُوجه إلى السداد من غير استطالة . وهذا الأسلوب وما كان يقويه من صدق النظر وصحة الحكم جعله وهو فى مكتب الأهرام وندوته عضو شرف فى كل حزب ، ووزير دولة فى كل حكومة .

أما أسلوبه الأدبى فى الكتابة والخطابة فكان شعرياً فى صوره وأخيلته وألفاظه . كان يغلب عليه سلامة التركيب ووضوح المعنى وحسن الترسل ، ويكثر فيه تضمين الأبيات واقتباس الحكم وإيراد النوادر . وقد شغلته الجهود الصحفية والاجتماعية عن الفراغ للأدب المحض فما كان يكتبه إلا مدفوعاً إليه بإلحاح الطلب وإكراه الحاجة ، كأن يكتب مقدمة لديوان صديق ، أو بحثا فى أدب شاعر ، أو محاضرة فى دار نقابة ، أو خطبة فى مجلس شيوخ . ولقد كان له وهو فى عهد الاستشراف والطموح إنتاج أدبى متصل ، وعته جريدة البشير الدينية ومجلة الزهور الأدبية . ومن آثاره فى ذلك الحين روايتاه : ( أبطال الحرية ) وموضوعها الانقلاب العثمانى ، وبطلاها القائدان التركيان نيازى وأنور ؛ و ( السموءل ، أو وفاء العرب ) وموضوعها وبطلها معروفان . وهاتان المسرحيتان لا تمتازان ببراعة الحوار ولا بقوة البناء ، وإنما تمتازان بفصاحة اللفظ وبلاغة الأداء .

وإذا كان لى أن أضيف إلى ما قلت كلمة فى وفائه لمصر وحبه للمصريين فحسبى أن أقول إنى لم أر فى الأدباء الذين توطنوا هذا البلد كاتباً قبل الجميل ، ولا شاعراً قبل مطران ، نالا الرضا المصرى بكل معانيه ومن جميع نواحيه ، بإخلاص العمل لهذا الوطن ، وإصفاء المودَّة لأهله ، واعتقاد العرفان لجميله .

هذه — أيها السادة — بعض مزايا الرجل الذى كُتب علىّ أن أودعه بلسانكم فى رحلته الأبدية عن هذا المجمع . وإنى لأشعر وأنا أجلس فى مكانه الخالى أن كرسيه ينكرنى كما ينكر الفرس والجواد الراكب الغر . ولقد حدثتنى نفسى — شهد الله — حين تأدى إلىّ خبر انتخابى لعضوية المجمع أن أستعفيه من هذا التشريف ، لا زهادة فى الشرف ، ولا رغبة عن العمل ، ولا فراراً من الواجب ، ولكن لعلة نفسية مزمنة كان من أخف أعراضها أنى أحسن العمل منفرداً أكثر مما أحسنه مجتمعاً . وربما جعلتنى — لعنها الله — أعلم الشىء

ولا أقوله ، وأسمع الخطأ ولا أصوبه ، وأرى المنكر ولا أغيره . وتلك كانت حالى معها وظل الشباب وارف ، وعود الأمل ريّان ، وقوة النفس عارمة ؛ فكيف تكون حالى معها اليوم وقد بلغتُ المدى الذى بعده القصور ، والأملَ الذى بعده الذكرى ، والساحل الذى بعده القفر ؟

ولكننى استخرت الله وألقيت بجهدى الضعيف بين جهودكم القوية . والرماد يحمى إذا مسه من الجمر وهيج ، والجبان يشجع إذا لم يكن من العراك بُد .

أسأل الله أن يهدينا الطريق إلى خير العربية والعروبة ، وأن يرزقنا التوفيق فى خدمة الإسلام والشرق .

# أحقاً مات علي محمود طه؟!

( ٢٨ نوفبر سنة ١٩٤٩ )

أحقاً ، رفاقَ عليّ ، لن تروه بعد اليوم يحيي المجالس بروحه اللطيف ، ويؤنس الجلاس بوجهه المتهلل ، ويدير على السّمار أكؤساً من سلاف الأحاديث تبعث المسرة في النفوس ، وتحدث النشوة في المشاعر ؟

أحقا ، عشاق علي ، لن تسمعوه بعد اليوم ينشد القصائد الرقيقة ، ويخرج الدواوين الأنيقة ، ويصور الحياة بالألوان من الشعر والسحر والفتون ، في إطار من الجمال والحب واللذة .

أحقاً ، أصدقاء علي ، لن تجدوه بعد اليوم يبذل من سعيه ليواسي ، وينيل من جاهه ليعين ، ويجعل بيته سكناً لكل نفس لا تجد الدعة ولا الأنس ، ومثابة لكل طائر لا يجد الروضة ولا العش ؟

أحقاً عباد الله سكت البلبل ، تحطم الجام[1] ، وتقوض المجلس ، وانفض السامر ، وتفرق الشمل ، وأقفر الرّبع ، وأصبح علي طه الشاعر العامل الآمل أثراً وخبراً وذكرى ؟

لقد حدثني ربع ساعة في تليفون المستشفى يوم الأربعاء ، فبشرني أن قلبه انتظم وجسمه صح ووجهه شبا[2] ، وأن الأطباء سمحوا له بالرجوع إلى بيته ، وأن استقباله في الدار سيعود . وأن مجلسه في ( الأميريكين ) سينعقد ، وأنه سينتظرني يوم الجمعة في مكتبه ليقرأ عليّ النشيد الأول من ملحمة ( اليرموك ) التي اقترحتها عليه ، وربما خرج معي بعد القراءة إلى نزهة هادئة في طريق الأهرام . ثم ختم

(١) الجام الكأس  (٢) شبا وجهه : أضاء بعد تغير

على حديثه الطويل بضحكة حلوة فيها أمل ، وعبارة فكهة فيها تفاؤل ! ولكنما كان بين يوم الأربعاء الذى حدثنى فيه هذا الحديث ، ويوم الجمعة الذى ضرب لى فيه هذا الموعد ، يومُ الخميس الذى سكن فيه قلبه الطيب فما ينبض بحياة ولا حب وسكت لسانه الحلو فما ينطق بنثر ولا شعر : طلع صباحه الأسود المشئوم على غرفة على وهو يلبس ثيابه ويداعب أصحابه ، وينظر فى الداخل فيرى طاقات الزهر تزين المنضدة ، وفى الخارج فيرى ممرضات المستشفى يجمِّلن الممشى ، فيهفو الشاعر المعبود إلى أزاهره التى تنفح قلبه بالعطور ، وإلى عرائسه التى تغمر شعره بالشعور ، فيخرج ليؤدى ما عليه من المال للمصحة ، ومن الشكر للأطباء حتى إذا أبرأ ذمته من حقوق الناس أدار فيمن حوله من أصدقائه وذوى قرباه نظرة فاترة حائرة ، ثم أسبل عينيه ، وخر مغشياً عليه ! فخف إليه أساته الذين بشروه العافية ووعدوه السلامة ، وأخذوا يقلبونه ويفحصونه فإذا الجسد الجياش بالشباب والقوة هامد لا حراك به ولا حس فيه ! وهكذا فى مثل ارتداد الطرف ذهب من أرض الآدميين إنسان ، وغاب من سماء العبقريين فنان !

والهف نفسى على أحبائه وقد مسهم ما مسنى من غصة الرق وحرقة الجوى حين نعاه إليهم الناعى ! لقد كان كل معنى أقرب إلى على فى أذهانهم إلى معنى الموت : لذلك ظلوا متبلدين ساهمين يقلبون الأكف أسى وحسرة ، ويحركون الألسن انكاراً ودهشة ! .

لا يابديع الزمان ! ليس الموت كما زعمت خطباً صعب حتى هان ، ولا ثوباً خشُن حتى لان ! إنما الموت نقيض الحياة وبغيضها من أزل الدهر إلى أبده ؛ لا تقترب من مظنته ، ولا تأنس بناحيته ولا تسكن إلى ريحه ، حتى يفجأها كالقضاء ، ويدهمها كالوحش ، ويختلها كالصائد ، ويختلسها كاللص !

وهل الدنيا كلها بمن فيها وما فيها إلا معركة لا تفتر بين البقاء والفناء والجدة

والبلى ؟ أرحام تدفع ، وأجداث تبلع ، وهجوم فيه المرض والشهوة والأثرة ، ودفاع فيه الطب والسياسة والخديعة ، صرعى هذه المعركة الضَّروس لا ينفكون يتناثرون من بين شقى الرحا الهائلة أشلاء لا تشبع جوف الأرض ، ودماء لا تنقع غليل الثرى !

عرفت عليا منذ سبع وعشرين سنة على الضفاف الخضر من مدينة المنصورة وكان حين عرفته شاباً منضور الطلعة مسجور العاطفة ؛ مسحور المخيلة ، لا يبصر غير الجمال ، ولا ينشد غير الحب ، ولا يطلب غير اللذة ، ولا يحسب الوجود إلى قصيدة من الغزل السماوى ينشدها الدهر ويرقص عليها الفلك !

كان كالفراشة الجميلة الهائمة فى الحقول تحوم على الزهر ، وترف على الماء ، وتخفق على العشب ، وتسقط على النور ، لا تكاد تعرف لها بغية غير السبوح ولا لذة إلا التنقل . ثم تتبعته بعد ذلك فى أطواره وآثاره ، فإذا الفراشة الهائمة على أرباض المنصورة تصبح ( الملاح التائه ) فى خضم الحياة ، ( والأرواح الشاردة ) فى آفاق الوجود ، ( والأرواح والأشباح ) فى أطباق اللانهاية ؛ وإذا الشاعر الناشىء يغدو الشاعر المحلق تارة بجناح الملك ، وتارة بجناح الشيطان ، يشق الغيب ، ويقتحم الأثير ، ويصل السماء بالأرض ، ويجمع الملائكة والشياطين بالناس !

كان على — واحسرتا عليه — من أصدق الأمثلة للشاعر الذى خلقته الطبيعة . والشاعر الذى تخلقه الطبيعة يكون فى ذاته وفى معناه نشيداً من أناشيد الجمال ، ولحناً من ألحان الحب ؛ فيكون شاعراً فى أخلاقه ومُثله وأحلامه وهندامه وسلوكه ، وفى نمط حياته وأسلوب تفكيره وطريقة عمله وطبيعة صداقته . وأشهد لقد كان على برّد الله ثراه نسقاً فريداً فى الصفاء والوفاء والمروءة والمودة . كان لا يطوى صدره على ضغينة ، ولا يحرك لسانه بنقيصة ، ولا يقبض يده عن

معروف ، ولا يعقد ضميره على غدر ؛ فلم تدع له هذه الصفات الشاعرة النادرة عدوا لا في نفسه ولا في الناس ، فعاش ما عاش وادع البال في سلام الحب وأمان الصداقة.

قضى عليٌّ عمره بالعرض لا بالطول ، وقدر عيشه بالكيف لا بالكم ، وجعل همه في الحاضر لا في المستقبل ، ونظر إلى الشعر نظر البلبل إلى الشدو ، فكان يصدر عنه بالطبيعة إعلاناً لوجود ، وإبرازاً لنفس ، وكمالاً لصورة ، وجمالاً لحياة ! لذلك كان شعره تعبيراً صادقاً عن شعوره ، وتصويراً ، ناطقاً لهواه ونظاماً متسقاً مع خلقه وطبعه في الحرية والأصالة والوضوح والأناقة والسهولة والسلامة .

إن حياة على طه كانت أشبه بالطيف خفق خفوق الملك على حواشي الروض ثم عبر أو الحلم نعم به رائيه في إغفاءة الفجر ثم زال ، أو حبات الندى تلألأت في وجه الصباح ثم ذهبت في متوع الضحى ، أو قطرات العطر سطعت في نفح النسيم ثم تبددت في عصف الريح . فالحزن على وفاته حزن على حبيب قضى ، وخير مضى ، وجمال ذوى ، وشباب تولى ، ووفاء غاض ، وفن ذهب . فإذا بكينا فإنما نبكي علينا لا عليه ، وإذا سألنا الله العوض منه فإنما نسأله لنا لا له . وكل ما نملكه للفقيد العزيز أن ندعو الله أن يتغمده برحمته ، وأن ينزله منزلة الأبرار في نعيم جنته .

# محمود حسن زناتى

( ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٩ )

كنا ثلاثة ألفت بيننا وحدة الطبع والهوى والسن ؛ فالطبع مرح فكه ، والهوى درس الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تجاوز السادسة عشرة وكان طه قاعدة المثلث ، ومحمود وأنا ضلعيه القائمتين . أو كان المبرد صاحب الكامل قلب الطائر ، والزمخشرى صاحب الكشاف وثعلب صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ؛ وتلك كانت ألقابنا على الترتيب ، لقب بها بعضنا بعضا لنزعة فكرية أو فنية كان ينزعها كل منا فى نظر أخويه . ووجه الشبه بيننا وبين المثلث أن وجودنا كان كوجوده ، لا يتصور فى الذهن ولا فى الخارج إلا بأضلاعه الثلاث على أى شكل يكون . وأما وجه الشبه بيننا وبين الطائر فإن حياتنا كانت كحياته ، وتردد إلى كل روضة، وتغريد على كل شجرة ، وتحليق فى كل جو . كنا تنتقل من حلقة العلم إلى درس الأدب، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر ، ومن مجلس الشعر إلى دار الكتب، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف نعرض عليها ما كنا

نسميه يومئذ شعرا ؛ ثم ننتهى إلى دار أحدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، ونتذاكر ما حفظنا من أدب ، ونتنادر بما سمعنا أو رأينا من سخف . فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة فتعيد ما وعت لا تخرم منه حرفا ، فنصحح أو نستكمل أو نستفيد . وإذا سئمنا أو ونينا فزعنا إلى حافظة محمود الخصيبة فيسرى عن خواطرنا بمقطعات من أعذب النوادر يحكيها عن نفسه ، أو يرويها عن أبيه ، أو ينقلها عن حياته . وزناتى محدث طليق اللسان متفنن الحديث تسمع منه النادرة عشرين مرة وكأنك لم تسمعها من قبل لجمال عرضه وجاذبية أسلوبه ، ثم كان الطائر بقلبه النابض بالأمل والحب ، وبجناحيه الخافقين بالخيال والنشوة ، يضيق أحيانا بعشه الباغم فى ركن من الرواق العباسى بالأزهر المدوى الهادر ، فيخرج إلى هدوء الطبيعة يستمتع بمفاتنها فى خمائل المطرية أو فى حدائق الجزيرة ، فنتصل بالحياة العصرية ، وننال من ثمار المدنية ، ثم نعود إلى الأزهر فنجد الاختلاف شديداً بين حياته وحياة الناس فنقلق وتثور ، ويكون مظهر هذا القلق وهذه الثورة التمرد على الأزهر المنعزل عن العالم ، والسخر من الطلاب المنصرفين إلى الفقه ، والعبث بالشيوخ الجاهلين بالأدب . وكنا حينئذ فى عهد اليفاعة حين يكون العيش كله حباً عارماً لحبيب غير مشهود ولا معهود .

كان كل منا يحب أخويه حباً غلب على كل شىء . فإذا اجتمعنا عكفنا على هوى واحد هو الأدب ، وإذا افترقنا نزعنا إلى هوى واحد هو نحن الثلاثة . وكنا نعبد الجمال فى أى معنى وفى أية صورة ، والجمال فى حياة أيفاع من طلاب الأزهر لا يرون غير الدمامة ، ولا يسمعون غير القدامة[1] ، لا يمكن أن يكون إلا حلماً أو خيالا أو مثالا أو شيئاً من نحو ذلك . وكنا نعشق الكتب ، فلم ندع

---

(١) القدامة : العى عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة .

فى الأدب كتاباً مطبوعاً ولا مخطوطا إلا قرأناه أو قلبناه . والمكتبة العربية كانت يومئذ بالنسبة إلينا ( الكتبخانة المصرية ) . وكان محمود أشدنا غراماً بالمكتبات والمخطوطات ، فكنا حين ننصرف ، طه وأنا ، لدراسة الفرنسية ، ينصرف هو إلى مكتبة الأتراك ، أو إلى مكتبة الأزهر ، أو إلى دكاكين الوراقين ، يعقب عن نوادر الكتب فيستعيرها أو ينسخها أو يشتريها . لذلك كان أعلم الناس بأسماء الكتب وسماتها وشياتها وموضوعاتها ومؤلفيها . وقد ظهر أثر ذلك حينما عمل مغيراً فى دار الكتب المصرية ، فقد انتقد فهارس الدار نقداً قوياً عنيفاً كان مثار خصومة بينه وبين زملائه . ومحمود كان لا يلاين ولا يهادن إذا كان معه الحق . ولقد كان عمله فى وزارة المعارف وفى وزارة الأوقاف نزاعاً متصلا بينه وبين رؤسائه ، لأن الوظيفة الحكومية تقتضى صاحبها المصانعة والمهاواة والمساهلة ، ومحمود كان مستقيم الطبع فلا يلتوى ، شديد الإباء فلا يستكين ، قوى الشكيمة فلا ينقاد ، حافظ العين فلا يغضى . من أجل ذلك طلب أن يحال إلى المعاش فأحيل قبل سنه بعشر سنين .

عرفت محموداً فى درس النحو ، وعرفت طة فى درس الأدب ، وكان بين المعرفتين شهران أو ثلاثة . كنت أحضر درس النحو الذى يلقيه الشيخ عبد الله دراز فى مسجد محمد بك أبى الذهب ، وكانت لى بين رفاقى شهرة بصنع الكلام الموزون المقفى ، فكان هذا يطلب مدحة فى باشا ، وذاك يطلب تهنئة لعمدة ، وذلك يريد مرثية فى قريب . وعلم ذلك محمود فجاءنى ذات يوم وأنا فى الدرس يشكو إلى أنه صنع تاريخاً لمولود فى شطر ولكنه يحتاج إلى واحد ليتم به عدد السنين ١٩٠٤ . فنظرت فى التاريخ فأعيانى أن أجد هذا الواحد ، فقلت له اكتب الشطر الأول هكذا : « وبالفرد استعنت لكى أؤرخ » والفرد معناه

الله ومعناه الواحد المطلوب ، فضمه بين قوسين واحسبه واحداً . أما جزم المضارع فللضرورة ، والضرورات ترفع المجرورات ! فسر محمود بهذا الحل سروراً عظيما ، وصحبنى منذ ذلك اليوم لا نكاد نفترق ، حتى أثلثنا بطه فى درس المرصفى ، فتوثقت بيننا عرى المودة ، وتصادقنا على المحبوب والمكروه ، وتصافينا على القرب والبعد ، ومُلى كل منا أخويه خمساً وأربعين سنة تصدع فيها الشمل ، وافترق الطريق ، واختلفت الحظوظ ، واتسعت الفروق ، وثقلت الأعباء ، وكثرت الأصدقاء ، وتوزع القلب ، وتغيرت الدنيا ، واحترب العالم كله مرتين ، ولكن صداقة الشباب ظلت راسخة الأصل فى أعماق الفؤاد لا يعبث بها الحدثان ولا ينال منها الزمن .

كنا ثلاثة فأصبحنا اثنين · طه حسين وأنا . أما محمود زناتى فقد سبقنا إلى الغاية التى لا بد أن يبلغها كل حى . مات محمود وبكاه طه فى (الأهرام) بكاء هز قلب الخلى واستدر عين الغريب . وبكاء طه على محمود بكاء على عهد مضى لن يعود ، وعلى صديق قضى لن يعوض . مات محمود على فراش غير دافىء ولا وثير ؛ لأنه كان وحيد أبويه ، كما كان أبوه وحيد جديه ، فلم يكن له من عصبته أخ ولا عم . وكان الله قد جعله عقيما فلم يكن له من صلبه ابن ولا بنت . ونزل به منذ ثلاث سنين مرض فادح طال وأعضل حتى سلبه الأمل وحرمه الراحة . ونقله بنو أخواله إلى ( ناى ) من أعمال القليوبية وهو فى نهاية الشوط ونزاع الروح . وكان طيلة مرضه إذا هذى ينشد شعر الشنقيطى وكان يحفظه كله ، وإذا وعى ذكر طه والزيات ، وتمنى لو يهادنه المرض وتعاوده الصحة فيغشى ما كان يغشى من أماكن ، ويزور ما كان يزور من أصحاب !

رحمك الله يا محمود وبرد بالغفران والرضوان ثراك ! لقد كنت حريصاً على

الوداد حين ضاع الوداد ، ومخيّاً بالوفاء حين عز الوفاء . وأحسن الله عزاءك وأطال بقاءك يا أخى طه ! لقد ذكرتنى أواخر الصبا وأوائل الشباب وعهداً غفل عنا الزمان فيه فنعمنا بالإخاء المحض والصفاء الخالص ! ومن الذى ينسى أيها الأخ الكريم ربيعه وهو فى الخريف ، وشروقه وهو فى الغروب ؟ لقد ابتدأنا فى الرواق العباسى ومعنا الشباب والأمل ومحمود ، ثم انتهينا إلى مجمع اللغة ومعنا الشيخوخة والذكرى ولا شىء !

في ذكرى مولد الرسول

# على جبل النور

( ٢ يناير سنة ١٩٥٠ )

قضى الصادق الأمين محمد بن عبد الله خمساً وعشرين سنة فى شعاب مكة وبطاحها يتيما فقيرا ، ثم راعيا صغيرا ، ثم تاجرا أجيرا ، فلم ينعم بدفء الفراش كمن لهم أم ، ولم يجلس أمام المعلم كمن لهم مال ؛ وإنما تولى الله تأديبه وتهذيبه لأنه أراد لنوره وبرهانه أن يشرقا فى هذا المنزل المتواضع ، ولمجده وسلطانه أن يظهرا فى هذا اليتيم الوادع ، ولعلمه وقرآنه أن ينزلا على هذا الأمى الحيي ، لتكون آيته أبهر للعيون ، ودعوته أبرع للعقول ، وكلمته أعلق بالأفئدة ، فكمله بالخلق العظيم والحياء الوقور والصبر المطمئن واللسان الصادق والذمة الوثيقة والقلب الشجاع ، ثم طهره من أرجاس الوثنية وأوزار الجاهلية ، فلم يشرب الخمر ، ولم يأكل الربا ، ولم يلعب الميسر ، ولم يشهد اللهو ، ولم يعنُ وجهه لصنم .

ثم شاء الله لمصطفاه أن ينعم بسكينة القلب ورفاغة العيش خمس عشرة سنة أخرى بعد ذلك فى ظلال زوجه الغنية الوفية خديجة بنت خويلد استعدادا لأعباء الرسالة ومكاره الدعوة ومجاهدة الشرك . وكان النبى الكريم فى هذه الفترة الهادئة السعيدة يؤثر الوحدة ويطيل السكوت ويديم التفكير : يفكر فى خلق السموات والأرض ، وينظر فى أمر قريش والعرب ، ويسأل نفسه : من الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، ودبر أمر هذه العوالم ، ونظم سير هذه الكواكب ؟ فتجيبه : إله آخر غير اللات والعزّى ومناة ، لا يحل فى بشر ولا يتمثل فى حجر ، ولا يتحيز فى مكان ، فيفكر محمد ويطيل التفكير . ويبحث

النبي ويعمق البحث ، ويتعبد المتحنث ويكثر التعبد . فإذا جاء شهر رمضان من كل سنة ، هجر المهاد اللين ، وفارق الزوجة الحنون ، وتزود الزاد اليسير ، ثم صعد إلى جبل حراء على ألف وخمسمائة متر من شمال مكة ، ليستعين بالصوم والاعتكاف على استجلاء الحقيقة . وهنا لك على قمة الجبل المخروطي الشاهق ، وفي صمته الملهم الرائع ، وفي غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر في الملكوت الدائم ، ويسبح للجلال القائم ، ويفنى في الوجود المطلق . فإذا جنه الليل أرسل نظره وفكره في أشعة القمر أو في أضواء النجوم ، يستطلع المجهول ، ويستجلي الغامض ، ويرقب انبثاق النور عن الخالق ، وانكشاف الستور عن الحق . حتى إذا أجهده التفكير وأرهقته الحيرة ، أوى إلى الغار الموحش النابي فيستلقي على صخره سويعات ثم يستيقظ قبل أن تغور النجوم ، فيتعبد ويتجه بروحه اللطيف الصافي إلى الملأ الأعلى حتى تهيأ بطول الرياضة والعبادة والخلوة إلى تبليغ الرسالة ، فرأى في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان من السنة الحادية والأربعين من مولده صلوات الله عليه وهو نائم في الغار أن رجلا جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب وقال له : اقرأ . فقال مأخوذاً من روعة ما رأى : ما أقرأ . فأحس كأن الرجل يخنقه ثم يرسله ويقول له : إقرأ . فقال : ما أقرأ . فعاد إليه بمثل ما فعل . فقال له : ماذا أقرأ ؟ خشية أن يعود إليه بمثل ما صنع . فقال له : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ؛ خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » فقرأها وانصرف الرجل عنه وقد نقشت في لوح قلبه .

وما لبث أن هب من نومه فزعاً مذعوراً يدير بصره في الأرض ، ويجيل طرفه في السماء . ثم تمثل له في اليقظة ما رآه في المنام فأدركه الخوف على نفسه فانطلق مسرعا إلى السكن الذي يسكن إليه ، وإلى الصدر الذي يحنو عليه ، فتلقته خديجة بالنظر المشفق والقلب العطوف ، فقال لها وهو ينتفض كأن به مساً من الحمى : زملوني ، فزملته . حتى إذا ذهب عنه الروع وعاودته السكينة ، نظر

إلى زوجه نظر اللائذ العائذ وقال لها : ياخديجة ، مالى ؟ وحدثها بالذى رأى ، فطمأنته وقالت له : أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً : إنك لتصل الرحم وتصدُق الحديث وتؤدى الأمانة وتحمل الكلّ وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

وفتر الوحى مدة جزع لها محمد وقلقت خديجة . ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقول الله تعالى : يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر » فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث سنين فى طى الخفاء ، حتى أوحى الله إليه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، وأنذر عشيرتك الأقربين » فعالن بالدعوة قريشاً وسفه أحلامها وعاب أصنامها ، فكاشفوه بالعداء ، وقصدوه بالإيذاء ، وهو يتلقى كيدهم بجُنة صبره وعُدّة إيمانه ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه ، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقويه . ولكن قريشاً أنذروا أبا طالب لئن لم يكف ابن أخيه عما هو فيه ليقاتلنّه هو وإياه حتى يهلك أحد الفريقين ، فلما أعاد أبو طالب قولهم على سمع الرسول أجابه ذلك الجواب الذى خيّس أنف الشيطان ، وغير وجه الزمان ، وحسم الأمر بين التوحيد والشرك . قال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » فلم يسع العم النبيل إلا أن يقول له : « اذهب ياابن أخى فقل ماأحببت فو الله لاأسلمك لشىء تكرهه أبداً » .

عند ذلك تألبت على الرسول عناصر الشرك جمعاء ، فأصيب فى بدنه ، واتهم فى عقله ، وأوذى فى أهله ، وعذب فى صحبه . ثم فجعه الموت فى عمه الشهم وزوجه المخلصة فى يومين متقاربين من السنة العاشرة للرسالة ، فاشتد عليهما حزنه وحرج بعدهما فى مكة مقامه ، فخرج منها إلى الطائف يدعو ثقيفا إلى الله فأغروا

به صبيانهم وسفهاءهم فقذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه . فلجأ إلى بستان يعصمه منهم ، وتفيأ شجرة من شجر الكرم وهو يدعو الله ويقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » .

ولما نبت قفار مكة على الغراس الإلهى انتوى الرسول الهجرة بالمسلمين إلى المدينة ، وقد أسلم فيها جماعة من الأوس والخزرج ، فأحس المشركون منه هذا العزم فائتمروا به ليقتلوه . ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى طيبة ، تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسبيل . وهنالك تجلت فى الرسول مواهب الكمال الإنسانى فحشد للخصومة قوى النفس وقوى الحس فجاهد بالصدق ، وجالد بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأى وأثر باللسان وقهر باليد . وتلك مزيته الظاهرة على النبيين والرسل . فكل نبي وكل رسول إنما بان شأوه على قومه فى بعض المزايا ، إلا الرسول العربى فقد تم فيه ما نقص فى غيره من معجزات الرجولة . كان رسولا فى الدين ، وعلماً فى البلاغة ، ودستورا فى السياسة ، وإماما فى التشريع ، وقائدا فى الحرب . وبهذه المواهب التى نشأت فى محمد بالفطرة ، وانتقلت إلى أصحابه بالقدوة ، أصبح الإسلام الذى بدأ بخديجة وعلى وأبى بكر وزيد ، دين الناس ودنيا العالم . يقف به فى آخر الغرب عقبة بن نافع على شاطىء المحيط الأطلسى ويقول وقد خوض جواده فى الماء : « اللهم رب محمد ! لولا هذا البحر لفتحت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمتك اللهم اشهد » ويتجه به إلى آخر الشرق قتيبة الباهلى ، ويأبى إلا أن يوغل فى بلاد الصين ، فيقول له أحد أصحابه محذراً : « لقد أوغلت فى بلاد الترك ياقتيبة والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر » فيجيبه : « بثقتى بنصر الله توغلت قتيبة وإذا انقضت المدة ، لم تنفع العدة » فيرد عليه المشفق المحذر : « أسلك سبيلك حيث شئت ، فهذا عزم لا يفله إلا الله » .

فليت شعرى يا علماء الإسلام ويازعماء العرب ، ماذا فى نفوسناوأيدينا من دين محمد وأخلاق محمد وتراث محمد ؟ ألسنا نعيش اليوم مسلمين من غير إيمان ، ومستقلين من غير سلطان ، ومتحالفين من غير ألفة ؟ وهل كان ذلك يكون لو اتخذنا من أحكام الله منهاجا ومن وصايا رسوله علاجا ومن حياة السابقين الأولين قدوة ؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة . فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشاربها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة !.

# الوضع اللغوي وحق المحدثين فيه

( ٩ يناير سنة ١٩٥٠ )

يذكر لي موضوع الوضع اللغوي وهل للمحدثين حق فيه بطائفة من البديهات كان المعلمون الطيبون يكلفون بها تلاميذهم ، كفضائل العلم ، ومحاسن الأدب ، وفوائد الثياب ، فيكتبها التلاميذ على أنها واجب يؤدى ، ويقرأها المعلمون على أنها أجمل تصحح . والواقع أنى سألت نفسي حين اقترح على هذا الموضوع : ما الفرق بين سؤالنا هل للمحدثين حق في الوضع اللغوى وسؤالنا : من الذى يملك على التراث حق الانتفاع به وحق التصرف فيه ؟ أهو الميت الذى ورّث ثم غاص في أعماق العدم ، أم هو الحى الذى ورث ولا يزال يضطرب فى آفاق الوجود ؟ أو سؤالنا : من الذى يملك أن يزيد فى اللغة أو يهذب منها وهى وسيلة الفهم والإفهام ؟ هو اللسان الذى سكت وبلى وانقطعت أسبابه بالحياة ، أم هو اللسان الذى لا يزال يتحرك ويلغو ليسمى كل وليد تضعه القريحة ، ويعبر عن كل جديد تخلقه الحضارة ؟

أليست الأجوبة عن هذه الأسئلة هى من نوع ذلك الكلام الذى كان تمتحن به عبقريات الأطفال فى سنيهم الأولى ؟

إذن ما الذى سوغ أن يكون مثل هذا الموضوع من الموضوعات التى أقرها المجمع لتلقى فى المؤتمر ؟ سوغه أن الحق فى الوضع اللغوى على وضوح الرأى فيه ، كان عقبة من العقبات التى أقامها المجمع لنفسه بنفسه . وذلك أن المجمع وهو وحده السلطة التشريعية العليا للغة العربية يستطيع فى حدود قواعدها

(١) نص المحاضرة التى ألقيت فى مؤتمر مجمع اللغة العربية فى جلسة ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٩ .

الموضوعة وقوالبها الموروثة أن يزيد عليها وينقص منها ويغير فيها ، ولكنه يعطل مختاراً هذه القدرة التى يؤتيها غيره باستشارته القدماء فى كل إصلاح لغوى يقترحه ، وفى كل قرار نحوى يقره . واستشارة الماضين فى شؤون الباقين مع تبدل الأحوال وتغير الأوضاع وتقدم العلوم وتفاوت العقول واختلاف المقاييس ، تكون فى أكثر الأحيان معطلة أو مضللة . فلو أن معالى رئيس المجمع استشارهم مثلا فيما ينقل من كتب أرسطو لقال له ابن فارس وهو من رجال القرن الرابع : زعم ناس أن علوما كانت فى القرون الأوائل والزمن المتقادم ، وأنها درست وجددت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقوله من لغة إلى لغة . وليس ما قالوا ببعيد ، وإن كانت تلك العلوم بحمد الله وحسن توفيقه مرفوضة عندنا » .

ولو أن معالى وزير المعارف استشارهم مثلا فى البعثات التى يبعث بها فى طلب العلم إلى أوربا وأمريكا لقال له الشيخ محمد عليش مفتى المالكية فى أواخر القرن الثالث عشر فى رسالته التى رد بها على عالم من علماء الجزائر أفتى بجواز لبس القبعة للطلاب المسلمين الذين يطلبون العلم فى فرنسا ما نصه : « تقرر فى شريعة الإسلام أن السفر لأرض العدو للتجارة جرحة فى الشهادة ومخل بالعدالة فضلا عن توطنها وطلب العلم بها . والمقرر فى شريعة المسلمين أن المطلوب تعلمه من أقسام العلم ، العلوم الشرعية وآلاتها وهى علوم العربية ، وما زاد على ذلك لا يطلب تعلمه بل ينهى عنه . ومن المعلوم أن النصارى لا يعلمون شيئاً من العلوم الشرعية ، ولا من آلاتها بالكلية ، وأن غالب علومهم راجع إلى الحياكة والقبانة والحجامة وهى من أخس الحرف بين المسلمين ، وقد تقرر فى شريعتهم أنها بالعدالة » .

عرض المجمع الموقر لمسألة التعريب وهى مسألة حلها الشعر القديم والقرآن

الكريم والسنة الصحيحة والدول المتعاقبة والطبيعة التى تنشىء الأمم بالتوالد والتجنس ، والحضارة التى تسد عوزها بالأخذ والاقتباس ؛ ولكن المجمع رأى مع كل أولئك أن يستفتى فيه المتقدمين ، فقالوا :

— لا يملك التعريب إلا من يملك الوضع .

— ومن الذى يملك الوضع ؟

— يملكه العرب الذين يعتد بعربيتهم .

— ومن هم العرب الذين يعتد بعربيتهم .

— هم قوم محصورون فى حدود معينة من المكان والزمان لا يتعدونها : حدودهم المكانية شبه جزيرة العرب على تفاوت بينهم فى درجات الفصاحة . وحدودهم الزمانية آخر المائة الثانية لعرب الأمصار ، وآخر المائة الرابعة لأعراب البوادى . هؤلاء هم الذين تنزّل عليهم وحى اللغة ، وألهموا سر الوضع ، فكلامهم حجة ، وأقوالهم حكمة ، وصوابهم قاعدة ، وخطأهم شذوذ ، وضرورتهم مقبولة

— إذن من نكون نحن ؟

— طبقة مولدة فقدت أهلية الأصل فلا ترتجل ، وأضاعت مزية الفرع فلا تشتق . إنما تتكلمون ماتحفظون . فإذا وقع لكم مالم يقع للعرب الخلص من الأعيان والمعانى فعبر عنه بأى لسان تشاءون ولا شأن لنا به .

ولقد كان لنا أيها السادة غُنية عن هذه الفتوى بحكم الرسول صلوات الله عليه حين سمع أن منافقا نال من عروبة سلمان الفارسى فدخل المسجد مغضباً وقال : « أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » ونحن بحمد الله نتكلم العربية ونحرص عليها ونتعصب لها ونريد أن نهذب منها ونزيد فيها

وكان بحسبنا فى تزييف قول ابن فارس : « ليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ماقالوه ، ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه » قول فيلسوف العربية ابن جنى : ( ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ) ، ولكن القدماء رووا قول الرسول ، ووعوا قول ابن جنى ، وسمعوا كثيراً من نحو ذلك . ثم ظلوا متبلدين يهابون الوضع ولا يقطعون فيه برأى . وإذا حاولنا أن نعلل هذا التبلد وتلك الهيبة كان أول مايخطر فى الذهن تلك القداسة التى أسبغوها على اللغة العربية لصلتها الوثيقة بالدين ، فهى لغة القرآن والحديث ، وأداة التحدى والإعجاز ، ولسان الدعوة والخلافة ، فالعناية بها عناية بكلام الله ، والتعصب لها تعصب للغة الرسول ، ولذلك وضعوا النحو والصرف ، ورسموا النقط والشكل ، واستنبطوا المعانى والبيان ، وقطعوا بوادى الحجاز ونجد وتهامة ليسمعوا المناطق المختلفة ، ويجمعوا الألفاظ الغريبة ، فأخذوا أكثر ما أخذوه عن قبائل قيس وتميم وأسد ، وتحاموا الأخذ عن الأعراب الضاربين على التخوم الموبوءة بالعجمة ، وعن العرب المتصلين بالأجانب فى التجارة .

فعلوا ذلك ليدرأوا عن العربية شبهة العجمة ويبرئوها من تهمة الدخيل ، وظنوا أنهم استطاعوا ذلك فقالوا : ليس فى كتاب الله شىء من لغة العجم ، يتأولون بذلك قول الله تعالى « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وقد جهدوا جهدهم فى التماس الأصول العربية لجميع الكلمات الأعجمية فجاءوا من ذلك بما لا يتفق مع فضلهم ، كقولهم فى الخندريس مثلا ، وهى تعريب خندروس باليونانية : « الخندريس : الخمر القديمة . واشتقاقه من الخدرسة ولم تفسر ، أو من الخدر لأن شارب الخمر ربما أصيب به ، أو من الخرس لأنه فى حال السكر يصير كالأخرس ! »

وقد حاول مثل هذه المحاولة فقيد المجمع المرحوم الأب أنستاس مارى

الكرملى فكتب طائفة من الفصول فى مجلته ( لغة العرب ) بعنوان ( العربية مفتاح اللغات ) ورد فيها كثيراً من الكلمات الأفرنجية إلى أصول عربية كقوله مثلا : إن كلمة imbécile الفرنسية ومعناها الأحمق ، مأخوذة من الكلمة العربية بأقل العيي العربي المشهور . و يقول إن القاف فى العربية تكون كافا فى اللاتينية وسينافى الفرنسية ؛ فإن رددناها إلى اللاتينية وجردناها من الزوائد كانت باكول أو بأقل . وقد افتعل عليه أدباء الشام والعراق طرفا من مثل ذلك فزعموا أنه يقول إن (جرسون) أصلها العربى جار الصحون ، خففت الراء والصاد ثم حذفت الحاء لعسر النطق بها !

ولقد غلا الأقدمون فى تقديس العربية حتى ادعوا أن واضعها الأول هو الله سبحانه ، محتجين بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » وهى حجة لا تنهض بدعواهم إلا إذا ثبت أن الأسماء التى علمها الله آدم كانت عربية ، والذين فندوا هذا الرأى وقالوا إن اللغة اصطلاح لا توقيف ، أكبروا هذه اللغة عن أن يضعها الأعراب والأوشاب والعامة ، فتوهموا لها واضعاً لم يسموه ولم يعرّفوه ، و إنما تخيلوه منقطعاً فى خيمته للوضع ، كما ينقطع الناسك فى صومعته للعبادة . فيذهب إليه الناس كما يذهبون اليوم إلى القصاب والبدال يسألونه ما اسم هذا الشيء ؟ وما لفظ هذا المعنى ؟ فيجيبهم عما سألوا فيحفظونه و ينشرونه . قال صاحب الخصائص : « إن واضع اللغة لما أراد صوغها وترتيب أحوالها هجم بفكره على جميعها ، ورأى بعين تصوره وجود جملها وتفصيلها ، وعلم أنه لابد من رفض ما شنع تأليفه نحو هع وقج فنفاه عن نفسه » .

وقال صاحب المثل السائر : « حضر عندى رجل من علماء اليهود بالديار المصرية ، فجرى ذكر اللغات وأن اللغة العربية هى سيدة اللغات ، فقال اليهودى : وكيف لا تكون كذلك و إن واضعها تصرف فى جميع اللغات السالفة فاختصر

ما اختصر وخفف ما خفف ؛ فمن ذلك اسم الجمل ، فإنه عندنا فى اللسان العبرانى (كوميل) فجاء واضع اللغة العربية وحذف من الكلمة الثقل المستبشع وقال (جمل) . وقد صدق فى الذى ذكره » .

هذه القداسة أيها السادة التى كسبتها العربية من القرآن والحديث أكسبتها هى أيضاً العرب وجزيرة العرب فى تلك الحقبة المحدودة . مصداق ذلك أن علماء المصرين البصرة والكوفة لم يدعوا فى البوادى العربية بقعة ولا صخرة ولا نبتة ولا حشرة ولا وجهاً من وجوه الأرض ، ولا ظاهرة من ظواهر السماء إلا عرفوها ووصفوها وسجلوها ، ورووا ما قيل فيها من الشعر ، وقصوا ما جرى عليها من الوقائع ، ولم يتركوا من مناطق البدو ووسائل حياتهم ومظاهر اجتماعهم ومختلف عاداتهم لفظة ولا لهجة ولا حالة ولا أداة ولا لعبة إلا جمعوها ودونوها حتى الكلمة الغريبة والعبارة المهجورة والصيغة المماتة ، فاجتمع لهم من كل أولئك سجل محيط شامل فرضوه بفضل هذه القداسة على جميع المتكلمين بالعربية فى العصور الأربعة والقارات الثلاث ، فظلوا على رغم ما بلغوه من السلطان والعمران والمدنية والعلم والأدب والفن يستعملون أمثال للبدوى وصوره وأخيلته ومجازاته وتشبيهاته وكناياته ، فيقولون مثلا : جاءوا على بكرة أبيهم ، وألق دلوك فى الدلاء ، وقلب له ظهر المجن ، وضرب إليه أكباد الإبل ، وركب إليه أكتاف الشدائد ، واقتعد ظهور المكاره ، وأنبت حبل الرجاء ، وضل رائد الأمل ، وهو شديد الشكيمة ، وله غرر المكارم وحجولها ، وإن حلمه أثبت من ثبير وأوقر من رضوى ، وأوسع من الدهناء . ولو ذهبت أستقصى هذه الأوضاع وتلك التراكيب لما أبقيت فى المعجم إلا المصطلحات التى فرضها الدين والمعربات التى أقحمتها الحضارة .

ثم اعتقدوا أن اللغة قد كملت فى عهد الرواية كما كمل الدين فى عهد الرسالة

تخم الرواة السجل ، وأغلق علماء اللغة باب الوضع ، كما أغلق فقهاء السنة باب الاجتهاد ، وتركوا الأمة العربية التي امتد ملكها من الهند والصين شرقا إلى جبال بيرانس غربا ، تتعامل خارج (البورصة) ، وتتجاوز حدود المعجم ؛ كأنهم نسوا أن اللغة لا يمكن أن تثبت ثبوت الدين ، ولا أن تستقل استقلال الحي ، لأنها ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . والأغراض لا تنتهي . والمعاني لا تنفد ، والناس لا يستطيعون أن يعيشوا خرساً وهم يرون الأغراض تتجدد ، والمعاني تتولد ، والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع ، والعلوم تطالبهم كل حين بمصطلح ؛ ولا علة لهذا الخرس إلا أن البدو المحصورين في حدود الزمان والمكان لم يتنبأوا بحدوث هذه الأشياء ، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء !

ترتب أيها السادة على إغلاق باب الوضع ، وتخصيص حكم القياس ، وتقييد حق التعريب ، وإنكار وجود المولد ، وطرد الأمة العربية بأسرها خارج الحدود . أن حدث أمران خطيران كان لهما أقبح الأثر وأبلغ الضرر في كيان اللغة وحياة الأدب .

الأمر الأول طغيان اللغة العامية طغيانا جارفا حصر اللغة الفصحى في طبقات العلماء والأدباء والكتاب والشعراء يكتبون بها الملوك ، و يؤلفون فيها للخاصة ؛ وسيطرتها على حياة الأمة في شؤونها العامة وأغراضها المختلفة ؛ لأن العامية حرة تنبو على القيد ، وطبيعية تنفر من الصنعة ؛ فهي تقبل من كل إنسان ، وتستمد من كل لغة ، وتصوغ على كل قياس . وبذلك اتسعت دائرتها لكل ما استحدثته الحضارة من المفردات المولدة والمقتبسة في البيت والحديقة والسوق والمصنع والحقل والناس في سبيل التفاهم يؤثرون السهل ، و يستعملون الشائع ، و يتناولون القريب . وتخلف اللغة عن مسايرة الزمن وملاءمة الحياة معناه الجمود . والنهاية المحتومة لجمود اللغة اندراسها بتغلب لهجاتها العامية عليها وحلولها محلها ، إذ تكون بسبب

مررونتها وتجددها ، أدق تصويراً لأحوال المجتمع ، وأوفى أداء لأغراض الناس. وهذا ما حدث للغة اليونانية القديمة حين خلفتها اليونانية الحديثة ، واللاتينية حين ورثتها الفرنسية والإيطالية والأسبانية . وهذا ما كان يحدث حتما للعربية الفصحى لولا أنها لغة القرآن . واللغات السامية كما يقول ( رينان ) مدينة ببقائها للدين فلولا اليهودية ما بقيت العبرية ، ولولا المسيحية ما عاشت السريانية ، ولولا الإسلام ما حفظت العربية .

والأمر الآخر حرمان الفصحى كل ما وضعه المولدون من الألفاظ ، وما اقتبسوه من الكلمات ، لأن اللغويين الذين أقاموا أنفسهم على أسرار اللغة مقام الكهنة على أسرار الدين ، أبوا أن يعترفوا بهذه الثروة اللفظية الضخمة لصدورها عمن لا يملك الوضع والتعريب بزعمهم ، فحرموا اللغة مورداً ثرا كان يقيها الجفاف والذبول ، ويؤتيها النماء والخصب . ولولا أن العلماء والمترجمين — وجلهم من غير العرب — تجاهلوا أوامر اللغويين في الوضع والتعريب لما استطاعوا أن ينقلوا إلى العربية علوم الأولين من فرس ويونان وهنود ويهود ، ولما قال أبو الريحان البيروني في العربية : « وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة . والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية » .

وقد أدى احتقار اللغويين للغة المولدين إلى احتقار الأدباء لأدب العامة . فكما أن أولئك لم يدونوا في معجماتهم الكلام المولد ، لم يدون هؤلاء في مؤلفاتهم الأدب الشعبي . ولو أنهم دونوا أحسن ما دار على الألسنة في جميع الطبقات والبيئات من الأمثال والحكم والمجازات والكنايات والطرف لوفروا للغة الفصحى وللأدب العالي مورداً لا ينضب ومادة لا تنفد فإن العامة كانوا تسعة أعشار الأمة العربية وهي في أوج سلطانها ، وأكثرهم أعقاب أمم مختلفة الجنسية والعقلية والعقيدة ،

دخلوا فى دين الله أو عاشوا فى كنفه ، واتخذوا العربية العامية لغة لهم أودعوها معانيهم وتصوراتهم ، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم ؛ فكانت أمثالهم تسير ، وأقاصيصهم تحكى ، ومصطلحاتهم تنقل ، ومواضعاتهم تذيع . فإذا كانت الفصحى نهراً تجمع من أمطار ، فإن العامية بحر تجمع من أنهار . والنهر إذا أخلفه الغيث غاضت منابعه وجفت مجاريه ، ولكن البحر إذا أخلفه رافد هنا أمدته روافد هناك .

ولست أذكر مزايا العامية لأهتف بها وأدعو إليها ، وإنما ذكرتها لأقول إن سادتنا اللغويين وأدباءنا الأولين لو أنهم أزالوا هذا السد الذى جعلوه بين اللغتين لاكتسبت الفصحى من العامية السعة والمرونة والجدة ، واكتسبت العامية من الفصحى السلامة والصيانة والسمو ، ولكان لنا من تداخل اللغتين وتفاعلهما لغة تجمع بين محاسن هذه ومحاسن تلك . فأما مساوىء الفصحى أو عنجهيتها فتموت كما يموت الحوشى المهجور من كل لغة . وأما مساوىء العامية أو حثالتها فتبقى على الألسنة التى تستذيقها من الطبقات الدنيا وتكون هى اللغة العامية التى لابد منها فى كل لغة من لغات العالم ؛ ولكن بالنسبة القليلة التى لا تطغيها على الفصحى ولا تفرضها على الناس .

سادتى : إن حق المحدثين فى الوضع مقرر بالطبيعة فلا مساغ للنزاع فيه . وإن الذين أنكروه لم ينكروه بقول يناقش ولا حجة تسمع ، إنما قولهم فيه أشبه بقولهم فى كتابة المصحف . فقد قالوا لا بد أن نكتب القرآن بالرسم الذى كتب به فى زمن عثمان ، فنكتب الصلاة بالواو ونلفظها بالألف ، ونكتب (والسماء بنيناها بأيد ) بياءين ونلفظها ياء واحدة ، ونكتب (الشىء) بألف زائدة بين الشين والياء وننطقها بدونها . ولو كان هذا الرسم موحى من الله على رسوله لآمنا به وحرصنا عليه ، ولكنه من عمل قوم كانوا قريب عهد بالخط فوقع فيه الخطأ والنقص والإشكال . والغرض من كتابة القرآن أن نقرأه صحيحاً لنحفظه صحيحا ، فكيف

نـكتبه بالخطأ لنقرأه بالصواب ؟ وما الحـكمة فى أن نقيد كتاب الله بخط لا يكتب به اليوم أى كتاب ؟ و إذا احتجنا فى دفع هذه الأقوال إلى غير الوجدان فلن يصح شيء فى الأذهان كما يقول أبو الطيب .

بقى أن نعرف من هو المحدث الذى يملك حق الوضع . أهو فرد معين أو جماعة معينة كما كان يظن الأوائل ، أم هو كل فرد وكل جماعة يتكلمون العربية وتدعوهم الحاجة إلى وضع اللفظ للمعنى الذى ولدوه ، وللشيء الذى أوجدوه ؟ إن حق الوضع حق مطلق لا يتخصص بأحد ولا يتعلق بظرف . يملـكه الفرد والجماعة ، وتملـكه الخاصة والعامة . فالعلماء يضعون مصطلحات العلوم ، والرياضيون يضعون مصطلحات الرياضة ، والأطباء يضعون مصطلحات الطب ، والفقهاء يضعون مصطلحات الفقه ؛ الفقه كما أن الصناع يضعون لغة المصنع والورشة ، والزراع يضعون لغة الحقل وَالحظيرة ، والتجار يضعون لغة الدكان والسوق . ومجمعكم الموقر يشارك هؤلاء وأولئك فى الوضع والتعريب ؛ ويختص دونهم جميعاً بالتسجيل والتصديق . فأيما كلمة توضع لا تدخل فى اللغة قبل أن يسمها بميسمه و يدخلها فى معجمه و بغير ذلك نقع فيما وقع الأولون فيه من تعدد الوضع فى المرتجل واختلاف الصيغ فى المشتق .

و إذا سمحتم أيها السادة أن أجعل لهذه الـكلمة نتيجة إيجابية فأنى أتقدم إلى معالى رئيس المجمع باقتراح يشمل أربعة أمور أرجو أن يأذن فى عرضها عليكم لتمحصوها وتصدروا قراركم فيها :

١ ـ فتح باب الوضع على مصراعيه بوسائله المعروفة وهى الارتجال والاشتقاق والتجوز .

٢ ـ رد الاعتبار إلى المولد ليرتفع إلى مستوى الـكلمات القديمة .

٣ ـ إطلاق القياس فى الفصحى ليشمل ما قاسه العرب وما لم يقيسوه ، فان توقف القياس على السماع يبطل معناه .

٤ — إطلاق السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين وغيرهم من كل ذى حرفة .

فإذا أقررتم هذا الاقتراح أيها السادة دفعتم معرة العُدم والعقم عن هذه اللغة الكريمة التى سمعناها فى القرن الخامس تصف ناقة طرفة فتسمى أعضاءها عضواً عضوا ، وتنعت أوضاعها وضعاً وضعا ، فى أربعة وثلاثين بيتاً من معلقته ؛ ثم نراها فى القرن العشرين تقف أمام سيارة فورد بكماء بلهاء ، تشير ولا تسمى ، وتجمجم ولا تبين . وإنى أشكر لكم ياسادتى حسن التفاتكم وكرم إصغائكم ؛ والله يهدينا الطريق ويلهمنا التوفيق .

# الإسلام والمذاهب الهدامة

( ١٣ مارس ١٩٥٠ )

الإسلام هو السلام الإلهي على هذا الكون . شرعه الله وهو العليم الخبير ليكون للناس جميعاً دستوراً كاملا تصلح عليه شؤون الفرد وأمور الجماعة من كل جنس وفي كل عصر وعلى كل أرض .

جمع فيه أفضل ما في الديمقراطية ، وأعدل ما في الاشتراكية ، وأجمل ما في المدنية ؛ ثم كشف لرسوله الكريم عن أطوار النفس البشرية في طوايا الغيب فدعا دعوته الخالدة لتكريم الإنسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة من طريق التوحيد والمؤاخاة والمساواة والحرية والسلام . فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هي الغايات التي ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق النظم السياسية والمذاهب الاجتماعية فلا تتكشف أمامها بعد طول الجهاد وفرط الجهد إلا عن سحاب خلب وسراب خادع .

ثم علم الله جلت حكمته وعز شأنه أن الفقر من أمراض المجتمع المحتومة مادام في الناس القادر والعاجز والقانع والطامع والسابق والمتخلف ، فعالجه علاجاً لو دأب عليه المسلمون لعاشوا إخوة متعاطفين متناصرين ؛ تجد فيهم الفقير ولا تجد المحروم ، وترى بينهم الضعيف ولا ترى المظلوم ، لأن دينهم جعل بين الغنى والفقير سبباً هو البر وأنشأ بين القوى والضعيف نسباً هو الرحمة . ولو أخذ به المصلحون لوقى العالم شر هذه النحل الهدامة التي تثير بين الدول النزاع والحرب ، وتنشر بين الأمم القلق والثورة . ذلك العلاج الإلهي هو الوساطة بين الأغنياء

والفقراء على أساس الاعتراف بحق التملك ، والاحتفاظ بحرية التصرف ، فلا يدفع مالك عن ملكه ، ولا يعارض حر فى إرادته . إنما جعل للفقير فى مال الغنى حقاً معلوماً لا يكمل دينه إلا بأدائه . ذلك الحق هو الزكاة وهى الركن الثالث من الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام . وليست الزكاة بالقدر الذى يخفى أثره فى حياة الفقير ، فهى ربع العشر فى المال وما يقدر بنحو ذلك من غيره . فإذا جُبيت الزكاة بالأمانة على حسابها المقدر ، ووزعت بالعدالة فى نظامها المفروض ، شفت النفوس من الحقد ، وأنقذت المجتمع من البؤس ، فلا تجد سائلا فى شارع ، ولا جائعاً فى بيت ، ولا جاهلا فى عمل . ذلك العلاج الذى عالج به الإسلام الفقر فيه البر والرحمة من صاحب المال ، والرضا والقناعة من صاحب العمل ، والرعاية والعدل من صاحب الحكم . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ولكن أصحاب النحل الخبيثة وذوى المطامع الخسيسة لم يرضهم فى الزمن الغابر ولا يرضيهم فى الزمن الحاضر أن يعيش الناس وادعين راضين فى ظلال النظم المشروعة ، فهبوا يعارضون أوامر الله ووصايا الرسل بتسليط الغرائز وتحكيم الشهوات وإثارة الفتن ، فتمردوا على الدين ، وتحللوا من الخلق ، وتحرروا من القيود ، وقال القرامطة : « لا حقيقة فى هذا الوجود وكل أمر مباح » بذر هذه البذرة فى الشرق الإسلامى بابك الخرمى فى القرن الثالث من الهجرة . ومن بعده عبد الله بن ميمون . ومن بعده الحسن الصباح شيخ الجبل ، وأغروا بثمارها المحرمة عبّاد اللذة وروّاد المنكر من ضعاف العقول وصغار الأنفس ، وأمعنوا فى الغى والضلال ، واشتركوا فى النساء والأموال : وفى سبيل ذلك نشروا الإرهاب ، وبددوا النظام ، وزعزعوا الأمن .

كان أولئك الطاغون الخداعون يقترفون هذه الكبائر تحت ستار من الدين

والخلق : فبسلطان الدين كانوا يشيعون الإلحاد ، وباسم الخلق كانوا ينشرون الاباحية . ولكن للإسلام منبعين من كتاب الله وسنة رسوله لا يزالان يتدفقان بالصفاء والطهر والعذوبة ، فإذا تلوثت مجاريه البعيدة بمثل هذا الدنس أقبل الفيض الإلهى فجرف تياره القوى كل عفن ، وطهر ماؤه النقى كل رجس .

وفى هذا العصر الحديث تجددت المزدكية والبابكية باسم الفوضوية والشيوعية فقامتا تدعون باسم الإنسانية إلى الإلحاد والاباحية سراً وعلانية . تقول الشيوعية للاسلام : إن ربك ظالم لا يعرف العدل . جائر لا يعرف المساواة ، مستبد لا يعرف الحرية . لا يعرف العدل لأنه يقول : والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، وأنا أريد أن يكون الرزق مشاعاً ينال كل امرىء منه ما يشاء . ولا يعرف المساواة لأنه يقول : ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ، وأنا أريد أن يكون الناس جميعاً فى كل أمر سواء . ولا يعرف الحرية لأنه قيد كل شىء بقيد : قيد الرزق بالملكية ، وقيد المرأة بالزوجية ، وقيد تصرف النفوس بالعقيدة والخلق ، وقيد تداول الأموال بالوقف والإرث . أما أنا فأقول كل شىء مشاع ، وكل أمر مباح ، وكل إرادة طليقة ، حرمت الملكية ، ومحوت الأسرة ، وألغيت الجنسية ، وأنكرت الوطنية ، وجعلت المزارع والمصانع والنساء وسائل للإنتاج العام : آخذ من كلٍّ حسب كفايته ، وأعطى كلا على حسب حاجته . على الناس أن يعملوا ، ولهم أن يأكلوا . . أما أن يكون للافراد أملاك تغنيهم عن الإنتاج ، وللآباء أبناء يشغلونهم عن العمل ، فذلك فى شرع الشيوعيين لا يجوز . الملك مِلك الدولة ، والولد ولد الدولة . وليس بين الرجل ووطنه ، ولا بين الولد ووالده ، إلا كما يكون بين القطعان والمرعى ، أو بين الحملان والكبش !

ذلك ما يقوله الشيوعيون فى الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

يزعم الشيوعيون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه فى تقسيم رزقه . فهم لذلك ينكرون دينه ، ويغيرون شرعه ، ويحاولون أن يهدموا كل ما أنتجته القرائح وخلفته القرون ليبنوا على أنقاض ذلك كله شيئاً لا يقولون صراحة ما هو : ولا يرُون الناس جهرة كيف وهو ؛ وإنما يضربون من دونه الأسداد والحجب . فلا يقع فى الأسماع منه إلا ما يريدون هم أن يقع ! وفاتهم قبل أن يلغوا الفضائل والعقائد والقيم أن يلغوا العقول حتى يصدق الناس أن هذا الشيء الذى يذكر فى السر ، ويدبر فى الظلام ، ويبذل فى سبيله الأموال والأنفس والثمرات والجهود ، إنما يقصد به العدل المطلق والخير العام ، ولا يقصد به طغيان بشر على إله ، ولا سلطان دولة على عالم !

ليست الشيوعية عقيدة تقوم على الخير ، ولا طريقة تعتمد على الحق ، ولا رسالة تؤدى بالمعروف ، إنما هى أطماع من عمل الشيطان وسوس بها فى صدر جماعة من مغامرى الروس كابدوا استبداد القيصرية ، وقاسوا استعباد الأرستقراطية ، فلم يكادوا يثلون عرش المستبد ويقوضون صرح المستعبد ، حتى أدركهم مركب النقص ، وأخذتهم سورة الانتقام ، فتقاسموا بينهم جبروت القياصرة وصاف الأشراف ، وسخروا كل ما تنتج العقول وتخرج المصانع وتنبت الأرض للجيوش والأسلحة ليتخذوا عباد الله كلهم عبيداً ، ويجعلوا أرض الله كلها لهم ضيعة !

حزب من ستة ملايين قيصر قد أعد الحديد والنار والدمار والقلق والفزع والاضطراب والفوضى لتنفيذ هذه الخطة وبلوغ هذه الغاية ! فهل يقدر الله أن تنهزم

القوى الخيرة أمام هذا الشر ، وتنخزل[1] المبادىء الصالحة عن هذا الفساد ؟ حاش لله أن يؤتى ملكه غير البر ، وأن يورث أرضه غير الصالح ، فأما الزّبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

إن العقلية العربية معمرة فلا تقبل الهدم ، وإن العقيدة الإسلامية نيرة فلا ترضى الضلال ، وإن النحل الهدامة التى انتشر ظلامها حيناً فى سماء العراق إنما كانت خارجة عن الإسلام طارئة على العرب : وإن الشرق العربى سيظل بفضل عقليته وعقيدته آمناً من كل سوء نابيا على كل فتنة .

(١) انخزل عن الشىء : تعوق عنه وانحبس .

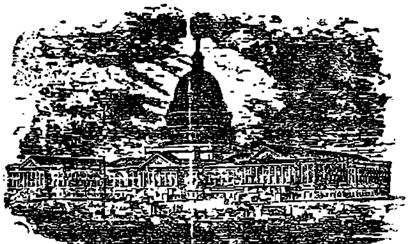

# علي طه بين المهد واللحد

( ٦ مارس سنة ١٩٥٠ )

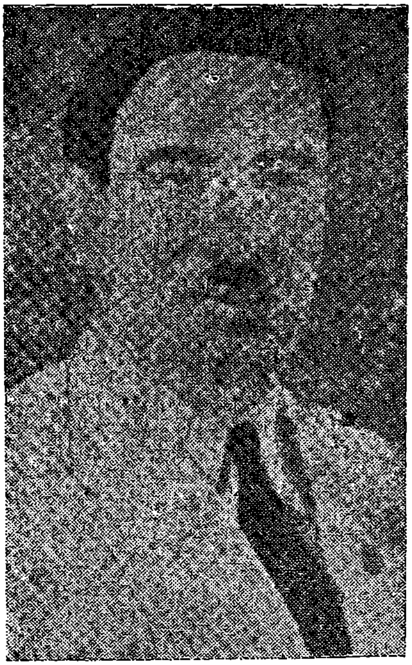

سادتي أقرباء علي طه ،

وأصدقاء علي طه !

نحن هنا في البلد الذي خرج فيه إلى نور الوجود ، ونحن هنا في البلد الذي رجع فيه إلى ظلام العدم !

نحن هنا في البلد الذي قدم إليه المهد مزيناً بأوراد الربيع ، مشرقاً ببسمات الحب ، محفوفاً بنظرات الأمل . ونحن هنا في البلد الذي أعد له اللحد مكللا بأزهار الخريف ، مبللا بعبرات الأسى ، مودعاً بحسرات الذكرى !

نحن هنا في البلد الذي نشّأ علياً على حب الجمال ، وهيأ علياً لرسالة الشعر ، ووجه علياً إلى طريق المجد . ونحن هنا في البلد الذي خُتم فيه على القلب الشاعر ، وضُرب فيه على السمع الواعي ، وحكم فيه على اللسان البليغ !

---

الكلمة التي ألقيت في تأبين الأستاذ علي محمود طه بالمنصورة مسقط رأسه .

من هذا الشاطىء ، شاطىء المنصورة ، ركب الملاح زورقه الهائم(١) ، ثم مخر به العباب فى خضم الحياة . تارة يختفى ، وتارة يظهر . فإذا اختفى غاب مع « الأشباح والأرواح » فى جزر الأرخبيل أو على جبل الأولمب . وإذا ظهر شوهد على سواحل كليوا بطرة يردد اللوعة والأنين ، أو على جندول البندقية يرجع الشوق والحنين ، أو فى بحيرة كومو يمجد الحب والجمال فى صور الناس ومجالى الطبيعة .

وكذلك كان فى كل بحر يجرى فيه ، وفى كل ساحل يدنو منه : يرسل الأنغام العذبة من قيثاره المرح ، ويبدع الصور الجميلة بريشته الفنانة ، وينفح الصدور المكروبة بنسماته الشعرية السحرية التى تسرى هموم النفس وتهون متاعب الحياة .

ثم غام الأفق فى وجه الملاح ، وثارت الأعاصير على جوانب الزورق ، فكلت الذراع ، وسكن المجداف وتمزق الشراع ! وفى يوم من الأيام السود ألقى فى ساحل المنصورة حطام الزورق وجثة الملاح ! وفى حفرة ضيقة من المقبرة المهمومة ثوى القلب الكبير ، وذوى الأمل النضر وهمد الجناح المحلق !

فى هذا البلد الوفى الحبيب عرفت على طه وأحببته . عرفته منذ تسعة وعشرين عاما وأحببته منذ عرفته . كان لقاؤنا الأول على هذا الضفاف الخضر فى أصيل يوم من أيام أغسطس من السنة الحادية والعشرين من هذا القرن . وكان علي لا يزال طالبا بمدرسة الفنون والصناعات ، يكابد ألم التناقض بين ملوجه إليه بالفطرة ، وما حمل عليه بالاكتساب ؛ بين النوازع الأدبية التى يجدها فى نفسه ، والمسائل العلمية التى يتلقاها فى درسه ؛ بين الناس الذين يتخيلهم فى الذهن ، والناس الذين يتمثلهم فى الخارج ؛ بين مطالب الجسد التى تربطه بالأرض ، ونوازى

---

(١) الملاح التائه ، والأشباح والأرواح . ديوانان للشاعر . وليالى كيلوباترة ، والجندول وبحيرة كومو ؛ قصائد من قصائده .

الروح التى يجذبه إلى السماء .

كالى يقضى طرف نهاره فى قهوة (ماتيو) بشارع البحر ينظر فى كتاب مرة ويكتب فى ورقة مرة ، ثم يذهل عن الكتاب والورقة ويرسل بصره إلى الأفق البعيد ، ثم يرده إلى نفسه وينطوى عليها انطواء الفيلسوف المفكر أو الشاعر الحالم . فإذا جلس إليه أحد ثقاته أخذ ينفس عن صدره المكظوم بالحديث عمن يحب ، أو بالشعر فيمن يحب ، وحبه يومئذ كان حب الفنان الخيالى يجمله بالتنزيه والحرمان منبعاً للألم ومبعثاً للشكوى ليرهف به شعوره ويغذى عليه شعره .

قلت له ذات يوم : ما بالك يا على وأنت فى زهرة العمر ونضرة الصبا حزين الشعر ضائقا بالناس والحياة ؟ فهل تشكو من مرض ؟ فقال على ، ومازلت أذكر ما قال : إنما أشكو مرض الاغتراب ، يخيل إلى أنى من قوم آخرين ومن بلد آخر ، فأنا لا أزال أشتاق إلى القريب المجهول ، وأحن إلى الوطن النازح . ويشتط بى النزوع أحياناً فأتمنى لو أطير . وأتوهم حين يخفق قلبى أنه طائر يريد أن ينهض ، وأن ضلوعى من حوله قفص يأبى أن ينفرج !

ثم انقضى ذلك العهد وانقضت معه تلك الحال الغريبة . ودخل علىّ فى زحمة الحياة وغمار المجتمع ، فازهر الوجه الشاحب ، وانبسط المحيا الكئيب ، وابتسم الثغر الحزين ، وتشعبت فى نفسه أصول الجمال والحب ، فامتد فى نظره الجمال إلى العمل والخلق والسلوك ، واتسع فى قلبه الحب للخير والإخاء والمروءة . ولذلك عاش ما عاش فى سلام من نفسه ، وعلى وئام مع الناس .

وتأكدت بينى وبين على أسباب المودة فعرفته فى جميع حالاته ، وخبرته فى أكثر ملابساته ، فلم أره يوماً قبض يده عن معروف ، ولا بسط لسانه بأذى ، ولا طوى صدره على ضغينة .

كانت لذته فى أن يفعل الخير لأنه إنسان بفطرته ، وكانت متعته فى أن يقول الشعر لأنه فنان بطبعه . وفيما عدا فعل الخير وقول الشعر كانت حياته أشبه بحياة الطائر الغرد فى سماء الربيع الطلق : انتقال من غزل إلى شدو ، وارتحال من جو إلى جو !

كان على طه أكرم الله مثواه طاغى الشخصية ، ولكنه طغيان الروح ؛ مستبداً بالحديث ، ولكنه استبداد النبوغ . يجلس الجالس إليه ويطيل الجلوس ويكرره ، ولكنه فى كل جلسة يجد نفسه فى حضرة رجل ممتاز . وامتيازه كان من طلاوة حديثه ، وشجاعة رأيه ، وصراحة قوله ، وعفة لسانه ، وحرية ضميره، وخلوص قلبه . كان فى صرامة الرجل ووداعة الطفل ، فلا يسع من يلقاه إلا أن يجله ، ولا يملك من يعرفه إلا أن يحبه .

وكان شعره صورة لشخصه ومرآة لنفسه . نقرأه فكأنما تقرأ فى قلب مفتوح ، وننظر فيه فكأنما ننظر فى أفق منير . أجمل ما فيه الصدق ، وأقوى ما فيه الجمال ، وأعظم ما فيه الحب . والصدق والجمال والحب وهى عناصر الرسالة الفنية التى أداها على طه .

كان شعره صافى الأسلوب لأنه صافى القلب ، متسق الألفاظ لأنه متسق الخلق ، مشرق المعنى لأنه مشرق النفس . وإن من المصائب التى يرفضُ لها الصبر ويضيق بها العزاء أن نستعمل ( كان ) فى الحديث عن على طه ! إنه باق ما بقيت العربية ، مذكور ما ذكرت العروبه ، خالد ما خلد القرآن .

ولست اليوم بسبيل الكشف عن عبقريته فى فن الشعر ، ولا عن مكانته فى تاريخ الأدب ؛ إنما هى عبرات مما بقى فى المآقى جئت أسكبها على ثراه ، وزهرات من الروض الذى كان يحبه جئت أنثرها على قبره !

رحم الله الفقيد العزيز أوسع الرحمة ، وعزى عنه الأمة العربية أجمل العزاء ، وعوض الأدب الرفيع من فقده خير العوض !

# « حياتى »

( ٢٤ أبريل سنة ١٩٥٠ )

« حياتى » هى حياة صديقى الأستاذ أحمد أمين ، ألفتها الوراثة والبيئة والأقدار والظروف والمواهب والأخلاق والجهود فى مدى أربع وستين سنة ، فجاءت فصلا متميزا من كتاب الحياة العام . وقليل من الناس من يتهيأ بفطرته وعبقريته ليكون مادة من مواد هذا الكتاب . أما الأكثرون فأكثرهم ينكرهم المؤلف الأعظم إنكاره للمعدوم وأقلهم يذكرهم إما لحقاً فى حاشية ، وإما عرضا على هامش .

هذا الفصل الطويل الحفيل لخصه أحمد أمين بقلمه فجاء قصة من قصص البطولة النفسية فى ثلثمائة وخمسين صفحة من الحجم اللطيف ، تقرأها وأنت ترجو ألا تشغل عنها ، وتفرغ لها وأنت ترجو ألا تفرغ منها !

قرأتها فى جلستين اثنتين على كلال بصرى ووهن أعصابى ، فكنت كأننى أشهد بخيالى وذهنى فلما ثقافيا عجيب المناظر مختلف الألوان جم الصور يمتع العقل والقلب جميعاً .

كان ما أجده من الشوق واللذة وأنا أقرأ « حياتى » لأحمد أمين ، يشبه ما كنت أجده من الشوق واللذة وأنا أقرأ « الأيام » لطه حسين : شوق ولذة من نوع غريب الطعم والأثر لم أذقهما فى حياتى الأدبية قبل هاتين المرتين فى هذين الكتابين . وليس معنى ذلك أن « حياتى » و« الأيام » يشتركان فى مذهب فنى واحد ، بل معناه أنهما يشتركان فى اجتذاب النفوس وامتلاك المشاعر بشىء آخر غير الفن . قد يكون ذلك الشىء فى الجمال النفسى الذى يتجلى فى الصدق حين

يجوز الكذب ، وفى الصراحة حيث تنفذ الكناية ، وفى التفصيل حيث يسهل الإجمال .

وقد يكون فى الروح القوى الذى يهيمن على الكتابين ، فيظهر هناك فى عمق الشعور كما يظهر هنا فى عمق الفكر .

وقد يكون فى التصوير الدقيق البارع لتربية روحية مسختها المادة ، وبيئة شعبية نسختها المدنية ، ولا يزال لها فى النفوس أثر وبالقلوب نوطة .

وقد يكون فى أولئك كله ، وما أولئك كله إلا الصفات الجوهرية التى لا بد منها للمكتوب الصحيح وللكاتب الحق .

عبر صادقا عن نفسك تتجاوب أنت والناس ، وانقل أمينا عن بيئتك تتعارف أنت والطبيعة .

قال لى صديق ذات يوم ونحن جالسان فى مجمع اللغة العربية : سأبعث إليك بأول نسخة تخرجها المطبعة من كتابى . وسأمضى فيه على رأيك ولو كلفنى ذلك تفريق ما جمع وتمزيق ما طبع ، فإنى ضعيف الثقة بما أعمل . فلما مضيت فى الكتاب تبين لى أن ضعف الثقة فى الصديق لم يأته من اشتباه الحق ولا من التباس الصواب وإنما أتاه من اتساع المسافة فى نفسه بين ما يريد وبين ما يستطيع ، ومن شدة الاختلاف فى رأيه بين ما يجب وبين ما يكون .

ولقد كان صديقى فى هذا الكتاب بالذات شديد التردد فى كتابته ، كثير التشكك فى إفادته . فهو يقول فى المقدمة : «لم أتهيب شيئاً من تأليف كما تهيبت من إخراج هذا الكتاب ؛ فإن كل ما أخرجته كان غيرى المعروض وأنا العارض أو غيرى الموصوف وأنا الواصف . أما فى هذا الكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف . والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة . والشىء إذا زاد قربه صعبت رؤيته . والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صديق ، أو بمحاولة

التجريد وترمز بهما على شخصيتين : ناظرة ومنظورة ، وحاكمة ومحكومة ، وما أشبه ذلك وأضداده ! » . « وترددت أيضاً في نشره . ما للناس و « حياتي » ؟ لست بالسياسي العظيم ، ولا ذي المنصب الخطير الذي إذا نشر مذكراته ، أو ترجم لحياته ، أبان عن غوامض لم تعرف ، ومخبآت لم تظهر ، فجلى الحق وأكمل التاريخ ؛ ولا أنا بالمغامر الذي استكشف مجهولا من حقائق العلم فحاول وصفه وأضاف ثروة إلى العلم ، أو مجهولا من العواطف كالحب والبطولة أو نحوهما فجلاها وزاد بعمله في ثروة الأدب وتاريخ الفن ؛ ولا أنا بالزعيم المصلح المجاهد ، ناضل وحارب وانتصر وانهزم ، وقاوم الكبراء والأمراء ، أو الشعوب والجماهير ، فرضوا عنه أحياناً ، وغضبوا عليه أحياناً وسعد وشقي ، وعُذب وأكرم ، فهو يروي أحداثه لتكون عبرة ، وينشر مذكراته لتكون درساً . لست بشيء من ذلك ولا قريب من ذلك ، ففيم أنشر حياتي ؟ » .

ومع ذلك استطاع أحمد أمين بوزانة عقله ورزانة خلقه أن يقول الحق أصرح مايقال ، وأن يصدر الحكم أعدل مايصدر ، كما استطاع بقوة شعوره وصدق تصويره أن يحقق الفائدة للقارىء ، فجعل من تاريخ حياته تاريخ حياة لمصر في الربع الأخير من القرن الماضي ، والنصف الأول من القرن الحاضر ، فوصف عادات كادت تزول ، وسجل حوادث كادت تنسى ، وصور وجوها كادت تغيب ؛ فالحال الاقتصادية بسخرتها وقسوتها وثقل ضرائبها وسوء جبايتها في قرية ( سمخراط ) بالبحيرة ، كانت هي الحال في كل قرية من قرى الأقاليم . والحال الإجتماعية بطبقاتها وعاداتها واعتقاداتها في ( حارة العبادية ) بالمنشيه ، كانت هي الحال في كل من حارات القاهرة . والحال الشخصية بتربيتها ونفسيتها وعقليتها في نفسه وأهله وصحبه وجيرته ، كانت هي الحال في كل فرد من أفراد الشعب ! وإن في تصويره البيت والسقاء والمحدث والكتاب والأزهر ، وفي وصفه لأبويه وأخويه ، وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلى فوزي ، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور ، لنماذج من البيان المطبوع الذي يشرق بنور العقل وينبض بروح العاطفة . وإن من أجمل ما في الكتاب تلك

البراعات الذهنية التى تبدهك بين الصفحة والصفحة فى تحليل نفس ، أو تعليل حادث ، أو تأثير شخص فى شخص ، أو موازنة حالة بحالة . على أن مثل « حياتى » فى انبثاقها من البيت والحارة والكتاب والأزهر ، وفى تفرقها بعد ذلك فى نواحى العمل ووجوه الأرض وأشتات الأمر ، كمثل الدوحة العظيمة ، تكون عند الجذع قوية غليظة مكتنزة ، تضطرب بالحياة وتزخر بالخصب وتستمد غذاءها من جذورها الضاربة فى جوف الثرى ، فإذا تفرعت على ساقها انتشرت الأغصان وتشعبت الأفنان فتوزعت الحياة ، وتقسم الرّى ، وخفت الحركة ؛ ولكن فيها مع ذلك الجمال والظلال والزهر والثمر . فالقسم الأول من « حياتى » كأصل الدوحة عميق وثيق مكتنز لاستمداده من أعماق النفس ؛ والقسم الآخر كفروعها هش الأفنان منبسط الجوانب لامتداده فى آفاق الطبيعة .

والكتاب من بعد ذلك قد كشف عن سر من أسرار الصناعة فى كاتبه . ذلك سر القصة . والنفس الفنانة عميقة كالكون ، سحيقة كالأبد ، فلا تنتهى أسرارها حتى ينتهى المجهول ، ولا تنقضى عجائبها حتى تنقضى الحياة !

# أدب اللذة وأدب المجون

( ٢٩ مايو سنة ١٩٥٠ )

أريد بأدب اللذة ما يسميه الفرنسيون اليوم: (La délectation litteraire) وهو الأدب الذى يلذ ولا يفيد ، ويسوغ ولا يغذى ، ويشغل ولا ينبه ، كالذى تقرأه فى أكثر الصحف وفى بعض الكتب من غرائب الأخبار ، وطرائف النوادر ، وتوافه المعارف ، مما يجذبك عرضه ويلذك تصويره ويلهيك موضوعه ، فإذا فرغت من قراءته وصحوت من خَدره ، لاتجد له أثراً فى نفسك ولا حاصلا فى ذهنك .

طغى هذا الأدب على أوربا من بعد الحرب ، فهزم الكتاب النافع ونفى البحث المفيد ، فثارت ثائرة أقطاب الكتاب ، وأنحوا بالنكر على معالجيه ومروجيه ، وحاولوا أن يفتحوا أعين الناس على أخطاره بما نشروا وأذاعوا ؛ ولكن العلة كانت أفدح مما ظنوا ؛ فان الأعصاب التى أوهنتها الحرب بفظائعها وفواجعها لم تعد قادرة على معاناة الجد واحتمال التقصى ، فرجعوا يتحاورون ويتشاورون ويطلب بعضهم إلى بعض أن يدسوا الفائدة فى اللذة ، ويدوفوا المرارة بالحلاوة ، تهويناً على الأعصاب المنهكة ، وتسكيناً للنفوس القلقة .

ذلك هناك : أما هنا فالأمر مختلف . لا أعصابنا موهونة من حرب ، ولا نفوسنا قلقة من ضيق ؛ إنما هى الثقافة الخاوية ، والأمية الفاشية ، والتربية المهملة ، والصبر الفارغ ، والطبع السؤوم ، والهوى المتنقل ، والوقت المضيع ، والحياة الهازلة ! خير ما فى المدرسة الألعاب ، وخير ما فى المجلس النكت ، وخير ما فى الكتاب الأفاكية ، وخير ما فى الصحيفة الصور ، وخير ما فى النزهة التهريج !

فإذا كان الناس فى أوربا قد انصرفوا بعد الحرب إلى أدب اللذة ، فإن ذلك وإن طال عرض سيزول ، وحال ستحول ، لأن ثقافة النفس فى الغرب أصيلة ، وحب المعرفة فى أهله طبيعة .

أما القراء فى مصر فإنهم إنما يعكفون على هذا النوع من الأدب البهرج لأنه رضا السطحية الغالبة ، وهوى العامية العريقة . وعلاج هذه الحال لا يكون بالتنبيه والتوجيه ، وإنما يكون بتغيير العقلية ، وإصلاح التعليم ، وإعداد المعلم ، وتعميق الدرس ، وتعويد القراءة ، وتنشئة النفوس على استجلاء الغامض واستكشاف المجهول واستدناء القصى واستشواف الكامل ؛ وهو علاج يراودنا اليأس من قرب حصوله ، فلا بعضه فى اليد ، ولا كله فى الأمل !

إن أدب اللذة عندنا هو الأصل ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ولا يتعجب من وجوده . وإن أدب المنفعة عندهم هو الأصل ، وما خرج عن أصله تناصرت كل القوى على كف ضلاله وكبح شروده .

* * *

أما أدب المجون فيختلف عن أدب اللذة فى الدواعى التى تدعو إليه وفى الدواهى التى تنجم عنه . فمن دواعى أدب اللذة عامية الذهن ، أو سطحية الفكر ، أو سآمة الجد ؛ وهى أعراض طارئة مصيرها إلى الزوال ، وانحراف عن الطبيعة مآلة إلى الاعتدال . ومن دواهيه أنه يلفظ أهله على ساحل الحياة فلا يخوضون العباب ولا يغوصون على الجوهر ، ويدفعهم إلى هامش الوجود فلا يكون لهم فى متنه مكان يرمق ولا شأن يذكر .

ولكن دواعى أدب المجون التنفيس عن رغبة مكظومة ، أو التعبير عن عاطفة جائشة ، والتحرر من التزامات مقيدة ، وهى خواص فى طبع الإنسان ، تلزم لزوم البكاء والضحك له ، وتدوم دوام الجد والهزل فيه . وأقل دواهيه أن

تزول الحدود بين المعروف والمنكر ، فلا يكون فارق بين حلال وحرام ، ولا بين نظام وفوضى ، ولا بين إنسان وحيوان .

أدب المجون إذن خاصة تلزم لا عرض ينفك . وذلك أن حياة الإنسان من لوازمها الحياء والوقاحة ، والعفة والفجور ، والاحتشام والتبسط ، والتصون والتبذل ، والأدب صورة لهذه المتناقضات جميعاً . فالفنان الشاعر أو الكاتب أو المصور لا بد أن يعبر بطريقته الخاصة عن كل ما يجول فى نفسه أو يقع تحت حسه ، وكلما كان هذا التعبير صادقاً كان أدخل فى باب الفن ، وأوغل فى طريق الكمال . من أجل ذلك كان أدب المجون ثابت الوجود فى أدب العالم كله . وهو فى الأدب العربى عريق الأصل ، ظهر منذ قال العرب الشعر ورووا منه لامية امرىء القيس ، ودالية النابغة ، ورائية بشار ، وغزوات ابن أبى ربيعة ، وفواحش أبى نواس ، ومنديات ابن إياس ، ومخازى ابن سكرة ، وأحماض ابن حجاج . وظل الأدباء فى كل زمان ومكان ينظمون المجون وينثرونه . ولا تزال ذواكر المعاصرين تعى ما تلقفته الأفواه من مجون حافظ والرصافى وإمام العبد والهراوى مما لم تسجله صحيفة أو يدونه كتاب .

على أن هؤلاء جميعاً كانوا ينشئونه لأنفسهم لا للناس ، ويتناقلونه فى السر لا فى العلانية ، ويتفكهون به فى المجالس الخاصة لا فى المجامع العامة . ولو كان لهم ما لنا اليوم من طباعة تنشر ، وصحافة تذيع ، وجمهور يقرأ ، لتحرجوا من أكثر ما قالوه ؛ فإن الناس منذ بث الله فى أبويهم آدم وحواء فضيلة الحياء فخصفا[1] على جسديهما العاريين من ورق الجنة ، شعروا أن للجسم عورات لا يجوز أن تظهر . ولما هذبهم الدين وثقفهم العلم وصقلهم التحضر شعروا كذلك أن للفكر عورات لا يليق أن تنشر . فهم بحكم الحرية والاستقلال والانطلاق يقولون

---

(١) خصف العريان الورق على بدنه ألصقه وأطبقه عليه ورقة ورقة ليستتر به .

ويفعلون فى خلواتهم ومباذلهم ما شاءوا ؛ ولـكنهم بحكم الدين والقانون والعرف يسترون سوءاتهم ونزواتهم ما استطاعوا ؛ فلا يقولون كل حق ، ولا يصورون كل حالة ، ولا يظهرون كل مضمر ، مراعاة لشعور الجماعة ومحافظة على كرامة الإنسان . . .

أدب المجون يجوز إذن أن يقال ، ولـكن لا يجوز أبداً أن يعلن . والرقيب على هذا الأدب ضمير المنشىء وكرامة القارىء . فما دام المنشىء ضمير يحييه الدين القويم والخلق الـكريم فإنه يتـكرم عن الهبوط إلى حضيض القوادين الذين يزينون الفحش ، والمطاردين الذين يروجون الحشيش . ومادام للقارىء كرامة يقويها الحس اللطيف والطبع الشريف ، فإنه يتنزه عن سماع الهُجر ورؤية المنـكر . والناس فى الشرق والغرب ، وفى القديم والحديث ، كانوا كذلك قبل أن تقوم قيامة الحرب العالمية التى أهلـكت فيما أهلـكت تراث الإنسانية والمدنية من كريم الشمائل وحر الخلال .

هتك بشار فى بعض شعره ستر الحشمة فنقم الناس منه ذلك وتمنوا موته صونا للعذارى وغيرة على المخدَّرات ، وقال مالك بن دينار : « ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد » وانتهى المجون ببشار إلى أن أمر به الخليفة المهدى فضرب بالسوط حتى هلك .

واستهتر أبو نواس فى الغزل واسترسل فى الفجور حتى حبسه الخليفة الأمين ، ولم يكد يخرج من ظلام الحبس ، حتى دخل فى ظلام الرمس .

وألف أوفيد الشاعر الرومانى كتابه (فن الحب Larrt d'aimer ) فرأى فيه القيصر أغسطس إفساداً للناس فنفى المؤلف فى (سرماسيا ) وقال لطيبار يوس حين سأله العفو عنه : « لا أنـكر أن أوفيد شاعر ميزته الآلهة بالذكاء البارع والقريحة النافذة ، ولـكنه أفسد بكتابه شباب روما فحق عليه أن يموت فى سجن سرماسيا »

وكتب فلوبير القصصى الفرنسى قصته ( مدام نوقارى ) فوجد الناس في أسلوبها خروجا عن مذهب الحياء فرفعوا أمره إلى القضاء فحكم عليه بالكف عن معالجة هذا النوع من القصص .

ونظم بودلير الشاعر الفرنسى ديوانه ( أزهار الشر ) فثار على جرأته أهل الحفاظ والنخوة وساقوه إلى القضاء فحكم عليه بغرامة قدرها ثلثمائة فرنك وإعدام ست قصائد من مطولاته .

فلما زلزل الله أركان الأرض بالحربين العالميتين انقلبت الأوضاع ، وتغيرت الطباع ، واختلفت المقاييس ، وبرد الدم الحار ، وبلد الحس المرهف ، وغلظ الجلد الرقيق ، فشاع الإغضاء ، وساغ البذاء ، وقلت المبالاة ، وسكنت الحمية ، حتى صار الفجور دينا له أنبياؤه ومبشروه ! فمن الأنبياء فرويد وجيد وسارتر ، ومن المبشرين لورنس وفكتور مرجريت . أما الأتباع فهم مسوخ الحرب ومشوهوها . والقوم هناك ومقلدوهم هنا مخلصون جميعاً للدين الجديد إلا من رحم ربك . ومن هؤلاء الذين أدركتهم رحمة الله فرنسوا مورياك ؛ فقد حزبه الأمر وشجنه الحال حتى ألقى ثلاثة أسئلة على صفوة من رجال العلم والأدب فى أوربا يرجو أن يجد فى الأجوبة عنها طبا لهذا الداء ، وكشفا لهذا البلاء . قال :

« هل تجد فى انصراف الأدب إلى التعبير عن شهوات الجسد العارمة خطرا على الفرد وعلى الجماعة وعلى الأدب نفسه ؟ من هم الأدباء الذين تقع عليهم التبعة فى انحطاط الأدب الحديث ؟ وأى المذاهب قد ساعد على هذا الانحطاط ؟ » .

فإذا فرضنا أن هذه الأسئلة ألقيت علينا كما ألقيت عليهم فبماذا نجيب عنها ؟

يسأل فرنسوا مورياك ثلاثة أسئلة عن أدب المجون ، أولها عن نتائجه ، وثانيها وثالثها عن أسبابه ، فأما سؤاله عن نتائجه فما أظن جوابنا عنه يختلف عن جواب زملائنا الأوربيين فى شىء ؛ لأن خطر الأدب الماجن على الفرد والجماعة

وعلى الأدب نفسه لا يمارى أحد فيه لا منا ولا منهم . وهل يمارى أحد فى أن البهيم الذى يساكن الإنسان فى جسد واحد إنما يروضه ويكبحه الأدب القائم على العقل والدين والعلم ، تارة بالفطام والالجام ، وتارة بالسياسة والملاينة ، فإذا فسدت طبيعة هذا الأدب ، فانقلب القيد سوطاً يلهب ، والشكيمة مهمازاً يحث ، أفلت البهيم من ربقته فافترس الإنسان الذى يعيش معه ، وحطم المجتمع الذى يضطرب فيه . والأدب الذى أطلق هذا البهيم بتمليق غرائزه وتحريض شهواته سينتهى أمره لا محالة إلى أن يصير آفة تتقى وجرثومة تُقاوَم ؛ لأن فى ابن آدم محكمة داخلية نسميها الضمير ، إذا تعطلت حينا فلن تتعطل أبد الدهر .

وأما سؤاله عن أسبابه فالأمر بيننا وبينهم فى جوابيهما جد مختلف . ليس فى أدبائنا أديب تلقى عليه التبعة فى انحطاط الأدب الحديث كسارتر ، وليس فى أدبنا مذهب يساعد على هذا الانحطاط كالوجودية ؛ إنما هى العدوى انتقلت إلى مصر من مكان الوباء فصار فيها المرضى وحملة المرض . ولا أقصد بالعدوى عدوى حدوث المجون ، فإن المجون كما قلت أصيل فى كل نفس ، عريق فى كل أدب ؛ إنما أقصد بالعدوى عدوى نشره فى الصحف والكتب والتمثيل بنوعيه المحقق والمصور .

ليس على المرء من حرج أن يماجن صحبه الأدنين فى مجلسه الخاص . وليس عليه من حرج أن يعرى فى غرفة نومه أو فى حمام بيته ؛ إنما الحرج كله أن يماجن فى ملأ أو يعرى فى شارع . والذين يسمعونه مفحشا ولا يعارضون ، أو يرونه عارياً ولا يُعرضون ، لا يقلون مجونا ولا جنونا عنه .

فالمسألة فى أدب المجون مسألة ضمير فى الكاتب والناشر ، وكرامة فى القارىء والناظر . فى وجودهما عدمه ، وفى عدمهما وجوده .

كنا قبل أن نعرف أوربا نتحرج أن نرى المرأة فى نافذة أو تماشيها فى طريق ،

فأصبحنا نقبل أن نواجهها فى دكان وأن نجالسها فى حان ! وكنا قبل أن نقلد أوربا نذوب خجلا إذا سقط قناع المرأة عن استحياء ، أو انحسرت ذراعها عن غفلة ، فأصبحنا نتحرق شوقا إذا كشفت ظهرها فى مرقص ، أو خلعت ثوبها على شاطئ !

ومن أعجب العجب أن نرضى رضا الغبطة واللذة إذ رأينا الأمهات والزوجات والبنات عاريات على ( البلاج ) ، ثم نغضب غضب التقى والورع إذ رأينا الراقصات والممثلات والمومسات عاريات على الورق ! لماذا نقبل ما يفعل فى الشواطئ والحفلات ، ولا نقبل ما يقال فى الصحف والمجلات ؟ .

إن الطبيعة موضوع الفن . وإن الحياة مادة الأدب . والفنان الحق يصور بحق ، والأديب الصادق يعبر بصدق . فإذا شئتم أن يطهر أدبكم من المجون والبذاءة فطهروا مجتمعكم من الفجور والرياء . إن الأدب صورة ، جمالها من جمال الأصل وقبحها من قبحه !

# حاضر الأدب العربى

( ٢٦ أغسطس ١٩٥٠ )

دعانى إلى الكلام فى حاضر الأدب العربى أمران : أولهما أن الأدب العربى هو الجامعة الروحية الحق للعرب جميعاً ؛ اتصل بها حبلهم حين تقطعت الأسباب . وانتظم عليها شملهم حين شذت الوحدة . ومزية هذه الجامعة أنها من وحى الله ومن صنع الطبيعة ، فلا يوهى من عقدها تناقض رأى ورأى ، ولا تعارض غاية وغاية . وفضيلة أعضائها أنهم كالأنبياء يبنون لتعمر الأرض ، ويبذرون ليحصد العالم ، ولا يؤثرون بجهدهم وطنا على وطن ، ولا يخصون بخيرهم قوما دون قوم .

لذلك كان من الخير أن يتحدث أعضاء هذه الجامعة بعضهم إلى بعض كلما آتتهم الفرصة لهذا الحديث .

أما الأمر الآخر فهو سؤال من الأسئلة التى عرضتها الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية للاجابة عنها فى هذا المؤتمر ، ونصه كما ورد فى الصفحة الثالثة عشرة من البرنامج .

« ماذا يجب أن تعمل المدرسة للتغلب على النزعة الأدبية والكلامية المنتشرة فى البلاد العربية ، ولإشاعة روح التفكير العلمى بين شباب العرب ؟ » ولست أدرى إلام يرمى هذا السؤال ؟ أيرمى إلى قتل النزعة الأدبية فى الشباب ليصبحوا جميعاً أصحاب علم ورجال عمل ؟ وهل هناك تعارض بين الأدب والعلم ؟ فلا يجوز أن يكون للأديب من العلم ما يكسبه الضبط والدقة والوضوح ، وأن يكون للعالم من الأدب ما يقيه المادية والثقل والجفاف ؟ أم يرمى إلى أن الأدب

---

الكلمة التى ألقيت فى المؤتمر الثقافى العربى الثانى بالأسكندرية يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٩٥٠ .

كلام وأن العلم عمل ، وشباب العرب وهم أحوج إلى النهوض المادى قد انصرفوا إلى الأدب عن العلم ، ولهوا بالقول عن الفعل ؟ إن كان ذلك ما يرمى إليه فإن الواقع يخالفه . ولعل فى تهافت الطلاب على شعبتى العلوم والرياضة ما يدعو إلى التفكير فى مستقبل كليات الآداب والحقوق .

على أن الكلام إذا كان ألفاظا فارغة كان غثاء وثرثرة ، فإذا كانت ألفاظه حافلة بما يمتع أو يقنع أو يفيد ، كان إنتاجه عملا مثمراً لا يقل خطرا عن صنع آلة أو اختراع قنبلة أو كشف دواء ورجال الأدب الخليقون بهذه الإضافة إليه أقل عدداً فى كل أمة من رجال العمل والمال والسياسة ، ووظيفتهم وهى التفكير والتعبير أقوى أثرا فى رقى الأمم من وظائف أولئك جميعاً .

ومهما يكن من مرمى هذا السؤال فإنه هو والأمر الأول قد حركا فى نفسى الكلام فى حاضر الأدب العربى عسى أن يكون له من عناية المؤتمر نصيب أكبر ، ومن رعاية رئيسه الأديب الوزير حظ أوفى .

حاضر الأدب العربى لا يطمئننا كثيراً على مستقبله . حظه من المنهج الحديث قليل . وهذه القلة نفسها مئوفة بسوء الطريقة فى تعليمه ، وقلة الرغبة فى تعلمه ؛ فلا المعلم على الجملة صادق الجهاد فيما يعطى ، ولا المتعلم على العموم حسن الاستعداد لما يأخذ . والأثر المحتوم لهذا الحظ المنكود فى كمه وكيفه ، ضعف الملكة فيمن يكتبون ، وفساد الذوق فيمن يقرأون . وإذا ابتليت أمة بضعف الملكة فلا تحسن أن تعبر ، وبفساد الذوق فلا تعرف كيف تقدر ، أصبحت لغتها بينها أشبه بالرموز اللفظية البدائية ، لا تثمرها جمال ، ولا تحفزها الكمال ، ولا تربطها بماض ، ولا تصلها بمستقبل .

كانت علوم الأدب فيما مضى تدرس فى الأزهر وفى دار العلوم وفى مدرسة القضاء وفى مدرسة المعلمين العليا وفى أشباهها من معاهد لبنان وسورية والعراق دراسة عميقة تمكن الطالب المجتهد المستعد من فهم ما يقرأ ، وفقه ما يعلم ، وتعليل

ما ينقد ، وتحليل ما يذوق . فإذا اتصل النظر بالعمل ، واقترن الحكم بالتطبيق ، وصادف ذلك استعداداً في المتعلم ، نبغ الكاتب الذي يكتب عن علم ، والشاعر الذي ينظم عن فن ، والناقد الذي يحكم عن تصور . أما إذا قوى الاجتهاد وضعف الاستعداد ظهر الأديب العالم الذي يهيء الوسائل ويقرب الموارد ويوجه المواهب ويسدد الخطى . ومن هاتين الفئتين تستمد الحركة الأدبية عناصرها الحيوية فتقوى لتزدهر ، وتنمو لتنتشر ، وتسمو لتخلد . وكان من خريجى هذا المنهج القديم فى التعليم أولئك الأدباء الأصلاء الذين حفظوا تراث اللغة ، وجددوا شباب ، وأسسوا هذه النهضة الأدبية الحديثة . ولا يزال من هذه الطبقة الكريمة فئة قليلة فى أقطار العروبة تستبطن لغتها وتتعمق أدبها وتعرف لماذا تكتب الجملة على وضع دون آخر . فإذا ماخلت أمكنتهم من المجتمع بعد أجل طويل أو قصير ، فهل يخلف من بعدهم خلف يحملون أمانة اللغة ويبلغون رسالة الأدب ؟ ليس أمام الراصد الأدبى من الظواهر الواعدة ما يحمله على أن يجيب عن هذا السؤال بنعم . كل شيء يبعث على التشاؤم : منهج تطبيقى يكاد يخلو من القواعد ، كما كان المنهج السابق نظريا يكاد يخلو من التطبيق . وتعليم سطحى مقتضب لا هدف له إلا إجتياز الامتحان بأية وسيلة ؛ فالمطولات تختصر ، والمختصرات تختزل ، فلا يبقى بعد ذلك فى ذاكرة الطالب إلا رموز على معان عائمة غائمة لا هى مستقرة ولا هى واضحة ؛ زهادة فى الجدّى النافع من ثقافة اللسان والقلم تقعد بالنشء عن تعمق الأصول وتقصى الفروع ، وتقنعهم بالقدر الذى ينقلهم من سنة إلى سنة ، أو من شهادة إلى شهادة . فإذا ما تخرجوا عادوا كما بدأهم الله أميين لا يقرأون إذا قرأوا إلا السهل ، ولا يطلبون هذا السهل إلا فى قصة عامية تخدر الشعور ، أو فى مجلة فكاهية تنبه الشهوة ، حتى نشأ من إفراطهم فى هذا الطلب إفراط الكتاب الخفاف فى عرض الأدب اللذيذ الذى لا ينفع أو الأدب الماجن الذى لا يرفع ذلكم إلى طغيان الأدب الأوربى بمذاهبه ونزعاته وترهاته

على عقول الناشئين الذين ثقفوا هذه الثقافة الأدبية الهشة ، ففتنهم عن أدبهم ، وصرفهم عن تاريخهم ، وزين فى قلوبهم أن الآداب الغربية من لوازم المدنية الحديثة . فكما تركنا فى الأكل اليد إلى الشوكة والسكين ، وفى اللباس الجبة والقفطان إلى الجاكتة والبنطلون ، ينبغى كذلك أن نترك فى الكلام اللغة العربية وأدبها إلى اللغة الأوربية وأدبها ليقال إننا متمدنون ! نحفظ هوجو ولا نحفظ المتنبى ، وندرس فلتير ولا ندرس الجاحظ ، ونقرأ لامرتين ولا نقرأ البديع ! ومن هنا نشأت هذه التبعية المعيبة التى فرضت على أدبنا لأدب الغرب ، فأساليب الشباب اليوم هى أساليب الكتابة فى الغرب ، ومذاهب الأدب اليوم هى مذاهب الأدب فى الغرب ، حتى الرمزية بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم ، يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح ! وحتى الوجودية وليدة الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة ، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الإلهية التى كرمت الإنسان وفضلته عن سائر الحيوان بحدود من الدين والخلق لا يتعداها وهو عاقل . ولا يتحداها وهو مؤمن .

ليس الأمر فى الأدب كالأمر فى العلم . الأدب للنفس والعلم للناس . الأدب مواطن والعلم لا وطن له . الأدب روح فى الجسم ودم فى العروق يكون شخصية الفرد فيحيا مستقلا بنفسه ، ويبرز شخصية الشعب فيحيا متميزاً بأفراده . الأدب جنس ولغة وذوق وبيئة وعقلية وعقيدة وتاريخ وتقاليد ، والعلم شىء غير أولئك كله . فإذا جاز طبعا أن نأخذ عن غيرنا ما يكمل نقصنا فى العلم ، فلا يجوز قطعاً أن نرجع إلى هذا الغير فيما يمثل نفسنا من الأدب .

إن من أشد البلايا على الأدب الحاضر بليتين : العامية فى اللغة ، والعلمية فى الأسلوب . أما العامية فى اللغة فلو كان الغرض منها إمداد الفصحى بما تزخر به لغة العامة من مصطلحات الحضارة وألفاظ الحياة العامة لقلنا نعم ونعام عين ، ولكن

الغرض الذى ترمى إليه الثقافة الضحلة والدراسة السهلة هى أن يكتب الكاتب كما يشاء لا يتقيد بقاعدة من نحو ، ولا قياس من صرف ، ولا نظام من بلاغة .

ولم يعرف قبل اليوم فى تاريخ الآداب القديمة والحديثة من يعد فى لغته كاتبا أو شاعرا وهو لا يعرف من قواعدها الأساسية ما يقيم لسانه وقلمه . وإذا كنتم تقرأون الصحف والكتب ولا تقعون على الخطأ الذى يفضح المستور ويكشف الغش ، فالفضل لأولئك الجنود المجهولين الذين يرابطون ليل نهار فى دور النشر ويسمونهم المصححين ، فإنهم يمرون بأقلامهم الحمر على المعوج فيستقيم ، وعلى المعجم فيعرب ، وعلى الركيك فيقوى !

وللعامية أنصار من بعض الكبراء الذين تعلموا فى قصورهم على المربيات ، وهؤلاء لهم نفوذ معوق ، ومن أشباه المعلمين الذين يتولون تعليم العربية فى مدارس الأجانب وهؤلاء لهم توجيه ضار . حدثتنى معلمة فاضلة أن الأمير عباس حليم رغب إليها فى أن تنظر فى تعليم ولديه ، وفى المنهج الذى يدرسان عليه ، ثم تكتب له تقريراً بما ترى . فكان مما لاحظته المعلمة أن الولدين يتكلمان العربية باللهجة التركية ولا يعرفان من قواعدها الضرورية شيئاً . فلما كلمته فى ذلك ابتسم وقال لها بلسانه العوج ما نصه : « لا ، مش عاوز كلام أزهر ولا كلام أولاد بلد ! » . وحدثنى معلم فاضل عين مشرفا على امتحان النقل فى مدرسة أجنبية ، فلما أخذ يدقق فى أجوبة التلاميذ قال له المفتش وهو رجل عربى من رجال الدين المسيحى : « حسبك يا أستاذ ! إن تلاميذنا يتعلمون العربية ليكلموا بها الخدم » !

وأما العلمية فى الأسلوب فلو كان الغرض منها اقتباس الروح العلمى فى تحديد الفكرة وتصحيح القياس وتدقيق العبارة ونبذ الفضول وتوخى الفائدة لقلنا نعم ونعام عين ؛ ولكنهم يقصدون بالعلمية بخس القيمة الجمالية للأسلوب ، وخفض المستوى الرفيع للبلاغة ، فيكون الكلام جاريا على نهج العلماء فى تأدية المعنى

الوارد فى اللفظ السهل ، أو على سنن التجار فى ضغط المعنى المحدد فى اللفظ المختزل ، ولا عليهم بعد ذلك من الروح الذى يبعث الحياة فى المعانى فتؤثر ، ولا من الفن الذى يلقى الألوان على الصور فتمتع ، ولا من الشعور الذى يشيع الهمس فى الجمل فتوحى .

إن الأسلوب العلمى أسلوب من أساليب التعبير لا هو كلها ولا هو خيرها ؛ وإنما هو أسلوب تقتضيه حال كما تقتضى غيره أحوال . فالسعى لتغليبه على غيره من الأساليب مخالفة للطبيعة ومجافاة للطباع . والمعروف فى تاريخ الآداب أن المذاهب الأدبية والأساليب الفنية هى التى تتنافس فى الشيوع وتتفارس على البقاء . أما الأسلوب العلمى فله مجال آخر ورجال أخر . مجاله العلوم ورجاله العلماء . والعلوم والعلماء يتخذون من اللغة أداة ضرورية للفهم والإفهام ، لا وسيلة كمالية للجمال والإلهام . فأساليبهم فى فن الكلام أشبه بالصور الجغرافية والخطوط البيانية فى فن الرسم : يقصد بها البيان لا الزخرف ، ويراد منها الحق لا الجمال . فإذا صح أن نقول للرسامين اقتلوا فى أنفسكم ملكة التصوير الجميل لتصبح رسومكم كلها جغرافية أو هندسية ، صح بالقياس أن نقول للكتاب اقتلوا فى أنفسكم ملكة التعبير الجميل لتصبح أساليبكم كلها علمية أو فلسفية .

هذه على الإجمال الخطوط البارزة فى صورة الأدب العربى الحاضر ، منها خطوط بيض تشرق عليها أشعة من أقلام الصفوة الباقية من رجال المدرسة القديمة والتابعين لهم بإحسان من الشباب المعتدل ، ومنها خطوط سود تخفق عليها ظلال من المستقبل الغامض يساعد على مدها تساهل المدرسة الحديثة والتابعين لها من الشباب المتطرف . فإذا تركنا الأمور تجرى كما تجرى انتهت بنا إلى تغلب العامية ، لأن أساليبها غالبة على السمع ، وقواعدها جارية مع الطبع ، فلا يحتاج تحصيلها إلى درس ولا النبوغ فيها إلى ملكة . وتغلب الأساليب العامية معناه فصل الأدب عن

الدين ، وقطع الحاضر عن الماضي ، وتوهين الصلات بين العرب . وفي اعتقادي أن أمر العربية وأدبها لا يصلح إلا بما صلح به أوله : فقه اللغة جد الفقه ، وفهم قواعدها أشد الفهم ، وحفظ آدابها كل الحفظ . وذلك يستلزم الجهد والجد في إعداد المعلم ، والعلم والخبرة في وضع المنهج ، وتوفير الزمن الأسبوعي لاستقصاء الدرس ، وتنظيم الامتحان العام على النحو الذي يخرِّج ولا يخرِج .

وما أظنني أعدو الصواب إذا قلت إن الثقافة العامة للشباب إنما توازن بالقدر الذي يحصله من ثقافة لغته . فإذا استطاع بعد المدرسة أن يقرأ فيفهم ، ويكتب فيحسن ، استطاع أن يجد السبيل إلى كل علم والدليل إلى كل غاية ، والمثقفون متى تركوا مقاعد الحياة المدرسية إلى مواقف الحياة العملية ، تبخر من رءوسهم أكثر ما تعلموه ، فلا يكاد يبقى من ثقافتهم إلا ما حذقوه من اللغات وما شدوه من الآداب . ذلك إذا كانت ثقافتهم الأدبية ثابتة الأصول نامية الفروع ، فإذا كانت كغيرها من الثقافات الأخرى سطحية رخوة أتى عليها النسيان فيصبحون أميين في المخطوط بعد أن كانوا أميين في الخط .

أمامكم الساسة والقادة والزعماء والعلماء والمصلحون في كل أمة ، هل تغني عنهم علومهم وعقولهم عند الناس شيئاً إذا لم يملكوا ناصية البيان فيقنعوا إذا كتبوا ويؤثروا إذا خطبوا ؟ كلا يا سادة ! إن العالم من غير أدب معمل ساكن ، وإن الزعيم من غير بيان تمثال صامت . وإن المصلح من غير بلاغ مصباح مطفأ .

سيداتي ، سادتي . لا بأس في أن نيسر النحو والصرف والبلاغة على الطلاب ، ولكن البأس كله في المدى الذي بلغه هذا التيسير . لا بأس في أن نحذف الغث من التقديرات والتعليلات التي فلسف بها النحاة النحو ، وننبذ الأوجه الإعرابية التي بقيت في اللغة أثراً من اختلاف اللهجات في الجاهلية ، فبلبلت الألسن ، وهوَّشت القواعد ، وجعلت كل صواب خطأً وكل خطأ صواباً ؛ ولكن البأس

كله فى أن نجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة لتصبح أشبه بالهيكل العظمى ، فيه الخفة والبساطة والشكل ، وليس فيه العضل والعصب والروح .

إن ما يبقى من هذه العلوم بعد النقصان ، وما يبقى من هذا المنقوص بعد النسيان ، لا تحيا به لغة ولا يبقى عليه أدب . وإن استطاع يوما أن يجيز امتحانا أو يذيل شهادة ، فلن يستطيع أبداً أن يخرج أمثال من خرجهم الأزهر ، كمحمد عبده وسعد زغلول وطه حسين والمنفلوطى والبشرى ، ولا أمثال من خرجتهم دار العلوم كجاويش والمهدى والخضرى والسكندرى والجارم ، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة القضاء كأحمد أمين وعبد الوهاب عزام والخولى ، ولا أمثال من خرجتهم مدرسة المعلمين العليا كالمازنى وشكرى وأحمد زكى وفريد أبو حديد ، ولا أمثال من خرجتهم كتب الأزهر كالعقاد والرافعى وشوقى وحافظ فى مصر ، وكالبستانيين واليازجيين والشدياق ومطران والخورى فى لبنان ، وكالمغربى وجبرى والطنطاوى والأفغانى فى سورية ، وكالرصافى والزهاوى وكاشف الغطاء والراوى والأثرى فى العراق ، وكالنشاشيبى والسكاكينى والخالدى فى فلسطين .

هذه يا سادتى مخاوف ألقاها فى روعى ما أرى من ضيعة الأدب الحاضر بين تسامح القائمين عليه وزهادة الناشئين فيه . والأمل فيكم يا حماة العربية ورعاة العروبة فى كل قطر ، ألا يتحقق من هذه المخاوف شىء . ومناط هذا الأمل أنكم تؤمنون جميعاً بأن العربية هى عماد ثقافتنا ، ورباط جماعتنا ، وبأن أدبها هو التراث الروحى المشترك الذى يثور فى دمائنا لننهض ، ويصرخ فى آذاننا لنتحد ، ويشتد فى حدائنا لنلحق .

إن الأدباء فى كل أمة هم الذين يحملون شعلة الفن والفكر وينقلونها بالتتابع يحملها السالف للخالف فيغذيها وينفخ فيها لتظل فى طريق الأبد باقية نامية

هادية . وأدباؤنا الشيوخ وهم خريجو الماضى قد تسلموا شعلة الفكر العربى فى أواخر القرن التاسع عشر من أدباء لم تهيئهم ثقافتهم ولا حضارتهم ليمدوها بوقود من عصارة الذهن ولا بقبس من نور الوحى فكادت تنطفىء ؛ ولكن الله قد أتاح لأدبائنا الذاهبين من مواتاة الملكات وتهيؤ الوسائل ومعاونة الظروف واستكمال الأداة ما مكنهم من إذكاء هذه الشعلة ، فأوقدوها بالزيت والكهرباء وجلوا نورها السماوى فى بلور كالكوكب الدرى ، فتألق سناها وانتشر هداها . وها هم أولاء يكادون يسلمونها لشباب الغد خريجى هذا الحاضر ، فليت شعرى ماذا تصنع بها الأحداث ، وماذا يخبىء لها القدر ؟

أنا بالرغم مما أتوجس من المخاوف متفائل ، لأن الله سبحانه الذى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » قد ضمن للعرب بقاء البيان ببقاء القرآن . وفى هذه القلة البارزة من أدباء الشباب فى أقطار العروبة نرجو أن يحقق الله وعده . وإن الله لهو خير الصادقين .

# فصول قصار

# قصة النمل الأبيض

( ١١ يونيو سنة ١٩٤٥ )

قالت[١] نملة حمقاء لجماعة من النمل الأبيض أنقذها القرار من أخفاف الفيلة[٢] لم لا نعمل كما عمل ( تيتو ) وقد صنع الحلفاء بنا ما صنعوه به، فجعلوا على جوانبنا أجنحة ، ووضعوا فى أفواهنا أسلحة ؟

قالت لها الجماعة : وماذا ترين أن نعمل ياذات الأجنحة الأمريكية والأسلحة الإنجليزية ؟

قالت : نهجم على هذه الجماعة البشرية وهى فى نشوة من وعود النصر ، وغفوة من عهود السلام ، فنخرجها من دار أمية ، أو ندفنها فى أنقاضها وهى حية ،

وكان فى الجماعة نملة متصوفة من أتباع ( مسّنيون ) تكفر بخطب الحجاج ، وتؤمن بطواسين الحلاج[٣] ، فنهضت تقول وفى عينيها رقراق من الدمع : ولِمَ هذا البغى يا أختاه ؟ أنسيتِ والعهد قريب بطشة الجبارين[٤] بأرضنا العزيزة وأهلها يومئذ يتقلبون فى النعمة و يتبسطون على الأنس ؟ أنسيت والهول لا يزال يعصف بالقلوب تلك الجبال التى كانت تسير فتنفجر منها الحمم ، والقلاع التى كانت تطير فتنهمر منها الصواعق ، ونحن نلوذ بأجواف الأرضين فلا يمنعنا ذلك دون أن نُسحق أو نحرق ؟ ولولا أن جاءنا النصر بطريق القرض[٥] ، لبقينا كاليهود مشردين فى الأرض ؟ فهل يزكو بمن قاسى معرة الظلم أن يظلم ، وبمن كابد مذلة الحرمان أن يحرم ؟ ثم أسمعك تذكرين الأجنحة المستعارة ، كأنك لا تذكرين

(١) ثارت سورية على الانتداب الفرنسى بعد الحرب فتصدى لها الجيش الفرنسى المحتل بقيادة الجنرال أوليفيا روجيه فقتل ودمر حتى صاحت به انجلترا فاستكان وانتهى الأمر باستقلال سورية ولبنان . والنمل الأبيض رمز للجيش الفرنسى . (٢) المراد بالفيلة الألمان .

(٣) الطواسين كتاب للحلاج فى التصوف وقد نشره المستشرق الفرنسى مسينيون .

(٤) الألمان الذين احتلوا فرنسا بعد هزيمتها. (٥) إشارة إلى أن النصر قد شملهم من غير أن ينتصروا.

الحكمة التى تقول : لا يزال النمل بخير ما لم تنبت له أجنحة ؛ فإذا نبتت أجنحته وأخذ يطير ، صادته العصافير . وهل فى أمة النمل أحد ينسى قول أبى العتاهية شاعر الأنس :

وإذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

فما كان جواب النملة الحمقاء إلا أن قالت فى ضحكة ساخرة ولهجة ماكرة : إنك لا تزالين ياصديقتى متأخرة . ومن العجيب أنك تُنسبين إلى أمة متحضرة ودولة مستعمرة ! على أننا لا نجادلك بوصايا سان فرنسسكو ، ولا بنصائح وشنطون ولندرة وموسكو ، إنما نجادلك ببرهان العمل وسلطان الواقع .

وما هى إلا دمدمة كعزيف الجن حتى غامت السماء بالنمل ، وسالت الأرض بالحشرات ، وأخذت هذه الطير الأبابيل ، ترمى الناس بحجارة من سجيل ، ولم يغن عن العزل الأبرياء دعس النعال ، فى دفع هذه النمال ؛ فاستحرّ القتل ، وأثخنت الجراح ، وانتشر النهب ، وفشا الخراب ، وكاد النصر المؤقت يتم لهذه الحشرة الباغية لولا أن صاح من الجانب الغربى[1] صائح يقول وفى يده بوقه وعلى رأسه بنوده : « يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » ! فلم تبق نملة سمعت هذا الصوت من ذلك البوق ، إلا دخلت مذعورة فى شق من الشقوق ! وهيهات أن يبعث الله من فى القبور ، إلا يوم ينفخ إسرافيل فى الصور !

وحينئذ قالت النملة المتصوفة الحكيمة وهى تُنغض رأسها استهزاء بالضعيف المغتر : أليس من خيبة الحكمة ألا ينفضّ مشكل ، إلا بجن سليمان أو بأسطول تشرشل !؟ .

---

(١) تدخل انجلترا بلسان تشرشل رئيس وزرائها يومئذ .

# خليفة نابليون!

( ١٨ يونيو سنة ١٩٤٥ )

لا تقل إن خليفة نابليون هو ( بيتان ) ؛ فإن المرشال جثا ضارعاً أمام النازية وجيشه يفعم الميادين والمدائن ، وذهبه يتخم الصناديق والخزائن ، وعلمه يخفق على مستعمرات مسخرات بأمره ، وخليفته[1] الفنية القوية تسأله جاهدة أن تصل عمرها بعُمره !

ولا تقل إنه ديجول ؛ فإن الجنرال لم يشتهر فى أية ملحمة ، ولم يُعرف بتدبير خطة محكمة ، وجملة أمره أنه تشبث يوم الهزيمة بطائرة فهرب ، ثم لجأ إلى لندن وطلب فأعطته لندن ما طلب ! ولكن قل معى : إن خليفة نابليون ووارث بطولته وعبقريته هو الجنرال أوليفيا روجيه دكتاتور فرنسا فى سورية !

وجه كوجه البومة عليه صفرة المومياء ، ورأس كرأس النعامة فيه رعونة الكبرياء ، وشخص كتمثال الموت فى يده منجل الفناء ، وصوت كنعيب الغراب يردد فى أجواز الفضاء :

« أخفق نابليون فى استعمار مصر فأنا أستعمر سورية ، وعجز نابليون عن تدمير عكا فأنا أدمر دمشق ! وكان فى يد هذا المغرور بقية من عتاد الحلفاء فيها القاذفات والدبابات والرشاشات والبنادق . وكان من حول هذا المغرور طغمة من عبيد السنغال غلاظ المشافر سود الأكباد حمر العيون يعملون كالآلة من غير وعى . وكان إخواننا السوريون قد نظروا فى أمرهم وأمر هؤلاء فلم يجدوا لهم مزية عليهم ؛ فلا هم قدوة فى حسن الخلق ، ولا حجة فى صحيح العلم ، ولا قوة فى نظام العالم ؛

---

(١) هى انجلترة . وقد اقترحت اتحادها بفرنسا لتحول دون استسلامها لألمانيا فلم يقبل اقتراحها .

وإنما هى أمة أمرضتها رواسب اللاانينية فاستكانت لعوامل البلى ، حتى إذا ابتليت بهذه الحرب انخرعت فلم تقم ، وانماعت فلم تتماسك. فلوكان بينهم وبينها أسباب من فتح أو عهد لأعادوا النظر فيها بعد انهيارها المخزى ، فكيف والسبب الذى انقطع كان أوهن من خيوط الباطل ؟ ولكن مسيخ نابليون يصمم على البقاء وإن أبدعت[1] الحجة ، ويصر على المعاهدة وإن فقدت الثقة ! فهو يجلب للدد ، ليعزز العدد ، و ينصب المدافع ، ليحصن المواقع ، ويتحدى حمية العرب الذين كان آباؤهم يحملون السيوف ليقودوا الأمم ، أيام كان آباء هؤلاء من (الغال) يحملون العصى ليقودوا الغنم! فلم يكن بد من قبول التحدى. ووقف الكماة الأباة العزل يتلقون برءوسهم قنابل النار ، وبصدورهم قذائف الرصاص ، دون أن يفروا كما فر فى (سدّان) خلفاء نابليون الثالث وهم مدججون بالسلاح محصنون بالمدافع . فاستشهد من السوريين على أرض سورية الكريمة العظيمة ثمانمائة وجرح ألفان ! وكاد أربعون مليونا من العرب يؤججون بأجسادهم هذه النار ليصلى بها من يشاء الله أن يصلى ، لولا أن رفع الصوتَ من يملك الرفع والخفض[2] ، فانخلعت قلوب القادة وانخرعت متون الجنود !

ولا والله ماذهب باطلا ذلك الدم الذى طهر سورية من الدخيل ، وجمع كلمة العرب وقوتها من شرق دجلة إلى غرب النيل !

---

(١) ابدعت الحجة : ضعف .　　(٢) صوت انجلترا .

# نهضة العرب مشكلة !

( ٢ يوليو سنة ١٩٤٥ )

نعم ، كذلك قال السياسي الخطير ديجول ، وقوله من وجهة نظره سديد معقول ؛ فإن الجنرال يرى على ما يظهر أن العرب دواب سُخِّروا لنقل الأحمال وجر الأثقال ، أو هم على رأيه الأفضل عبيد خلقوا للخدمة والاستغلال . ومتى عرف الحيوان أو العبد حقه وواجبه ، فقد حطّم راكبه أو قتل صاحبه !

بهذا المنطق الفرنسي وحده تستطيع أن تعقل ما قال هذا الرجل . فإذا أكرهت منطق الناس ، على تصحيح قوله بالقياس ، فقد حمّلته مالا يطاق ، وكلفته مالا يدرك ! وأى عقل غير عقل الجنرال يُسيغ أن فرداً من نوع الإنسان يرى فى نهضة أخيه الإنسان مشكلا تعقد لحله المؤتمرات ، وخطراً تقام لصده المعسكرات ، وسبباً يختصم لأجله العالم بأسره ؟!

لقد زعموا أن ( الانتداب ) رسالة الغرب إلى الشرق ، فهو يحيل صحاريه فراديس . ويجعل أناسيَّه ملائكة ، فما بالهم إذن يتسعّرون بالغيظ ، ويتنمرون بالعداوة ، لأن العرب قد أدركوا أنهم ناس كسائر الناس ، لهم وطن لا يشركون به ، واستقلال لا يساومون عليه ، وسلطان لا ينزلون عنه ؟! أليس ذلك لأنهم يرمون بنشر مدنيتهم إلى استعباد الجسوم ، وبتعميم ثقافتهم إلى استرقاق الحلوم ، وبفرض انتدابهم إلى امتلاك الأرض ؟

* * *

أتدرى من أسمج من ذلك العتلّ الغليظ الذى يلقى بجسمه اللحيم الشحيم على صدر الفتاة الرشيقة الرقيقة فى ملأ من الناس ، ثم يفغر فاه الأبخر ، ويصيح بملء صوته الأصحل : أحبك فلا بد أن تحبيني ، وأدعوك فلا مناص من أن

تجيبيني ؟ أسمج منه ذلك الطفيلي الرقيع الذى يقتحم عليك دارك ويقول لك ؟ صادقني لأنني أحب طعامك ، وضيفني لأنني أريد إكرامك، وعاهدني لأكون سيدك وإمامك ، وأطعني لأقوم في كل أمر مقامك ؛ فإن أبيت أو تأبيت فالسيف، حتى تقول أنا المضيف وأنت الضيف !

يالكثافة الظل ! أبهذه الرقاعة الثقيلة والفضول البغيض يطمعون أن يحملوا العرب في شمال أفريقية ، وفي لبنان وسورية ، على أن يأخذوا ( الجنسية ) ليعطوا الدين ، ويُمنحوا الثقافة ليَسلبوا العقل ، ويدخلوا في التحالف ليخرجوا من الوطن ؟

يالسخافة العقل ! أبهذه النية المدخولة والكلام المزور يخادعون خمسين مليوناً من العرب تثور في دمائهم أربعة عشر قرناً من التاريخ المجيد الحافل بالنبوة الهادية ، والخلافة العادلة ، والفتوح المحرِّرة ، والقيام على ملك الله بالعمارة والعدل ، والمحافظة على تراث الفكر بالزيادة والنقل ؟ .

إن العرب بعد اليوم لن يُخدعوا ، وإن أبناء الفاتحين لغير الله لن يخضعوا. وإن ( جامعة الدول العربية ) هي الظاهرة الأولى لفورة الدم وثورة التاريخ ؛ فليتدبر ذلك القائمون على إقرار السلم ، والموقعون على ميثاق السلامة !

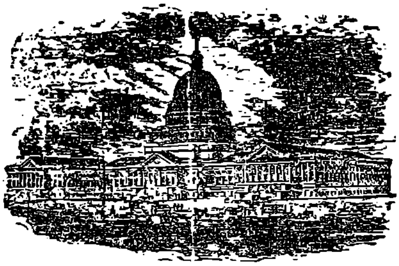

# الثغر يضحك !

( ١٦ يوليه سنة ١٩٤٥ )

نعم ، يضحك ثغر الاسكندرية اليوم بملء شدقيه ، وعلى مضاحكه الغر العذاب سمات ، وفي ضحكاته المرجّعة الموقّعة دلائل ! يضحك بعد أن قضت عليه الحرب بالعبوس المظلم ست سنين لم يسكن فيها روعه ، ولم يرقأ دمعه ؛ فهو يضحك ضحكة الشامت بخطوب طغت ثم زالت ، ودول بغت ثم دالت ، وقوم أرادوا أن يسخروا الأقدار فسخرت منهم ، وطمعوا أن يصرّفوا الحظوظ فانصرفت عنهم ، ومغتر أشار إلى بحر العرب(١) وقال إنه بحرنا ، فقال له القدر الراصد : بل قل إنه قبرنا ! .

* * *

والثغر يضحك من القاهرة كما يضحك أبيقور أو أبو نواس من الكلبيين أو المتزمتين الذين اتخذوا الحياة جداً من غير لهو ، وعبوساً من غير طلاقة ، وسعياً من غير جمام ، وخصاماً من غير بقيا ، وعراكاً من غير هدنة : ويقول وهو ينظر إلى البحر ، للعاصمة التي تنظر إلى الصحراء : إن الحياة زبد ورمال ، وموج وجبال ؛ ففيها الصلابة والمرونة ، وفيها الرصانة والرعونة ، وفيها العبث الذي يفور ويذهب ، والجد الذي يطمئن ويمكث ؛ وفيها المرح الذي يكتسي جمال الحياة ، والوقار الذي يرتدي جلال الموت . وهيهات أن تصلح الدنيا على المعالجة ، إذا لم تساعدها الطبيعة بهذه المزاوجة !

---

(١) بحر العرب هو البحر الأبيض والمغتر هو موسوليني .

والثغر يضحك للقاهريين الذين يتهالكون من الجهد على أحضانه ، ويترامون من الكلال فوق شطآنه ، ويقول لهم : تعالوا إلى الصفاء المحض ، والسرور الخالص ، والوداد المصفق ، والشعاع الذى يعافى الحسد ، والنسيم الذى يرد الروح ، ودعوا القاهرة للساسة الذين أوقدوا فيها نار الخصومة فزادوا وهجها، وضاعفوا رهجها[1] . وخلوا للزمان الحكم لهم أو عليهم ، فإنه لم يبق منهم أحد إلا أتهم الآخر . فإن كان ما قالوه حقاً فليس فيهم صالح . وإن كان ما قالوه باطلاً فليس فيهم صادق !

* * *

والثغر يضحك عند استانلى باى[2] ! وخليج استانلى مغاص للؤلؤ كخليج عُمان ؛ إلا أن اللآلىء هناك تغوص وهى هنا تعوم . لآلىء عُمان مصونة فى الأصداف لا تنال إلا ببذل النفس ، أما لآلىء استانلى فعارية مبذولة للنظر واللمس ! ومن لآلىء عُمان ما يباع بخزانة فى مصرف أو مساحة فى منجم، ولكن من لآلىء استانلى ما يباع بكأس فى حانة أو عشاء فى مطعم ! وهذه أروع ما برأ الله فى العالم الناطق ، وتلك أبدع ما صاغت يده فى العالم الصامت . ولكنه فضل الصون على الابتذال ، وفرق ما بين الحرام والحلال !

* * *

والثغر يضحك فى وجوه المصطافين كما يضحك الشباب فى الأجسام أو الربيع فى الخمائل ! فترى الشيخ فى مرح الشاب ، والشاب فى نزق الطفل ، وكلهم يجتمعون فى وحدة من الإخاء والرخاء والعافية والأمن تشعرهم بأنهم عبيد لإله واحد منعم ، وأبناء لوطن واحد مُنيل !

---

(١) الرهج : الغبار .

(٢) استانلى باى حمام من الحمامات العامة على شاطىء الرمل بالاسكندرية ، له شهرة بجماله وجمال قاصداته من نساء الروم والفرنج .

# رحم الله أودلف هتلر !

( ٢٧ يناير سنة ١٩٤٧ )

رب يوم بكيت فيه فلما صرت فى غيره بكيت عليه !

كان هتلر — سقى الله ضريحه إن كان له ضريح — رجلا صحيح النية صريح الرأى يقول لنفسه المكروبة بعد ما أجال النظر فى معاهدة فرساى : نحن جياع وفى رءوسنا الفكر ، وفى صدورنا العلم ؛ وفى أيدينا العمل . والآخرون شِباع وفى رءوسهم المكر ، وفى صدورهم الحقد ، وفى أيديهم السرقة . فما الذى أجاع العالم وأشبع الجاهل ، وأفقر العامل وأغنى المحتال ؟

وفى ساعة من ساعات التجلى ، وفى حانة من حانات ( ميونيخ ) ألقى عليه الجواب أن الذى أسغب هنا وأتخم هناك إنما هو رأس المال ! ورأس المال لفظ معناه اليهود وسماسرتهم من هذه الطفيليات التى تعيش على دم المجتمع كما يعيش البعوض والقمل على دماء الناس . فإذا قُطعت (رءوس الأموال) قُطعت الألسنة التى تكذب ، والأيدى التى تسرق ، والأسباب التى تفرّق . على ذلك حكم المرحوم بالإعدام على وايزمان وريثو وتشرشل ! ولو شاء ربك السلام للأرض والوئام للناس لما نقض هذا الحكم رزفلت واستالين . ولكنه لأمر يريده قضى أن يُشنق القاضى ويطلق المجرم ! ولو كان فى قدَر الله أن يكون هتلر قاضى ( نورمبرج[1] ) لما كان لفلسطين قضية ، ولا للسودان مشكلة ، ولا فى شمال أفريقية مأساة ، ولا فى الهند الصينية مجزرة .

(١) نورمبرج مدينة ألمانيا أقام فيها الحلفاء المنتصرون محكمة لمجرمى الحرب من الألمان المغلوبين .

مَن هؤلاء الملقون بجثثهم على موارد المسلمين فى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ، ويخضمون أرزاقهم خضمَ الخنازير ، ويحتلون بلادهم احتلال الصراصير ، ويفسدون أخلاقهم إفساد الأرَضية ؟ ومَن هؤلاء الوالغون فى النيل الطهور من منبعه إلى مصبه ، يسممونه بالجراثيم ، ويكدرونه بالشوائب ، ويحرشون على أهله التماسيح والأفاعى ؟ ومَن هؤلاء الجاثمون على صدور العرب فى فلسطين والعراق ، يبيحون العدو ذِمارهم ، ويمنحون الغريب ديارهم ، ويتصرفون فى شؤونهم تصرف القيم السفيه ؟

هم الفرنسيون طلقاء الحلفاء وعتقاء القدَر الذين يزعمون أنهم أعلنوا حقوق الإنسان . وأقاموا صروح الحضارة ، وعبّدوا طرق الثقافة ، وورثوا اليونان فى الآداب والرومان فى القوانين ! !

وهم الإنجليز أموات (دنكرك[1]) وأحياء (العلمين) وصنائع الحظ الذين لا يزالون يتبجحون بأنهم رسل الحرية وجنود الديمقراطية ومنقذو العالم من طغيان نابليون وغليوم وهتلر !

فليت شعرى متى تنكشف أغشية الغرور عن قلوب هؤلاء المساكين فيعلموا أنهم لم ينتصروا ، وأن خصومهم النازيين لم ينكسروا . إنما انتصر الضمير الإنسانى فلن يجوز عليه خداع ، وانهزم الروح الاستعمارى فلن يغنى عنه بعد اليوم دفاع !

وما أجدر الذى يتنكر اليوم لمصر الكريمة أن يعرف أن الفلك لا يجرى بأمره ، وأن البحر مهما يرتفع مدُّه فلا بد من جَزْره ! !

---

دنكرك ميناء على بحر الشمال تجاهه فلول الجيش الإنجليزى فى هزيمته المنكرة فى الحرب العالمية الثانية . و « العلمين » موضع بمصر على ساحل البحر الأبيض انتصر فيه الحلفاء على الألمان والطليان .

# أولياء ، وأعداء

( ٣ فبراير سنة ١٩٤٧ )

حياكِ الله ياسورية ! ورعاكَ الله يالُبنان ! لشدَّ ماقضيتما حق الأخوة ، وبيضتما وجه العروبة ! آسيتمانا حين صَّرح البغيءن محضه ، وحسر الباغى عن قناعه ؛ وآزرتما النيل حين صمم أن يدافع عن حوضه ، وأن يعبىء كل القوى فى دفاعه[1]

أما شرق الأردن ففيه جلوب ، وأما العراق ففيه كرنواليس[2] والرُجلان رِجْلان من أرجل الأخطبوط الضخم الذى أمِن الحوت فسيطر على معظم للماء وأكثر اليَبَس . ورجْل الأخطبوط خَتَمَ على أفواه الساسة ؛ يوضع بحذر ، ويرفع بقدَر . ولطالما كابد ساستنا مشقة هذا الختم أيام كانوا للأخطبوط أرقاء أو أصدقاء !

والاستعمار — كشف الله عناصره — على الأفواه كمامة ، وعلى العيون غمامة ، وعلى الآذان حجاب ، وفي الأعناق غلّ . ولكن الأمم العربية التى تستمد غذاءها الروحى من عقيدة الإسلام ، وآداب العرب ، وتاريخ الفتوح ، وحضارة الرشيد ، وثقافة المأمون ، لا يسعها إلا أن تخالف الرؤساء والزعماء لتتفق فى الشعور ، وتتحد فى الوجهة ، وتتعاطف فى المكروه ، وتتناصر فى الشدة . ولن تكون هذه العقارب التى يبسّها الأخطبوط من دعاة الوحدة العربية إلا طعمة للنار المقدسة التى يشبها شباب العرب لتذيب الغش وتنفى الخبث وتنكشف عن المعدن الصحيح .

---

(١) آزرت سورية ولبنان مصر فى قضيتها على انجلترا فى مجلس الأمن .

(٢) جلوب رجل عسكرى فى شرق الأردن ، وكرنواليس رجل سياسى فى العراق . وهما يومئذ يمثلان مشيئة الانجليز فى هذين البلدين .

برح الخفاء ونصل صبغ الرياء عن طبع إنجلترا فبدا على لونه الأصيل من خبث العنصر ولؤم الفطرة . وأصبح الأمر بيننا وبينها فى ذمة مجلس الأمن ، وهو الجهة التى زعموها موئل الحق ومثابة العدالة . فهل كان يظن ( جون بول ) أن مصر التى ظل خمسا وستين سنة يتصرف فى حكومتها وشعبها تصرف الراعى فى القطيع ، تقف منه موقف الند من الند فى مجلس القضاء الأممى تدمغ باطله بالحق ، وتدحض مراءه بالمنطق ؟ الحق أن صرح الإمبراطورية يوشك أن ينهار ما دام أمرها قد انتهى إلى سلطان العدل . وهل هى إلا بنيان ساهق من الزور المتراكم والظلم المتراكب يسنده دعامتان من دهاء السياسة وضخامة الأسطول ؟ على أن الدهاء قد فضحته يقظة الناس ، والأسطول قد نسفته طاقة الذرة . فماذا بقى لسيدة البحار ؟ إن انجلترا غنية بغيرها ، فلا تستغنى بنفسها إلا يوم تروض حلوقها ثانية على ازدراد القواقع والسمك. والرجل الذى يعيش على الناس يكون مع القوة لصاً يسلب ، ومع الضعف متسولا يستجدى. وقد زالت وسائل اللصوصية عن انجلترا باستيقاظ الوعى فى الأمم فى المستعمرة . وانخزال السلاح البحرى عن الأسلحة الحديثة ، والتجاء الدول إلى تحكيم القانون فرقا من المدمرات الخفية، فلم يبق لها إذن غير التسول بالمفاوضة ، والتعلل بالمعارضة ، والتسلل إلى البلاد فى ثياب الخونة من أهلها طلاب الملك أو الحكم أو المال ، كاتسلل الجراثيم إلى الأجساد على أرجل الذباب وأفواه الكلاب وأجسام الفئرة ! فإذا عرفنا نقلة الجراثيم عرفنا مصدر الوباء ، وإذا أمنا دسائس الخصم أمنا جور القضاء .

# في ميدان عابدين

( ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ )

شهد ميدان عابدين يومين من أيام الأنجليز السود سيظلان في تاريخ الاستعمار عنوانين على الخزى واللعنة ؛ يوم صحت أحلامهم فأخذوا يدخلون . ويوم زلت أقدامهم فأخذوا يخرجون ! أما اليوم الأول فهو التاسع من شهر سبتمبر عام ١٨٨١ يوم وقف عرابى فى ساحة القصر ، ومن خلفه الجنود ومن خلف الجنود الشعب ، يطلب من ولىّ الأمر فى احتشام واحترام أن يقيل وزارة ويقيم وزارة .

وكان ( كلفن ) ابن جون بول واقفاً بجانب الخديو يشير عليه بقتل القائد الثائر . فلما نبا[1] ( توفيق) فى يد الحية، واستجاب لرغبة الأمة، قبض مشير السوء وسفير الاستعمار بكلتا يديه على ناصية الفرصة العجلى حتى لا تفوت ، وأخذ يزرع بين القصر والحكومة الزرع الخبيث ، حتى فسد الأمر، واستطار الشر ،وعصفت رياح الفتنة . وحينئذ وضع الماكر الخدّاع يديه على قوائم العرش يوهم صاحبه أنه يمسكه ، وهو الذى يحركه . ثم وجد من طعام الطابور الخامس من أعانه بالخيانة على جيش الثورة ، فاحتل البلاد ونفى القواد وسيطر على الحكم !

وأما اليوم الآخر فهو الرابع من فبراير عام ١٩٤٢ يوم وقف (ما يلز لامبسون) حيث كان يقف عرابى ، ومن ورائه فلول الدبابات التى طحنها (رومل)[2] يطلب عن عرش النيل فى صفاقة وحماقة أن يقيل وزارة ويقيم وزارة . . . ولكن جون بول فى هذه المرة كان هواه مع عرابى لا مع القصر؛ فوضع الكرسى بإزاء

---

(١) نبا فى يده : عصاه .

(٢) رومل قائد ألمانى كان يقود الحملة الألمانية الايطالية على الجيش الانجليزى بمصر فى الحرب العالمية الثانية .

العرش ، والطربوش بجانب التاج ؛ ثم دفعه فجور النفس وفحش الضمير أن يقول لمصر وهو يقتحم أبواب القصر ببأس الحديد .

أريد أن يحكم هذا الوزير أو لا يملك هذا الملكُ !

كلمة مجرمة لم يقلها فى ذلك اليوم البعيد عرابى الثائر ، وإنما قوّله إياها الكذاب ليحكم عليه بالمصادرة والنفى ، وعلى وطنه بالاحتلال والحماية ! ولكن المجرم قالها فى هذا اليوم القريب بلسانه البذىء وسلاحه الجرىء ، فنزت فى الرؤوس نوازى الغضب ، وثارت بالنفوس عواصف الحمية ، وكاد الزمام يفلت من يد الحليم فيلتاث الأمر على انجلترا لولا أن سبق فى حكم الله أن الجبان يهزم الشجاع ، وأن العصا تكسر السيف ، وأن ( العلمين[1] ) تدمر ألمانيا !

لقد أثار جون بول الجيش يوم عرابى ، والجيش قد ينهزم لأنه عتاد وعَدَد ؛ ولكنه أثار الشعب يوم لمبسون ، والشعب لا ينهزم لأنه روح ومدد ! وإذا دخل اللص منصوراً وراء الجيش ، فإنه سيخرج مدحوراً أمام الشعب . وإذا كان فى يوم الدخول قد وجد الخائنَ الذى تلقاه فى ( التل الكبير ) ودله على الباب الخلفى وقاده إلى فناء القلعة ؛ فلن يجد بعون الله يوم الخروج إلا ألسنة تجرى باللعن ، وأرجلا تمتد بالركل ، وأيديا تشير إلى جهنم !

إلى القضاء يا مجرم ! إلى المحكمة التى أنشأتها ستختصم ، وإلى القوانين التى سننتها ستحتكم . فإذا كنت أنت وحلفاؤك جادّين ، فسيحكمون عليك بما حكمت به على عرابى . وإن كنتم هازلين فارتقب يوم ينذرك القضاء بحكم القدر ، وتأخذك الصيحة الكبرى فلا تبقى عليك ولا تذر !

---

(١) موقعة العلمين بمصر هى التى هزم فيها الانجليز الألمان فقررت مصير الحرب .

# الجامعة الإسلامية هي الغاية

( ٣٠ يونية سنة ١٩٤٧ )

نشأت جامعة الدول العربية ، وكان نشوؤها ضروريا وإن أشار به (إيدن[١]) وقامت دولة الباكستان الإسلامية ، وكان قيامها طبيعيا وإن سعى له (مونتباتن[٢]) تلك لأن العروبة في يقظة ، وهذه لأن الإسلام في انبعاث . ويقظة العروبة هبة من الروح العالمي الذي دفع الأقوياء إلى الحرب ، والضعفاء إلى التعاون ، والأشتات إلى الوحدة . وانبعاثُ الإسلام أثر لتناقض المذاهب وتعارضْ الشرائع وافتقاد الإنسانية لذلك النظام الإلهي الذي يسدد خطاها ويحفظ عليها قواها . وما كان فضل انجلترا في هذين الحدثين العظيمين إلا فضل القابلة . سهلت الولادة ولكنها لم تخلق الوليد . وسيحذو المسلمون في الصين حذو المسلمين في الهند وإندونيسيا فتنشأ الدولة الإسلامية الثانية في القوة والعدد ؛ ثم تنكفىء تركيا إلى الشرق ويرجع ساستها إلى الإسلام ، فيكون منها لكتلة الدول المحمدية روح ومدد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، إذ يرون كلمته هي العليا . وعقدته هي الوثقى وحزبه هو الغالب .

فالجامعة الإسلامية ، أو البانسلامِزمْ كما يسميها الغربيون ، هي الغاية المحتومة التي ستتوافى عندها أمم الإسلام في يوم قريب أو بعيد . ذلك لأنها النظام السياسي الذي وضعه الله بقوله : « إنما المؤمنون إخوة » ثم شرع له الحج مؤتمراً سنوياً ليقوى ، وجعل له الخلافة رباطاً أبديا ليبقى . وهذا النظام الإلهي

---

(١) ايدن وزير خارجية انجلترا يومئذ وهو الذي أشار بقيام جامعة الدول العربية .

(٢) مونتباتن كان حاكم الهند يوم أن انقسمت إلى باكستان والهندستان .

أجدر النظم بكرامة الإنسان ، لأنه يقوم على الإخاء فى الروح ، والمساواة فى الحق ، والتعاون على الخير ، فلا يفرق بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون ، ولا بين طبقة وطبقة .

وظلت الجامعة الإسلامية ، فى ظلال إمارة المؤمنين وإمارة الحجيج ، قوية شاملة حتى خلافة المتوكل . ثم وهى السمط فانفرط العقد ، واضطرب اللسان فتفرقت الكلمة . فلما تبوأ الترك عرش الخلافة استطاعوا أن يبرموا الخيط ولكنهم لم يستطيعوا أن ينظموا فيه الحب . فبقى المسلمون عباديد لا ينظمهم سلك ولا تؤلف بينهم وحدة . ثم أدركت الشيخوخة دولة العثمانيين فى أواخر القرن التاسع عشر ، فتعاوت على جسدها الواهن المنحلّ ذئاب الغرب ، فلوح لهم عبد الحميد بالجامعة الإسلامية ذياداً عن ملكه ، فهرّوا هرير الكلاب المذعورة ، وصور لهم هذا الذعر أن الجامعة هى التعصب وسفك الدماء ، فصدقوا وهمهم وكذبوا الواقع . وكان الاستعمار يومئذ قد توقح وفجَر ، فنشأت العصبية الوطنية فى الأقطار الإسلامية لدرء خطره ، أو تخفيف ضرره . والوطنية لا تعارض الجامعة، ولكنها تفارقها فى الطريق لتلاقيها عند الغاية .

إن أوربا التى مزقتها الأطماع وطحنتها الحروب ، سترحب اليوم بالجامعة الإسلامية ، لأنها وحدها تملك غرس الوئام فى النفوس ، وإقرار السلام فى العالم . إنها تقوم على الإيمان المحض ، وتنزل فى خير مكان من الأرض ، وتشمل مئات الملايين من الناس ، وتهيمن على الموارد الأولى للاقتصاد ، وتدين بالآداب السماوية المثلى للاجتماع ، وتشرق أعمالها فى الصفحات العظمى من التاريخ ؛ فمن المحال أن تظل نهباً مقسما بين فرنسا الحمقاء ، وانجلترة المتطفلة ، وهولندة الأنثى !

# أحمد عرابى المفترى عليه

( ٢٨ يوليه سنة ١٩٤٧ )

ذلك عنوان الكتاب الفريد الذى أخرجه للناس فى هذا الأسبوع صديقنا الكاتب الشاعر المؤرخ الأستاذ محمود الخفيف ، عن زعيمنا الوطنى الأبى المجاهد المظلوم أحمد عرابى . وهذا الكتاب هو الحق الذى اختفى منذ خمسة وستين عاماً لم يظهر فى خلالها على لسان ولا قلم ، حتى ظهر أخيراً على ضوء هذا اليراع النبيل رائع البيان ساطع الحجة . والحق كالصبح لابد أن ينبلج مهما يتطاول الليل ويحلولك ظلامه .

استبهمت معالم الحق فى قضية الضابط الفرنسى ( دريفوس ) اثنتى عشرة سنة حتى جلاه الكاتب الجرىء إميل زولا ، فأجبر القضاء العسكرىّ على رد اعتباره ، وإطلاقه من إساره .

واستعجمت مذاهب العدل فى قضية عرابى ثلثى قرن حتى أبانه الكاتب النزيه محمود الخفيف ، فإذا عرابى زعيمنا الصادق ، وقائدنا الشجاع ، وموقظنا المبكر ! .

تاريخ عرابى هو تاريخ الثورة الوطنية ، والنهضة القومية ، و (المسألة المصرية)، والنكبة الإنجليزية ، وقضية الوادى كله فإذا كُتب على النهج الواضح ، والمرجع الثقة ، والاستقصاء المحيط ، والتمحيص الكاشف ، والاستنتاج الصحيح، والتحليل الدقيق ، والتعليل الصائب ، والتبويب المحكم ، كان لمصر من هذا التاريخ نور يضىء لها جوانب الطريق إلى ( مجلس الأمن ) ؛ لأن عرابى هو اليد البريئة التى

سخرها القدر لكشف الستار عن مأساة الاحتلال ، والنقراشي [1] هو اليد الجريئة التي يهيئها الله اليوم لإرخاء الستر على فصلها الأخير . ومن المحال أن تدرك مرامى الرواية إذا نمت عن بعض الحوادث أو غبت عن بعض الفصول . والأستاذ الخفيف قد اجتمعت له فى هذا الكتاب أولئك المزايا ؛ فهو من حيث المادة لم يدع مصدراً يعول عليه من المؤلفات والمذكرات والمقالات والوثائق والرسائل والأحاديث إلا استمد منه بعد النظر النافذ والموازنة العادلة . ومن حيث الطريقة قد اتخذ المنطق ميزاناً يأخذ به ويعطى ، فهو يروى بالنص الصريح ، ويدّعى بالدليل الناهض ، ويُقنع بالحجة العالية ، ويدافع بالحق المبين ، ويستقرى فيحسن الاستقراء ، ويستنتج فيجيد الاستنتاج . ثم جعل همه منذ اللحظة الأولى تبرئة الجندى الثائر ، فسلسل الوقائع والفصول سَلسلة المقدمات الصحيحة ، ثم خرج منها بالنتيجة التى لا موضع فيها للشبهة . ومن حيث الأسلوب قد اختار اللفظ السائغ ، والنظم المنسق ، والسياق المطرد ، والمعرض الجذاب ، حتى ليستولى على القارىء العجلان فيمعن فيه لولا أن الكتاب ستمائة صفحة والقيظ مقلق والصيام مرهق [2] ، ولكنه على كل حال لن يفتح كتاباً غيره حتى يفرغ منه !

إن هذا الكتاب أول كتاب فى بابه . ولعلّه هو وكتاب ( الله ) للأستاذ العقاد كتابا السنة ؛ لأنهما على اختلافهما فى الموضوع والوضع خطَوا بالكتاب المصرى خطوة سديدة ، وأضافا إلى الأدب العربى ثروة جديدة .

---

(١) محمود فهمى النقراشي باشا كان رئيس الوزارة المصرية فى ذلك الحين ، وهو الذى رفع قضية مصر على انجلترا إلى مجلس الأمن .

(٢) ظهر هذا الكتاب فى شهر رمضان .

# نحن والظالم أمام القضاء!

( ١١ أغسطس سنة ١٩٤٧ )

كان يوم الثلاثاء الماضي يوماً مشهوداً في تاريخ مصر! رددت ذكره الألسنة والأقلام في كل لغة وفي كل أرض، وستردد ذكراه الألسنة والأقلام على مدى الأحقاب في كل عهد وفي كل معهد! في ذلك اليوم وقفت مصر كلها ممثلة في النقراشي، بجانب انجلترة كلها ممثلة في كادوجان، أمام العالم كله ممثلا في مجلس الأمن. ندّعى نحن ونثبت، وتغالط هي وتروغ، ويوازن هو بين حجج الإنسان يبسطها لسانٌ فيصل، وحجج الذئب يؤيدها نابٌ أعصل، والناس في مشارق الأرض ومغاربها يتتبعون المحاكمة ويترقبون الحكم ليروا بالتجربة أيخضع الأقوياء كما زعموا لسلطان العدل والعقل، أم يظلون كما كانوا يحافظون على الموضوع ولا يغيرون إلا في الشكل!

قضية وادي النيل قضية الحق الذي لا يماري فيه إلا الذين يتكئون على الباطل، ويعيشون على الحرام، ويتسعون على الظلم: وقد جعلها النقراشي بأدلته الواضحة وحججه الملزمة، من بدائه العقول، فلا يمكن أن تؤتى من جهة القانون والمنطق، إنما يجوز أن تؤتَى من جهة السياسة التقليدية القائمة على تبادل المنفعة وتقارُض المعونة. ويومئذ يعلم المؤمنون بتقدم العقل، والمتفائلون بتغلب العدل، أن العالم يكابد اليوم خدعة أخرى، وأن (هيئة الأمم المتحدة) لم تزده إلا اسماً جديداً للاستعمار في أخسّ معانيه وأقبح صوره.

كان النقراشى بإجماع المنصفين عظيما فى موقفه ، رائعاً فى بيانه ، بارعاً فى خطته ، صريحاً فى طلبه ، موفقا فى عرضه . فإذا لم يستطع صديقنا الأستاذ الجليل فارس الخورى رئيس مجلس الأمن أن يعصم البصائر من الزيغ ، والضمائر من الخدَر ، فلن نقول يوم يعمى أعضاؤه عن الحق : إننا أسأنا الدفاع ، أو أضعنا الفرصة ، أو تنكبنا الطريق ، ولكننا سنقول : تعلقنا بالخيال وتركنا الواقع ، وتذرعنا بالحق وأهملنا القوة . سنقول للنقراشى يوم يجعلون الحق دَبْر آذانهم[1] : أرهم أننا أقوياء كما أريتهم أننا محقون . وقل لهم إن شعباً كان تاجه الشمس ، ولا يزال علمه الهلال ، ومن بين يديه كتاب الله ينطق بالحق ، ومن خلفه دول العرب والإسلام تمده بالقوة ، لا يفشل من ضعف ، ولا يخذل من قلة .

— ولكن مالك تتسلف الخذلان وتتوقع الجور وتغلو فى التشاؤم وسوابق الأقضية فى مجلس الأمن تقوى الثقة به وتنفش الأمل فيه ؟ ألم تسمع بما قضى به على الروسيا فى إيران ، وعلى انجلترا وفرنسا فى سورية ولبنان ، وعلى هولنده وإندونسيا فى ساحة الميدان ؟

— بلى قد سمعت : ولكن لا ننسَ أن الذى تصرف كان الهوى لا القانون ، وأن الذى تعفف كان العجز لا العدالة . فهم إذا اختلفوا حكموا على أنفسهم ، وإذا اتفقوا حكموا على الناس !

(١) جعلوا الحق دبر آذانهم : أعرضوا عنه .

# القوة هي الحق! *

( ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٧ )

القوة هي الحق وما سواها باطل. فإذا رابك هذا القول فعارضته بآية من القرآن في الرحمة، أو بحديث من السنّة في العفة، أو بمأثور من الحكمة في البر، أو ببيت من الشعر في العدل، قلت لك ويداي مشبوكتان على صدري: صدق الله العظيم، أو برّ النبي الكريم، أو أحسن الواعظ الحكيم، أو أجاد الشاعر النابغ؛ ولكن للطبيعة طغيانا تكسر الأديان من غُلوائه ولا تمحوه، وللحياة سلطانا تكف الآداب من عاديته ولا تزيله. وما دام الغربيون يحنون إلى حياة الغاب، ولا يعترفون إلا بالظفر والناب، فإن كلمتى الحق والعدل تظلان مرادفتين لكلمتى الضعف والعجز، يجأر بهما المظلوم ويتصامّ عنهما الظالم!

على أن العدل والبر والإحسان وأخواتها من مهجورات الفضائل، إنما يُفهم التعامل بها بين الفرد والفرد، أو بين الأسرة والأسرة، لأن الأمر بينهما يقوم أكثره على عواطف الصداقة أو القرابة، فمظهره الإيثار والتسامح والتعاون. أما التعامل بها بين الشعب والشعب، أو بين الدولة والدولة، فإنما يقوم على جلب المنفعة أو دفع المضرة، فمظهره التفارس بالغيلة والحيلة الماثلتين في بأس الجيوش ومكر الساسة!

ماذا بيننا وبين إنكلترا أو فرنسا أو أمريكا من أسباب المودة؟ هل بيننا وبينها إلا ما يكون بين حيوان جائع تحت كفيه حَمَل، وأسد مسعور بين فكيه ناب؟ كيف ننشد الحق والعدل في دول الغرب وكل واحدة منها جعلت قصدها ووكدها أن تنفرد بخيرنا أو تشارك فيه؟ إنها عصبة من دول الشيطان تعاونت على الإثم والعدوان وتحالفت على العرب والاسلام والشرق! جرّبوا

آثار القوة فيهم فلم تفدهم التجربة ، وأصابهم الطغيان النازى فى أنفسهم وأموالهم فلم تعظهم الإصابة ، ووقفوا أمام جبار المحور ضعافاً ضارعين ست سنين طوالاً ثقالاً يطلبون من الله أن يسعفهم بالحق ، ومن القانون أن يؤيدهم بالعدل ، ومن العالم أن يرفدهم بالإحسان ، حتى إذا رأوا القدرَ القاهر يسلب القوة العامة ، ويعطل الآلة الحاطمة ، استطالوا على الله ، واستهانوا بالقانون ، واستكبروا على الناس ، وقال كل منهم . أنا اليوم وريث هتلر وخليفته ! ها هم أولاء لا تزال وجوههم محمرة من لطمات هتلر ، وأشلاؤهم مبعثرة بقذائف هتلر ، وبلادهم مخربة من قنابل هتلر ، وتراهم مع ذلك يجلسون فيما سموه مجلس الأمن جلسة النخّاسين فى سوق الرقيق ، يساومون فى حريات الأمم ، ويزايدون فى حقوق الشعوب ، وحجتهم العالية أن بلادهم تزخر بالحديد والنار ، ونفوسهم تجيش بالطمع والاستعمار !

القوة هى الحق وما سواها باطل . فمن عاش فى البرّية حَمَلاً أكلته الذئاب ، ومن سار فى القافلة أعزل سلبته اللصوص .

# قولوا استعدوا، ولا تقولوا اتحدوا

( ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٧ )

يسىء إلى كرامة مصر من يزعمون أن فيها اليوم جماعة وفرقة، ثم يحاولون أن يجمعوا المتفرق ويضموا الشتيت بدعاء داع أو سعى ساع أو إذاعة مذيع !

إن فى هذا الزعم اتهاما لبعض قومنا بالعقوق وقذفا لهم بالخيانة . ولا يجوز فى الطبع ولا فى الشرع أن نفترض الجريمة ثم نرتب على افتراضها ما يرتب على الأمر الواقع . قولوا استعدوا وانظروا يوم الاستعداد من يتلكأ وقولوا انفروا وانظروا بعد النفير من يتخلف. أمَّا أن تقولوا اتحدوا وائتلفوا وسووا الصفوف، ثم تنتظروا أن يقبل زيد رأس عمرو، ويرد عمرو قُبلة زيد، فذلك هو الهزل فى مقام الجد، والعبث فى موقف الخطورة !

ليست الأحزاب السبعة أو الثمانية هم جميع الأمة . وليست الزعماء التسعة أو العشرة هم كل القادة . وليست الأمة بأضعف غريزة من النحل التى تدفع عن بيوتها الزنابير ؛ فكيف تنتظر أن يقول لها هذا الحزب أو ذاك الزعيم دافعى عن أرضك التى منها تأكلين، وعن مائك الذى منه تشربين ؟

هذا يوم الفصل بين الاحتلال والاستقلال أو بين العبودية والحرية ؛ فمن تخلف فيه أو خزَّل عنه قوتل مقاتلة العدو، أو عومل معاملة المريض ؟

هذا يوم جهاد البغى والجور والاستعمار : فمن لم يكن لنا فيه فهو علينا ؛ ومن لم يقم للدفاع معنا فليس منا . والخارج علينا لغُلول فى نفسه، والمتخلف عنا لنكول فى طبعه، لا يردهما إلى الطريق قول معروف ولا عذل منكر .

اقرعوا الطبول يادعاة الجهاد تجدوا الأمة برجالها ونسائها أمامكم ، تضمر

فى قلوبها الضغينة ، وتظهر فى أيديها القوة ، لتجرد عدو الله وعدوكم من الباطل هنا ، كما جرده النقراشى من الحق هناك !

إن الذين يظهرون الأمة فى هذا المظهر الكاذب من الشقاق والافتراق والتخاذل فريق من الكتاب والساسة ، يقولون فنسمع ، ويكتبون فنقرأ ، حتى إذا اقتربت الساعة وجدّ الجد وحق الجهاد رأيت الأمة صحيحة الكيان قوية البنيان سليمة الوجدان ، لا تطيع غير رجل واحد هو القائد ، ولا تعرف غير عدو واحد هو الإنجليز !

قولوا استعدوا ولا تقولوا اتحدوا ؛ فإن الأمر بالاتحاد يتضمن اعترافا بالتفرق ؛ وفى ذلك تزييف للحقيقة ، وإيهان للعزيمة ، وإغراء للعدو !

إن من يزعم أن فى الأمة المصرية تفرقاً لأن صاحب العزة رئيس التحرير ، أو صاحب السعادة رئيس الحزب ، يريد أن يعارض ليضمن نقوده ، أو يخالف ليثبت وجوده ، كمن يزعم أن فى الجامعة العربية تصدعاً لأن صاحب الجلالة الهاشمية الملك عبد الله يريد أن يشرك سورية فى صداقته لبريطانيا ليرتفع عرشه شبرين ، ويتسع تاجه إصبعين ! كلا الزعمين ينكر الأمتين المصرية والأردنية ولا يزال يقول كما قال الأقدمون : إن أهواء السادة هى مصالح الأمة ، وإن إرادة الملوك هى شرائع الممالك !

لا يا سادة قولوا استعدوا ولا تقولوا اتحدوا ، فإن الاتحاد قائم بإرادة الأمة وإن النصر مكفول بمشيئة الله .

# الطابور الخامس في حرب الكوليرا

( ٢٠ أكتوبر ١٩٤٧ )

عبأت الحكومة المصرية لجهاد الكوليرا الإنجليزية[1] قوى الدولة ، وتجهزت للقائها بأفتك الأسلحة الحديثة من عزل وحصار وعلاج وتلقيح وتطهير ودعاية . وكان المرجوّ من كل أولئك أن يموت الداء الوليد في مهده ، وينكفىء الوباء العنيد عن قصده ، وترفضّ مخاوف الموت عن البلاد في مدى أسبوعين كما وعد بذلك أولو الأمر في أول الأمر . ولكن شهراً يوشك أن ينصرم والعدوى السريعة لا تزال تسرى ، والعلة الثقيلة لا تزال تستشرى ، والموت بمنجله الحاصد لا يزال يسبق الآجال في كل بقعة . فيما نعلل هذه الهزيمة وأسباب النصر موصولة ، ونتائجها مكفولة ، وطرائقها مؤدية ؟ نعللها بأن في صفوف العدو طابوراً خامساً يغذى المرض بالوقود ليشتعل ، ويشحذ للموت المناجل ليحصد . ذلك الطابور الخامس هو أطباء وزارة الصحة . ومن الإنصاف ألا نعمم الحكم؛ فإن من هؤلاء فريقاً لا يزالون أوفياء للانسانية خلصاء المهنة ، لم يفجروا في يمين أبقراط ، ولم يخرجوا عن قانون ابن سينا . ولكن هذا الفريق وأسفاه لم يزوروا الإقليم الذي نعيش اليوم فيه .

أكثر هؤلاء الأطباء منهومون بالمال ، يتهالكون على جمعه ، ويتنافسون في ادّخاره . وهم في سبيل تحصيله يسفهون الحق ، ويغفلون الواجب ، ويجهلون الرحمة ، وينكرون الحسنى ، ثم يخفون اللقاح المجاني عن الفقير ليظهره بالثمن للغنى ، ويصعّبون دخول المستشفى العام ليسهلوا دخول العيادة الخاصة ، يكلون

---

(١) نسبناها هذه النسبة لأن عدواها انتقلت من جيش الاحتلال في القنال إلى سائر البلاد المصرية .

تطبيب المرضى لأجلاف الممرضين وجفاة الخدم ليلعبوا النرد فى القهوة أو يلهوا بالورق فى النادى . ومن جراء هذا الإهمال والاستغلال والعنت استحب الناس المرض على الصحة ، وفضلوا الحلاق على الطبيب ، وضنوا بمرضاهم على المعازل فلم يبلغوا المركز عنهم ، حتى لا يموتوا وحَـــداء فى وحشة ، ولا يدفنوا غرباء فى مهانة .

هؤلاء الاطباء وأشباههم من غير الموظفين تعرفهم الحـكومة بالسماع والخبرة . ولولا سوءَ رأيها فيهم ، وترجيحها ما أشيع عنهم ، لما جعلت ألف جنيه مكافأة لـكل من يبلغها أن طبيبا تاجر بلقاح أو لقح بأجر .

وإنك لتعجب أن يكون فى الناس من لا يشغَل باله فى الوباء إلا بالثراء ، ومن طبيعة الإنسان إذا اكتنفته ظواهر المرض ومظاهر الموت أن يخشع قلبه وتزهد عينه ؛ ولـكن عجبك ينقضى إذا حشرك الله فى زمرة الذين يعيشون على حساب المرض والموت ، فجعلك طبيبا أو ممرضا أو حانوتيا أو نحو ذلك ، فيومئذ تشعر بحكم الإلف والعادة أنك أشبه بخدمة الموائد فى حفلة العرس ، أو بحملة القماقم فى موكب الجنازة ، لا يعنيك من الأمر غير الاجر ، ولا يغنيك عن شأنك شؤون الناس .

على أن فى الطبابة جزءاً من النبوة ، وشطراً من الحـكمة . وعلى هذا الشطر وذلك الجزء يعوّل الناس فى إيقاظ الضمير الإنسانى فى هؤلاء الاطباء ليعودوا رسل سلامة وملائـكة رحمة .

# يا أغنياءنا !

## قولوا أسلمنا ولا تقولوا آمنا

( ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٧ )

لا أزال معجباً بالحديث الديني الذى نشرته الاهرام منذ أسبوعين لصاحب السمو الملكى أمير الامراء محمد على بلغه الله أنفس العمر . وأشد ماحرك إعجابى به ، وأثلج صدرى منه ، قول الامير فيه عن نفسه : « إنى أشهد الله على أن كل توفيق أصبته وكل خير نلته ، منذ نشأتى إلى اليوم ، كان مرجعه إلى ائتمارى بأوامر الدين وانتهائى بنواهيه » وقوله عن مصر وأخواتها : « إنهن لو رجعن إلى الماضى العظيم لعلمن أننا لم نأت بخير ولم نظفر بسؤدد إلا برعاية الدين » .

جميل من سمو الولى أن يعتقد الدين ويعمل به ويتعصب له ويدعو إليه فى وقت نسى الناس فيه الله ، فعبد الامراء الشهوة ، وأله الاغنياء المال ، واتّبع الزعماء الهوى ، واستجدى الفقراء الحظ — ولكن — وما ( لكن ) إلا حرف جرىء ملعون يستدرك على كل موجود ماخلا الله — لماذا اقتصر أمير الامراء من فضائل الإسلام على ( المحبة والسلام والصلاة والصيام والعمل والصبر والطهارة ) وقد كنا نطمع فى صدق إيمانه وسمو بيانه أن يذكر كذلك الزكاة والإحسان والبر والتعاون ، ليعلم أولئك الامراء الذين أسلموا ولم يؤمنوا ، وهؤلاء الاغنياء الذين أساءوا ولم يحسنوا ، أن الدين عمل ومعاملة ، وتثقيف وتكليف ، وإيثار وتضحية ؟ نعم كنا نطمع فى سمو الامير وهو القدوة الحسنى فى قول الحق وعمل المعروف أن يدعو إلى الجهة العملية من الدين

عسى أن يستجيب له أولئك الذوات المدللون المرفهون الذين ميزهم الوطن كرهاً على بنيه وآثرهم الشعب جهلا على نفسة ، فيؤتوا حق الله فى أموالهم لتقوى الحكومة على أن تدفع عنهم الوباء ، و يشجع الفقراء على أن يشغلوا عنهم الموت. وحق الله الذى يشبع الجائع ويكسو العارى ويداوى المريض ويكفن الميت ، ضئيل بجانب حق الشيطان الذى يولم الولائم الفاجرة ، ويقيم السهرات الداعرة، ويجود على انجلترا الخؤون من غير طلب ، وينفق على تركية العقوق من غير حساب . ولكن حق الله على ضآلته ثقيل لأنة ينفق على العامل والفلاح، وحق الشيطان على ضخامته خفيف لأنه ينفق فى الميسر والراح !

إن أكثر الأمراء عقام أوأعزاب ، فلاعيال يكافون فى الحياة ، ولاأعقاب يرثون بعد الموت . فليت شعرى لم لايتبنون هذا الشعب الكريم وهو الذى وضعهم فى ركب الحياة على كاهله ؟ فأقدامه تحفى من الكلال وهم فى دعة ، وجسمه يضوى من الإقلال وهم فى سعة ، ونفسه تضطرب من الأهوال وهم فى أمن ؟ إنهم إلا يفعلوا يندموا ، فإن من المشكوك فيه أن يتسع حلم الشعب طويلا لهذا التفريط فى جنبة . وإن من الصعب أن يغمض عن كزازة أغنيائه وهم يرون وباء الهيضة يقطع السبل ويشل الأيدى ويحصد الأنفس فلايبسطون لسانا بمعروف، ولايمدون يداً بمعونة !

إن الإمارة لا تكفى للسعادة . وإن المال لا يجزى عن الشرف وإن الدنيا لاتغنى عن الآخرة .

# لا إله اليوم إلا الهوى!

( أول ديسمبر سنة ١٩٤٧ )

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ؟ ذلك هو إنسان اليوم . وإن شئت فقل هو إنسان الدهر كله! زعم ابن آدم أنه عرف الله وعلم الحق وحكم العقل وآثر العدل وتوخى السلام ، وراءى بعضه بعضاً فتظاهروا بالتصديق ، ونافقوا بالإيمان ، وشقشق خطباؤهم بالهدى ، وتشدق شعراؤهم بالحكمة ، وفي قرارة كل امرىء أن الله معناه الهوى ، وأن الحق معناه المنفعة ، وأن العقل معناه الحيلة ؛ فأنا وأنت وهو إنما نذكر عزائم الله[1] وفضائل الخلق وفرائض القانون إذا لم يكن من ذكرها بد لإدراك الغنيمة مع الراحة ، أو اتقاء الهزيمة عند العجز . وغاية السياسة الآدمية أن تكون ثعلباً مع الضعف وأسداً مع القوة !

أزِلْ عن عينك إن استطعت ما غشيها من رياء الإنسانية وخداع المدنية ، ثم انظر إلى حقيقة الإنسان في نفسك ، وفي عشرائك في البيت ، ورفقائك في المدرسة ، وخلطائك في القهوة ، وزملائك في العمل ، ورؤسائك في الديوان ، ونوابك في البرلمان ، ووزرائك في الحكومة ، فلا تجد إلا غرائز الحيوان الوحشي تسمّت بأحسن الأسماء ، وتزيت بأجمل الأزياء ، وتجلت في أبهى المناظر : فالتفارس تنافس ، والأثرة محبة ، والطمع طموح ، والاستغلال تعاون ، والاستعمار تحالف ، والقوة حق ، والضعف عفة ، والحرمان قناعة ، والختل سياسة ، والشعوذة دين ، والعصبية وطنية !

---

(١) عزائم الله : فرائضه التي أوجبها على عباده .

قد يخدعك الغطاء الذهبى على الناب ، والقفاز الحريرى على المخلب ، فتحسب أن هذا الإنسان الذى هتك بعلمه أستار الطبيعة ، وكشف بعقله أسرار الوجود ، قد هذبه العلم وصقله التمدن ، فارتفع من الأرض إلى السماء ، وانتقل من الحيوان إلى الملاك ، ولكن خلافاً يشجر بين الإخوة على ميراث ، أوشقاقاً ينشأ بين الزعماء على منصب ، أو نزاعا يحدث بين الدول على بلد ، يستطيع أن يشق الذهب و يمزق الحرير فترى الوحش الآدمى على جبلته بادى النواجذ متقد العينين ، يتحلب الريق من أنيابه ، ويقطر الدم من أظفاره !

هانحن أولاء ، كنا نظن لوفرة المساجد فى المدن والقرى ، وكثرة السُّبح فى الرقاب والأيدى ، وتنافس الفقراء فى إقام الصلاة ، وتسابق الأغنياء إلى أداء الحج ، أن الدين قد سيطر على القلوب وهيمن على الضمائر . . . فلما ابتلانا الله بوباء الهيضة الجارف ، ووقع الإيمان المزيف تحت المحك ، تمزقت الأغشية عن عفن فى نفوس أكثر الأغنياء والأطباء والمسئولين كان أزكى روائحه روائح الرشوة والشح والسرقة والتواكل والتخاذل والتفريط والقسوة . . . وكل هذه الموبقات مشتقات من مصدر واحد هو الأثرة !

وهذه هيئة الأمم المتحدة ، كنا نظن لفرط ماعانى الحلفاء من أهوال الحرب وكابدوا من نتائجها ، أنهم يقيمون العالم الجديد على قواعد الميثاق الأطلسى الأربع ، فلما تقدمت مصر وفلسطين إليها تستعديان قوى ميثاقها على بغى انجلترا وجور أمريكا لم تجدا فى قاعة مجلس الأمن إلا مجمع الوحوش والبهائم الذى تخيله ( لافونتين ) فى الغاب !

إن الرجل يعمل لنفسه ثم لأبنائه ، وإن الحزب يعمل لرئيسه ثم لأعضائه ، وإن الشعب يعمل لمليكه ثم لوزرائه ! فمن زعم أن الأنانية تتجه إلى الغيرية ، وأن الحزبية تعمل للوطنية ، وأن الوطنية ترمى إلى الإنسانية ، فقد زور على الإنسان وكذب على الطبيعة !

# صليبية من نوع جديد

( ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٧ )

شتان بين الغزوات الصليبية الثمان التي شنتها أوربا النصرانية على الشرق المسلم في مدى قرنين من العصر الوسيط ، و بين هذه الصليبية التاسعة التي تشنها أوربا وأمريكا على فلسطين في هذه الأيام من عصرنا الحديث !

تلك غزوات كان مبعثها الفروسية المسيحية والعصبية الدينية ، صدرت عن الإيمان وابتغت مرضاة المسيح . وهذه غزوة بعثتها اللصوصية الدولية والطماعية الدنيوية فصدرت عن الكفر وابتغت مرضاة يهوذا ! ويهوذا هو اليهودي الذي باع المسيح إلى عدوه بدوانق معدودة قبل أن يصيح الديك . وهو الذي روّى بالدم المسفوح شجرة الصليب فأثمرت العذاب للناس والخراب للأرض !

ولا يزال يهوذا المسيح ينافس في الشر إبليس آدم : يبغي الغوائل لأتباع عيسى كما ينصب الحبائل لأتباع محمد . فلكل مصلح من يديه صليب ، ولكل نهضة من وساوسه نصيب ، ولكل أمة من دسائسه فتنة !

ومن أعجب الأمور أن تتعاون اليوم دول النصرانية على أن تجعل صانع الصليب سادناً لقبر المسيح وكاهناً لكنيسة القيامة !

لقد كان بطرس الناسك ولويس التاسع أدنى إلى الإيمان من بلفور الواعد وستالين المساعد وترومان المنفذ ! كانا يؤلبان حملة الصلبان على أن ينتزعوا مفاتيح الأقداس المسيحية في فلسطين من أيدي المسلمين سدنتها الشرعيين ليضعوها في أيدي النصارى الغربيين . أما هؤلاء فقد حملوا الأمم المتحدة المسيحية على أن

تجود بها على سلائل ( اسخريوط ) من صهاينة اليهود ! والجود بما لا تملك على من لا يستحق أغرب حوادث الجود !

ليست المسألة إذن مسألة دين أو جنس ؛ إنما هى مسألة استعمار وتنافس . وليست مدافعة الصهيونيين عن قلب العروبة أمراً يعنى فلسطين وحدها أو المسلمين وحدهم ، إنما هو أمر يعنى الأقطار العربية جمعاء ، ويهم العرب مسلمين ومسيحيين على السواء !

ذلك لأن الهيضة ظهرت جراثيمها فى ( القرين ) ، ثم ظهرت أعراضها بعد أيام فى ( قنا ) . والسرطان إذا نشبت جذوره فى عضو نجمت فروعه فى كل عضو . والصهيونية إذا عشش بومها فى خرائب (سليمان) طبقت أفراخها الأرض ما بين النيل والفرات . والعلق إذا فشا فى ماء شق على ذى الدم الحار أن يعيش فيه . واليهود علق البشرية يمتصون دمها ثم يفرزونه كالعنكبوت خيوطاً من الذهب يصيدون بها الذباب والبعوض من ساسة أوربا وأمريكا ! ومادام أمر الصهيونيين والمستعمرين قائماً على العدوان والجور ، فإن الفيصل بيننا وبينهم هو القوة . والقوة منذ جعلها الله قواماً لهذا الكون أودعها الإيمان والذهب والحديد .

فأما الإيمان فيجيش فى الصدور العربية جيشان السيل المزبد الهادر فتسمع اصطخابه فى كل بلد .

وأما الذهب فيفيض من الخزائن والجيوب ولن يبخل عربى على فلسطين بمال ولا ولد .

وأما الحديد فسيصوغه الذهب بأساً للايمان وروحاً للجلاد ومعنى للجَلَد . ومتى اجتمعت هذه الثلاثة للجيش المجاهد فهيهات أن يقف فى سبيله أحد !

# حسن، مرقص، كوهين

أبطال مسرحية مضحكة مثلها نجيب الريحانى — ( ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٧ )

خرج الثلاثة من مسرح رتز ، ثم جلسوا فى قهوة من قهوات عماد الدين يعقدون صفقة من صفقات الربا الفاحش ، يطلبها حسن ، ويطبخها مرقص ، ويقدمها كوهين . فلما اتفقوا وذهب حسن يشترى كمبيالة مطبوعة من مكان قريب ، أقبل مرقص السمسار على كوهين المرابى يسأله فى خبث :

مرقص : أتدرى لماذا يقترض حسن منك هذه الخمسمائة جنيه ليؤديها إليك بعد عام ستمائة وليس مأزوماً ولا محروماً ولا صاحب مشروع ؟

كوهين : وما فائدتى فى أن أدرى ؟ إن غاية ما يعنينى من شؤون زبونى أن أعرف مقدار الفائدة وميعاد الأداء . أما غير ذلك فهو لا يملأ كيساً ولا يعمر خزانة !

م — ربما يعنيك هذه المرة أن تعرف سبب الاقتراض !

ك — هل يريد حسن أن يفتح بهذا المال بنكا للصِّرافة ؟ أم هل يريد أن يُقرضه زبوناً آخر أقدر ، بفائدة أخرى أكبر ؟

م — لا هذا ولا ذاك

ك — إذن أرحنى من الحديث فى شىء لا يُمر ولا يُحلى

م — وإذا كان يريد أن يتبرع بهذا القرض لفلسطين العربية ؟

ك — يالرَحمة الرب ! و ياقسوة القدر ! ويارحَم إسرائيل ! أنا . أنا أعين على قومى بمالى ؟ ونظر فرأى حسناً مقبلاً وفى يده الكمبيالة ، فكظم على جرَّته ،

و بسط ماتغضن من جبهته . ثم قال لحسن وهو يمد يده إليه بالـكمبيالة ليملأها :

ك — لقد بدالى ياحسن بك أن أؤجل عقد الصفقة إلى موعد آخر ! ذلك أدنى أن تنظر فى أمرك وأنظر فى أمرى ؛ فربما وجدت أنت لك دائناً أسهل، ووجدتُ أنا لى مديناً أفضل !

فقال له حسن ومخايل الدهش والعجب والامتعاض تختلط على وجهه :

ح — ولـكنك درست المسألة منذ أيام وانتهت إلى أننى وفى ملىء . . فما عدا مما بدا ؟

فبادر مرقص إلى الجواب وفى عينيه نظرة توحى ، وعلى شفتيه بسمة تغرى :

م — بلغه مايظهر أنك تقترض عرب فلسطين !

ح — وماذا فى هذا ؟ أليس كوهين مصرياً مثلى ومثلك ، وطنه مصر ، وقومه المصريون ، وإخوانه العرب ، وحاخامه ناحوم الذى قال : يهود مصر مصريون لاصهيونيون !

ك — نعم ياسيدى ! أنا كوهين بن بنيامين، وطنى الأرض الموعودة، وقومى اليهود ، وإخوانى الصهيونيون ، وحاخامى الحق هو الذى يتلو علىّ كل صباح قول الرب فى سفر التكوين : ( فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الـكبير نهر الفرات ) . و إذا كان لك فى فلسطين المسجد الأقصى ، ولمرقص مهد المسيح ، فإن لى فيها وعد إبراهيم ونسكه ، وهيكل وسليمان وملـكه ! ومن قال لك غير هذا من اليهود فقد اتقاك ، والتقية من وصايا الدين والسياسة !

ح — لسنا ندافع عن فلسطين لأن فيها المسجد الأقصى والقريب الأدنى وحسب ، إنما ندافع عنها لأن فيها مع ذلك ، الخطر الذى تصرح به الآية التى

تلوتها من سفر التكوين . . وكان الظن بك يا كوهين ، ومن ترى مصر هذا الشحم الذى يترجرج عليك ، ومن نيل مصر ذلك الذهب الذى يجرى فى يديك ، أن تنهض لمثل ما أنهض له عن سماحة نفس وطيب خاطر .

لم يستطع ابن يهوذا أن يسمع بقية الحديث ، فترك الكمبيالة على المائدة وقام حردان ، يده إلى مرقص ليصافحه ، وعينه إلى حسن ليقول له .

إن الدين والجنس والوطن هى الأقانيم اليهودية ، ألفاظها ثلاثة ولكن معناها واحد !

# من علامات الساعة!

( ١٣ يوليه سنة ١٩٤٨ )

من علامات الساعة أن يتشجع اليهودى فيحمل سلاحاً ويشهد حرباً ويحرز نصراً ويحتل مدينة ! !

ومن علامات الساعة أن يخرج اليهودى من البنك إلى الثكنة ، ومن الدكان إلى الميدان ، ليحارب العرب على فلسطين ، ويثأر للفرنج من صلاح الدين !

ومن علامات الساعة أن يكون لليهود جيش ينتصر على العرب فى حيفا ، وعلم يرفرف على المسجد فى يافا ، ودولة تريد أن تقوم في القدس ! !

كذلك من علامات الساعة أن ينهزم العربى أمام اليهودى ولو ظاهرته مادية الأمريكان وخديعة الانجليز وشيوعية الروس ؛ فإن الثعلب يكفيه أن يشم ريح الأسد من بعيد ليجحر ، وإن الفأر يكفيه أن يبصر الهر من فوق الجدار ليسقط ! يالله ماذا نرى ؟ نرى الألوف من نساء العرب وأطفال العرب يخرجون من ديارهم مشردين فى البر والبحر ؛ يلتمسون فى الشام المأوى ، و يطلبون فى مصر الأمن ، وأهلوهم مصرَّعون على ثرى الوطن الحبيب السليب بعد أن قذفوا فى صدر العدو آخر رصاصة ، ودفعوا غائلة الجوع بآخر كسرة ، وافتدوا وطن الآباء بآخر رمق !

يالله ماذا نسمع ؟ نسمع أن تل أبيب تحكم يافا ، وأن راية صهيون تخفق على مسجد ( حسن بك ) ، وأن بنى إسرائيل يذبحون الأبناء ويستحيون النساء فى دير ياسين !

لقد سمعنا أن اليهود يحتلون البلاد بالنساء والذهب ، ولكننا لم نسمع قبل اليوم أنهم يحتلونها بالرجال والحديد !

ماذا جرى حتى استجملت الناقة يايهود ؟ وما جرى حتى استنوق الجمل ياعرب ؟ جرى أن اليهود يعملون ونحن نقول ، ويجدّون ونحن نهزل ، ويبذلون ونحن نبخل ، ويتعاونون ونحن نتخاذل ، ويتكاون ونحن نتوا كل !

للجامعة العربية في كل شهر مؤتمر ، وفي كل أسبوع مجتمع ، وفي كل يوم قرار ، وفي كل ساعة تصريح ، وفي كل دقيقة خطبة ؛ وكل أولئك يحمله الهواء إلى المجاهدين المجهودين أصواتاً لا تدفع سيارة ، ولا ترفع طائرة ، ولا تحشو مدفعاً ، ولا تملأ بطناً ، ولا تبعث قوة . فإذا جاء يوم العمل نظر بعضهم إلى بعض ، فإذا الأول واقف لأن ( ترومان ) لم يتقدم ؛ وإذا الثاني ساكت لأن ( بيفن ) لم يتكلم . وإذا الثالث مترجح لأن الآخرين لم يستقروا على رأى .

وكنا قبل أن تنشأ ( الجامعة العربية ) أهواء متشعبة وآراء متضاربة وقوى متفرقة ، فكنا نجد عذرنا في هذا الانقسام ، ونعزو فشلنا إلى هذه الفرقة . ونهدد خصمنا بأن في جمعتنا الخلاص منه ، وفي وحدتنا القضاء عليه ؛ فلما أذن الله لأوطاننا أن تتصل ، ولدولنا أن تتحد ، ابتلانا بمحنة فلسطين ليعلم العدو المتربص ما وراء العربي إذا تجمع شمله . وما غناء الإسلام إذا تجدد حبله .

فالجامعة العربية اليوم في ميزان الأقدار وامتحان الشدائد ؛ فإذا رجحت كفتها على اليهودية رجحت في كل أمة ، وإذا ثبت معدنها على المحك في هذه الأزمة ثبت في كل أزمة .

إن مستقبلنا رهن بهذه المعركة ؛ فإذا كسبناها كسبنا جل ما نبغي ، وإذا خسرناها خسرنا كل ما نملك . ذلك لأن اليهود لا يستطيعون أن يقيموا لهم دولة في فلسطين إلا على عمَد من الجبهة الغربية أو الجبهة الشرقية . وأيًّا ما تكن هذه العَمد فإنها التدمير والتكفير والفوضى إذا كانت شيوعية ، وإنها الاستعمار والاستئثار والبلوى إذا كانت رأسمالية .

# لله جيش مصر!

( ٣١ مايو سنة ١٩٤٨ )

إن فلسطين لتشهد وهي ترى جيشنا اليوم على أرضها للمرة الرابعة أنه هو جيش رمسيس الثالث ببأسه ونجدته ، وأنه هو جيش صلاح الدين بإيمانه وشدته ، وأنه هو جيش إبراهيم ببسالته وجرأته ، وأنه هو جيش الإسلام الذى ورد فيه القول المأثور : « إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا بها جنداً كثيفاً ، فإن هذا الجند خير أجناد الأرض » . والتاريخ الذى سجل لجيشنا الأصيل النبيل هذه الشهادة المقدسة ، لا يزال يسجل تثبتها بما ينقل من مساعيه الصادق ومداعيه الخطيرة حقبة بعد حقبة . والواقع الذى جرى بالأمس ويجرى اليوم ، لا يزال يؤيد أن هذا الجند خير أجناد الأرض ، لا لأنه قهر الحجاز ولم تقو على قهره تركيا ، ولا لأنه فتح عكا وقد عجز عن فتحها نابليون بجيش فرنسا ، ولا لأنه سحق الجيش التركى بقيادة ( مولتكه ) نصيبين ولم تستطع سحقه روسيا ؛ ولكنه خير أجناد الأرض لأنه خرج من أسر انجلترا سليم الروح ، نقى الجوهر ، صليب العود ، شجاع القلب ، شديد الطماح ، بعد خمس وستين سنة قضاها فى قبضة المحتل ، غريباً فى وطنه ، بعيداً عن حصونه ، مجرداً من سلاحه ، تساومه سيطرة الإنجليز على عزته ، وتراوده رخاوة الكسل على حميته ، وتغالبه دعة الفراغ على بطولته . وبأيسر من بعض هذا انكسر بأس الجيش الفرنسى فخر على أقدام الألمان مبذول القيادة ، ضارع الخد ، لا يحفزه حافز من ذكرى جان دارك ، ولا يحجزه حاجز من مجد نابليون .

كان الشامتون والمتشائمون يقولون إن الاحتلال صير مصر امرأة . لها الزينة والمتاع ، وعلى عشاقها النفقة والدفاع ، حتى زين العبث لبعض الساسة فى الزمن

الأخير أن يزوجها من إنجلترا زواج الأبد لتضمن الكاسب وتأمن الغاصب . وجعل الإنجليز منذ مُنى باحتلالهم وادى النيل يمكنون لهذه الفكرة الخبيثة من نفوس الشعب ، فيزعمون أنهم دخلوا مصر ليحفظوا العرش ، وأنهم احتلوا مصر ليحموا البلاد ، حتى أنسونا ونحن عشرون مليوناً أننا زعزعنا عرش الخلافة ونحن مليونان ونصف ! ثم عملوا لدوام هذه الحال ، فسرحوا الجيش ، وزيفوا التعليم ، وعاثوا فى النفوس ، وعبثوا بالضمائر ، وسلطوا الأهواء على عقول الخاصة ، والأدواء على جسوم العامة ، حتى إذا حسبوا أنهم بلغوا ما أرادوا انتفضت الأمة المقبورة فزال الكفن وذهب العفن وفار الدم الحار وثار التاريخ المجيد ، واستهل وعينا القومى فى حكم سعد ؛ ثم بلغ رشده فى حكم النقراشى . ثم جاءت قضيتنا فى مجلس الأمن فكانت معركة الحق كسبناها بالقلم ، وأعقبتها قضية فلسطين فكانت معركة القوة وسنكسبها بالسيف ، وكان انتصارنا فى هاتين القضيتين دليلا من أدلة الواقع على أن أمتنا بخير :

إن جيشنا بأعماله الباهرة يرحض عنا بالفعل عار الكلام ، ويكشف عنا بالقوة ذل الضعف ، ويفاوض خصمنا فى الميدان على استقلالنا التام . فقدموا أيها الأغنياء العون لمن يبنى لكم المجد ، وابذلوا المال لمن يبذل فى سبيلكم الروح ، ولاتنسوا أننا منذ دخل جيشنا فلسطين بدأنا نعيش .

# أدبنا وهذه الحرب

( ١٢ يوليو سنة ١٩٤٨ )

كان أدباؤنا فى الحرب العالمية الثانية إذا سئلوا : ما بالكم تظلون « محايدين » والعالم من جهاته الست قد أخذته جِنة الحرب ونقضته حمى الهلاك ؟ أجابوا : وما لنا وللأمر لا جارّة لنا فيه ، ولا رادّة علينا منه ؟ ليست هذه الحرب لنا فتزهونا العزة ، وليست علينا فتهزنا الحميّة . إنما نحن منها كمن يشاهد من جانب الغاب معركة بين الوحوش ، يصيبه من شظاياها الناب المخلوع أو المخلب للقطوع أو المفصل الطائر ، فلا يعنيه إلا أن يسب الضارب والمضروب ، ويلعن الغالب والمغلوب . وهذا ما نهض به فن المقالة فى ميدان واسع ، وتحرك له فن الشعر فى مجال ضيق .

ذلك ما كانوا يقولونه بالأمس فى حرب الألمان والطليان للانجليز والأمريكان ، فماذا عسى أن يقولوا اليوم فى قتال العرب لليهود ، وجهاد القرآن للتلمود ، وكفاح الإسلامية للشيوعية ، ونضال الحرية للرأسمالية ؟ أيقولون إن هذا الشعب الكريم الذى يجود بنفسه وماله ، فى سبيل عزته واستقلاله ، ليس شعب الوادى ؟ أم يقولون إن هذا الجيش الباسل الذى قهر العدو ببطولته وإقدامه ، وبهر الصديق بخطته ونظامه ، ليس جيش النيل ؟ أم يقولون إن هذه الحكومة الحرة التى دافعت بشجاعة الحق فى مجلس الأمن ، وهاجمت ببراعة القوة فى ميدان الحرب ، ليست حكومة مصر ؟ أليس فيما يرفع الجباه ويعطر الأفواه مما تسجله الصحف كل يوم لقوادنا وجنودنا وطيارينا ، من مواقف البسالة والشهامة والتضحية والإيثار والنجدة والنبل ، ما يوحى للشاعر الحماسى

بالملحمة ، وللكاتب القصصى بالقصة ؟ أو ليس فيما يزكم الأنوف ويكظم الصدور مما جنته على فلسطين وعلى المسلمين وغادة اشترن[1] ، وخيانة أرجون ، وفسولة الهاجنا ، ونذالة يهود ، ما يفتح للروائى الساخر باب الملهاة ، وللفنان الشاعر باب المأساة ؟ بلى ، إن فى الغار الذى يكلل رءوس العرب ، وإن فى العار الذى يجلل رءوس اليهود ، لمادة ثرّة لخيال المبدع ، ومدداً فياضاً للقلم الخالق. ولقد أدت الصحافة حق الأدب والتاريخ ، وحاولت الإذاعة أن تقضى حاجة العقل والروح ، وأخذ الشعر يجيب داعى الغناء والموسيقى ، فلم يبق إلا الشاعر الطويل النفَس الذى يسجل المفاخر فى القصيدة ، والكاتب البارع الذهن الذى يصور المآثر فى الرواية وعما قريب يجرى فى الفلك المصرى كوكب عطارد[2] فينبض اللسان الساكن ويجيش القلب القرور .

لقد كانت القبيلة تغزو القبيلة ، فيقتل بعض الرجال ، وتُنهب بعض الجمال ، فتثور ثائرة الشعر ، وتقوم قائمة الخطابة ، و يسمع الدهر العجلان فيقف مصغياً للبدوى الجلف ليروى للأجيال المقبلة مناقب قومه ، ويخلد على الآباد المتعاقبة حوادث يومه . فهل نقول إن حرب فلسطين التى احتشدت لها دول العرب السبع أضعف تأثيراً فى النفوس من غزوة ، أم هل نقول إن شعراء العروبة اليوم أقل تأثراً بالمجد من السُّليك وعروة .

إن حرب فلسطين ليست كما يقال مبدأ نهضة ومفتتح عصر ؛ إنما هى أشبه بحروب الفتح فى عصر الإسلام الأول : كانت نتيجة لتأليف الله بين قلوب العرب فتوحدت اللغة والكلمة والعقيدة والثقافة والخطة والغاية ؛ وكان من وراء أولئك كله سلطان لم يطاوله سلطان ، وعمران لم يماثله عمران ، وأدب لم يعادله أدب .

---

(١) مشترن وأرجون والهاجنا عصابات يهودية كانت نواة لجيش إسرائيل .
(٢) عطارد فى الأساطير إله البلاغة .

# مالى لا أكتب؟

( ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٨ )

يعتب علىّ صديق العباس أنى لا أكتب فى هذه الأيام للرسالة ، ويحتج لعتابه بأن دواعى الكتابة فى ريف المنصورة ، أو فى ظلال ( الكافورة ) ، أقوى من أن ينهض لها عذر من اعتلال أو اشتغال أو إراحة . وواقع الأمر أنى لم أكن كاليوم أرهف شعوراً بالجمال ، ولا أبلغ تأثراً بالطبيعة ، ولا أشد انطواءً على النفس ؛ ولكن أكثر ما يتمثل فى الخيال ، أو يخطر على البال . سوانح هى بالشعر أشبه وإلى الغناء أقرب . فإذا هم باقتناصها القلم اندلعت من جوانب النفس زفرات وقودها الصهيونيون واللاجئون والحرب والهدنة وترومان وستالين وبرنادوت ومجلس الأمن وهيئة الامم ، فانصرف عن الغناء إلى الرثاء ، وأنتقل من الضحك إلى البكاء ، وأهمّ بتلحين الالم وتوقيع الانين فتنبعث من نواحى العقل أصوات تستنكر وتستنفر وتقول : لقد خطبنا حتى جف الريق وكتبنا حتى نفد المداد ، و بكينا حتى نضب الدمع ، فما الذى أغنى عنا كل أولئك ؟ ألا يزال أرانب اليهود مغرورين يتبجحون بالدولة والجيش ؟ ألا يزال عرب فلسطين مشردين يكابدون ذل الاغتراب وشظف العيش ؟ ألا يزال ترومان الاخرق يجرى على سياسة الهوى والطيش؟ ألا يزال برنادوت الغر يستر عجزه بالمداهنة والفيش[1] ؟ فأصيخ إلى صوت العقل وأقول : بلى كل أولئك لا يزال ، وأتمنى على الله رب العالمين وناصر العرب والمسلمين ، أن يستحيل اللسان فى فمى حساماً يضرب ، واليراع فى يدى سناناً يطعن ، والغضب فى نفسى عاصفة تدمر ، والضعف فى جسدى قوة تُبيد فأنا الآن مترجح بين طرفين كلما ملت إلى أحدهما

(١) الفيش أن تفخر وليس عندك مايستوجب الفخر

جذبني إليه الآخر : أنظر بعيني إلى مفاتن الطبيعة فى ضفاف النهر وحواشي الحقول ومماشي الرياض فأبتهج ، ثم أنظر بقلبي إلى مخازى الناس فى صور الذلة والجور والبؤس بفلسطين فأكتئب ؛ ثم يصيبني العى والخرس لأن ابتهاجي عابر لا يحدث الاقترار ، ولأن اكتئابي عاجز لا يبعث غير الدمع .

وإذا حصلت من السلاح على البكا    فحشاك رُعت به وخدك تقرع

إن نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة وغلبتا على كل عاطفة . فالفكر فيهما والحديث عنهما ملء القلوب وشغل الألسن . ولكن الكلام هواء ، والبكاء ضعف ، والمنى أباطيل والمهادنة غش ، والمفاوضة عجز ؛ فلم يبق إلا أن نسكت لنعمل ، وندبر لننفذ ، ونتقوى لنسود ، ونتسلح لننجح ، ونقتل لنحيا ، ونظلم لنحترم !

لو كان فى الدنيا حق لما كان لفلسطين قضية . ولو كان فى الناس عدل لما اصطلحت على ظلمنا الشيوعية والرأسمالية . ولو كان فى الأمر اختيار لما تركت سيوفنا من بنى يهوذا بقية !

ألا إن أفدح الخطوب أن يخاصم الاسود القرود ، وإن أقبح الحروب أن يقاتل العرب اليهود !

فلو أنى بليت بهاشمى    خؤولته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى ولكن    تعالوا فانظروا بمن ابتلانى !

# عاهل الجزيرة

( ١٤ يناير سنة ١٩٤٦ )

من بوادى نجد منبت العَرار والخُزامَى، ومهبّ الصَّبا ومسرى النّعامَى[1] فاحت عطور الإسلام والعروبة من جديد ، وباحت الرمال الصامتة بسرها المكنون منذ بعيد ، وهبّت نفحات الرسول على آل الشيخ[2] وآل سعود فجددوا مارثَّ من حبل الدين ، وجمعوا ما شتّ من شمل العرب . وتهيأت الفرصة مرة أخرى لشريعة الله لترى الناس كيف بسطت ظلال السلام والوئام والأمن على أشد بقاع الأرض ضلالة وجهالة وفتنة . وتجلت فى طويل العمر عبد العزيز فضائل العرب الأصيلة ، فتمثل شاعريتها فى رهافة حسه ، وأريحيتها فى سماحة نفسه ، وحميّتها فى صرامة بأسه . فهو فى دينه النقى الخالص ، وفى خلقه السَّرى الصريح ، دليل ناهض على أن الجزيرة العربية لم تعقم من بعدما أنجبت أنصار الدعوة وأبطال الفتح . ولا يضيرها أن تتباعد فترات الإنجاب ما دامت تنجب فى القرن الأول ابن الخطاب ، وفى القرن الأخير ابن السعود !

والملك عبد العزيز كالخليفة عمر من المصطفَين الذين صنعهم الله على عينه وأمدهم بسلطانه وعونه ، ليؤيدوا رسالة أو يجددوا دعوة أو يوحدوا أمة . وقد اصطفاه الله من آل سعود ليكشف على يديه ما ادخر فى الأرض المقدسة المجهولة من ثراء وقوة ، وليعود العرب بنعمة الله عليهم وعليه أمة واحدة ذات عزة وسطوة ، والعرب والمسلمون على اختلاف المذاهب وتباين الأجناس وتنائى

---

(١) العرار والخزامى من رياحين نجد ، والصبا تهب فى نجد شرقا . والنعامى تهب جنوباً وهما أبل الرياح وأرطبها .

(٢) الشيخ محمد بن عبد الوهاب إمام الوهابيين .

الديار ، يولون وجوههم كل يوم خمس مرات شطر المملكة السعوديه ، لأنها صلتهم بالسماء ، ورابطتهم فى الأرض ، ومنارتهم فى الحياة !

وابن السعود هو ملك الوطن المشترك ، وإمام القبلة الجامعة ، لذلك أوتى محابّ القلوب[١] وطواعية النفوس ، فله فى صدر كل عربى مكانة ، وفى عنق كل مسلم ذمة !

وقد كان استقباله فى مصر يوم الخميس العاشر من شهر يناير سنة ١٩٤٦ تعبيراً شعبياً قوياً عن هذه المعانى التى تجول فى كل خاطر وتتمثل فى كل ذهن. كان استقبالا رائماً لم تشهد الكنانة مثله لزعيم أو فاتح ؛ لأن العواطف التى حشدت هذه الألوف المؤلفة فى طريق الموكب الملكى على أطورة الشوارع وطنوف العمائر[٢] ، وفى أفواه الأزقة ونوافذ البيوت ، كانت شيئاً آخر غير الفضول الذى يسوق الناس فى مثل هذا اليوم ليشهدوا ضخامة الحشد وفخامة الجند وروعة السلطان ؛ إنما كان استقبالا روحياً طبيعياً فيه الحب والإعجاب ، وفيه التجلة والقداسة ، وفيه معنى أسمى من كل أولئك وهو شعور كل مصرى بأنه يستقبل فرعاً من أصله ، وعزيزاً من أهله .

فعلى الرحب والسعة يا مجدد التوحيد والوحدة ومقيم ملكه الأشم على الحمّية والنجدة !

وعلى الرحب والسعة يا حامى الحرمين ، وثمال القريتين[٣] ، وباعث الجزيرة الهامدة إلى عصر جديد سعيد يقوم أمر الله على سيف على ؛ ومصحف عثمان ، ودرة عمر[٤] وعزيمة الصدّيق .

---

(١) أوتى فلان محاب القلوب : أى ما يحببه إليها .

(٢) الأطورة جمع طوار وهو إفريز الطريق « تروتوار » والطنوف جمع طنف وهو « البلكون » .

(٣) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه . والقريتان : مكة والمدينة .

(٤) الدرة : عصا عمر .

# أحمد حسنين

١٨٨٩ — ١٩٤٦

( ٢٥ فبراير ١٩٤٦ )

مات صاحب المقام الرفيع والخلق الرفيع والأدب الرفيع أحمد باشا حسنين في غير الميادين التي تحدى فيها الموت !

تحداه في الصحراء المجهل حين رحل ، وفي السماء المرعدة حين طار ، وفي الداء المقام حين مرض ، فخنس عن تحديه ؛ ثم اختلسه اختلاسا في حادث من حوادث القدر على غفلة من إرادته وحيويته ! ولو كان الموت خليقا للحياة لأمهل الفقيد حتى يتم عمله الذي تهيأ له بخير الفضائل والوسائل من تربيته وخلقه وثقافته وتجربته ، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر !

كان أحمد حسنين — سقى الله بصيّب الرحمة ثراه — مزيجا حلواً من طبيعتين كريمتين : صوفية مؤمنة ، وعسكرية مغامرة . أخذ الأولى عن أبيه وكان من علماء الدين في الأزهر ، وورث الأخرى عن جده وكان من أمراء البحر في الأسطول . أما أثر البيئة الأزهرية فيه ، فخلوص العقيدة وبلاغة الأسلوب واستقامة الطريقة . وأما فضل الوراثة العسكرية عليه ، فحبه للنظام ، وولعه بالرياضة ، وميله إلى المخاطرة . ثم تخرج في جامعة أكسفورد فوجدت هاتان الطبيعتان في البيئة الإنجليزية والثقافة السكسونية الغذاء الناجع والجو الصالح ، فنمتا أعظم النمو ، وأثمرتا أكرم الثمر . والخلق الإنجليزي الأصيل قائم على جوهر هاتين الطبيعتين وفي هذا سر نجاحه .

كان الفقيد الكريم رياضي الروح والعقل والجسم ؛ فمن رياضة روحه نبالة

نفسه ، ومن رياضة عقله سلامة تفكيره ، ومن رياضة جسمه شجاعة قلبه. وهذه الصفات هي التي تندر في أكثر الناس ، وتعسر على قادة الشرق . لذلك كان فقد أمثاله رزءاً لا يحتمل وخسارة لا تعوض .

وكان من خواص الأدباء وبلغاء الكتاب . وكتابه (صحراء ليبيا) وآثاره في منشآت ( القصر ) تتسم بسمة الفكر الناضج والذوق السليم والفن العالي . والبلاغة ظاهرة من ظواهر القوة ، وأدب اللسان مظهر لأدب النفس .

وكان من حملة العرش الأقوياء الأوفياء المخلصين . آثر التاج بحبه ، وآزره بقلبه ، وأحسن السفارة بينه وبين شعبه . ومن اعتدال الزمان وإقبال الأمور أن تكون بطانات الملوك من هذا الطراز : رأس مفكر ، ولسان عف ، ويد طاهرة ، وقلب مؤمن .

ومما يُطمئن القلب على سلامة الفطرة في هذه الأمة أنها أجمعت على حب هذا الرجل ، فكأنها تحب الفاضل لذاته ، وتكره أن يدخل الهوى في تقدير حسناته .

إن الشعب الفقير في الرجال خليق بأن يطول حزنه على فقد رجل . وإن المصاب في أمثال أحمد حسنين مصاب في الكيف لا في الكم ، وفي الجوهر لا في العرض ، وفي الرعاية لا في القطيع .

تغمده الله برحمته ، وأجزل له ثواب المتقين في جنته ، وأخلف بالخير على أسرته وأمته .

# يوم عظيم لسورية العظيمة

( ٢٢ ابريل سنة ١٩٤٦ )

يوم عظيم لسورية العظيمة ! ذلك يوم الجلاء ! أشرق عليها بعد ليلٍ طويل بالألم ، مظلم باليأس ، مرعد بالهول ! كابدت فى أوائله مشانق ( جمال ) ، وفى أنصافه مدافع ( غورو ) ، وفى أواخره قواذف ( أليفا روجيه ) !

ثم خفقت أشباح الشهداء بيضا على حواشيه ، ولمعت بروق الآمال تباعاً بين غواشيه ، فانصدع الظلام المكفهر ، واستبان الطريق المبهم ، واستطاع المجاهدون الجاهدون أن يسمعوا على مآذن الجامع الأموى : حىّ على الفلاح ، وأن يبصروا تباشير الفوز على غرة الصباح !

وفى الصباح المسفر حمدت سورية الحبيبة سُراها الطويل المرهق ، فضمدت جروحها الدامية ، وكحّلت جفونها القريحة ، ثم ذهبت إلى ( المزة فركلت آخر جندى من جنود الاستعمار ورفعت فوق مطارها العلم ، ورجعت إلى ( الغوطة ) فحملت ورودها الجنّية إلى قبور الشهداء وعزفت أمامها النشيد . ثم خرجت فى زينتها وبهجتها تستقبل وفود الدولة العربية التى جاءت تشاركها السرور فى يوم حريتها المشهود وعيد استقلالها المشترك . ثم أطلقت لنفسها المحتشمة عنان الفرح والمرح ، فصدحت شوارعها بالأهازيج ، وهتفت منازلها بالأغانى ، ودوّت مساجدها بالأدعية ، وفاض النور والحبور على دمشق وأخواتها ، فجلون عن أنفسهن فى يوم واحد ما ركمته المحن والأحداث فى قرون !

حيّاك الله يا سورية ! لولا ليلك الطويل الحالك ما أسفر لك هذا النهار الضاحك . ولولا جهادك الصادق الصابر طيلة ربع قرن ما أتم عليك الله هذا النصر

المؤزَّر ! ولولا دماؤك المفسوحة على ثرى وطنك الغالى ماجنيت هذه الثمرة التى تتحلب لها الأفواه فى أكثر الدول ؛ ولكنك ياسورية خرجت من جهاد الطمع والعدوان فى غيرك ، إلى جهاد الهوى والأثرة فى نفسك ! والانتصار على العدو الخارجى سهل كالانتصار على الداء الظاهر ؛ ولكن الانتصار على العدو الداخل صعب كالانتصار على الداء المضمر . والمجاهدون فى سبيل الوطن لايبتغون عاجل الثواب ؛ فإذا سول لهم الشيطان أن يبتغوه وكلهم الله لأنفسهم فيخسرون ماربحوا ، ويفسدون ما أصلحوا ، ويسلبهم الله مجد الجهاد فلا ينالون سعادة هنا ولاشهادة هناك !

ما أزهى نفوسنا بجلاء المحتل عنك ياسورية ! وما أبهج قلوبنا بكشف الضر عنك يادمشق . فهل آن لأكدار النيل أن تصفو يابرَدَى ، ولعار « التل الكبير »[1] أن يغسلياميسلون ؟ !

(١) موقعة التل الكبير كانت بين المصريين والإنجليز وانتهت بالاحتلال لمصر ، وميسلون موقعة كانت بين السوريين والفرنسيين وانتهت بعد جهاد طويل إلى جلاء الفرنسيين عن سورية

# مثل الشيخ ...

مثل الشيخ كمثل الزرع إذا آنى ثمره ثم هاج[1] واصفر وأوشك أن يكون حطاما لا يهتم بأصوله فى الثرى لأنها عجزت عن امتصاص الغذاء فحسبه منها أن تتماسك ؟ وإنما يهتم بسيقانه وأوراقه ، يخشى عليها نفحة البرد ولفحة الحر وهبة الريح ؟ وكلما تغير وجه السماء ، أو اشتدت سرعة الهواء ، ارتاع وانكمش وتوقع النهاية . فإذا صحا الجو وسرى النسيم الفاتر يداعب الأغصان اللدن والأوراق الغضة ، تبلد من الهمود فلا يحس نشاطا لدعابة ولا اغتباطا بمتعة !

وهكذا الشيخ ! تذويه السنون وتضويه العلل فتيبس أسافله وتجف أعاليه ، فيعيش بالاجترار أكثر مما يعيش بالأكل ؛ ويتجه إلى الوراء ليتذكر ولا يتجه إلى الأمام ليأمل ، ويجعل باله لأخبار المرضى والموت والداء ، أكثر مما يجعله لأخبار الرياضة والولادة والغذاء .

فإذا سمع بمرض صديق سأل ما مرضه ؟ ومن طبيبه ؟ وما أسباب هذ المرض؟ أعنده ارتفاع فى الضغط ، أم ازدياد فى السكر ، أم تصلب فى الشرايين ، أم ضعف فى القلب ، أم اضطراب فى الغدد ؟

وإذا قرأ فى الصحف نعى رجل سأل بأى علة مات ؟ وكم سنة عاش ؟ فإذا كان من طوال العمر سأل بماذا طال عمره ؟ أكان يتبع فى الطعام نظاماً خاصاً، أم كان يسلك فى الحياة خطة معينة ؟

وإذا كان من قصاره سأل لماذا قصر عمره ؟ هل كان يفرط على نفسه فى الطعام أو فى الشراب أو فى التدخين ؟ أم هل كان يسرف على جسمه فى العمل أو فى الفكر أو فى الهم ؟

---

(١) هاج الزرع : يبس .

وإذا وقع على مجلة فى الطب أو مقالة فى العلاج أو إعلان عن دواء، تلمس فى كل أولئك مايعيد الصحة أو يؤخر الشيخوخة أو يطيل الأجل . وإذا جلس شيخ إلى شيخ لايسأل أحدهما الآخر عن شدة الغلاء ، ولا عن أزمة الجلاء ولا عن قضية الجيش [1] ؛ إنما يسأله عن مقدار سنه ، ونوع أكله ، وساعات نومه ؛ وعن الطبيب الذى يعالجه ، والدواء الذى يفضله ، والنظام الذى يتبعه وإذا رجا الناس من العلم أن يكشف عن أسرار المادة ويهيمن على قوى الطبيعه ، ليهبط بالفردوس إلى الأرض ، ويفيض من السعادة على العالم ، رجا الشيخ منه أن يدرس كل مادة ، ويخبر كل قوة ، ويسبر كل غور ، ليستخرج من المنابع الخفية والمناجم المجهولة العقّار الذى يرجع الشباب ، والإكسير الذى يطيل الحياة !

وإذا الشيخ رأى الشباب الريان يمرح فى الطريق ، والجمال الفتان يخطر فى الندى ، انصرف ذهنه عن الوسامة والقسامة والفتنة واللذة ، إلى العضلات القوية ، والحركات الخفيفة ، والأعصاب المتينة ، والشرايين المرنة ، والنفوس المفتوحة ، فيتحسر على ماض لايعود ، ويتأوه من حاضر لايبقى !

و إذا الشيخ قال أف فما مل     حياة     وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب     فإذا وليا عـن المرأ ولى

---

( ١ ) شدة الغلاء فى مواد العيش ، وأزمة جلاء الانجليز عن القنال ، وقضية الجيش وماحدث فى تسليحه من خيانة ، كانت حديث الناس حين كتبت هذه الكلمة ،

# صديقي توفيق الحكيم

( ٢٠ مايو سنة ١٩٤٨ )

مهما يكن من حرصي على ألا أدخل في حديث يدور لي أو على ، فإني لا أجيز لنفسي بعد ما قرأت في ( أخبار اليوم ) تحيتك الكريمة أن أدعها تمر دون أن أتقبلها بالغبطة وأردها مع الشكر .

تفضلت فرشحتني لكرسي شوقي في كلية الآداب من جامعة فؤاد ؛ وأيدت ترشيحك بحسن ظنك بي وجميل رأيك في . وليس الترشيح في ذاته هو الذي هيأ نفسي للكلام وحرك يدي بالكتابة ، فإنك تعلم من نفسك ومن تجاربك أن الترشيح لمثل هذه المناصب تتنازعه عوامل مختلفة من هوى السياسة ورضا الحكم . والمعروف أنهم ينظرون في المنصب إلى المال والمجد ومن لهما يستحق ، ولا ينظرون فيه إلى الفضل والكفاية ومن بهما يتصف . وإني أعلم من نفسي ومن طبعي أنني لا أقبل هذا الكرسي وإن ذللت عقابه[1] وسهلت صعابه ؛ لأني أن أظل بقية حياتي كما كنت جنديا متطوعا في القوة الخفيفة من قوى الأدب العربي أرود وأنتجع وأكتشف من غير نظام أتبعه ولا قائد أطيعه ولا جزاء أبتغيه ... ولقد عرض على في العام الماضي عميد كلية الآداب السابق أن أكون أستاذاً زائراً في الكلية ، فقلت له والأسى يهدج صوتي و يقطع كلامي ، شكراً ياصديقي وعذراً ! لقد تقدمت السن وتأخرت الصحة ، وأوشك الماخر في عباب الحياة أن يبلغ الساحل ! وماذا تبتغي من عامل مكدود أدرك سن المعاش ، أو من فرس مجهود قارب نهاية الشوط ؟ إن من حق ذلك أن يسترفه ومن حق هذا أن يستجم ، وما على الجواد من بأس إذا أخطأه الرهان بعد أن جرى .

---

(١) العقاب جمع عقبه وهى المرتقى الصعب من الجبال .

ملء فروجه[1] وبذل غاية جهده حتى بلغ ما بلغ من غير صوت يحث ولا حقنة تثير ولا حيلة تساعد . ولـكن صديقى ألح فى العرض وألححت فى الرفض ووقف الأمر بينى وبينه عند ذلك .

فالموضوع إذن يا صديق أهون على من قطرة المداد التى تسيل بالحديث عنه ، وإنما هيأه نفسى للـكلام وحرك يدى بالـكتابة تلك الروح الطيبة التى أملت عليك ما كتبت ؛ فإن كلمة الخير من أديب فى أديب ، أو شهادة الحق من عالم فى عالم يسجلها تاريخ الأدب إلا فى باب النوادر ! ولعلك تذكر أننا تشاكينا مرة داء الضرائر بين الأدباء فقلت لك : لاأدرى لماذا يظن الـكاتب أو الشاعر أو الفنان أن الأرض لاتتسع إلا له ، وأن الناس لا يقبلون إلا منه ، وهو يعلم علم اليقين أن الأدب ألوان وطعوم ، وأن الذوق أشتات ودرجات ، وأن مثل الأدباء والفنانين فى العصر الواحد والبلد الواحد كمثل الجوقة الموسيقية تؤلف بأصواتها المتنوعة وصورها المتعددة لحناً واحداً يطرب النفوس المختلفة ، ويرضى الأذواق المتباينة ، ونجد مع هذه الوحدة وذلك الانسجام لـكل عازف مكاناً ، ولـكل صوت آذاناً ، ولـكل قطعة فناً ، فلا تغنى آلة عن آلة ، ولا يجزى صوت عن صوت .

وإنى لأذكر أنك صوبت هذا الـكلام وزدت عليه أن رجال الأدب والفن هم صفوة الناس فى سمو النفس والحس ، فلا ينبغى أن يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من أوزار الغيرة وأضرار الحسد ، وأنهم باتحادهم وتوادهم أحرياء أن يخففوا عن نفوسهم بعض ما يكابدون من عامية الخاصة وأمية العامة ومادية الحـكومة .

والحمد لله والشـكر لك ؟ لقد رأيتك تعنى ما تقول وتريد ما تعنى ، وتفعل ما تريد .

---

(١) فروج الدابة ما بين قوائمها . وجرى الفرس ملء فروجه إذا عدا عدواً شديداً.

# فكاهة لها مغزى

(أول نوفمبر سنة ١٩٤٨)

لا أدرى ما الذى أخطر ببالى فى هذه الأيام هذه الواقعة المضحكة وقد مضى على وقوعها ثلاثون سنة دون أن تجرى على لسانى أو تدور بخاطرى ؟ اسمعها أولا ثم حاول بعد ذلك أن تعلل ورودها على ذهنى بما نشاء[1] :

كان بلدينا الشيخ عبدالجبار خادم المسجد شموس الطبع طائش الحلم، يده أسرع من لسانه، ولسانه أطوع من عقله ؛ ولكنه كان كسائر النزقين أبيض القلب سليم الصدر، لا تبطىء ريحه أن تسكن[2] ، ولا تلبث أناته[3] أن تعود . ذهب ذات يوم إلى المنصورة يقبض مرتبه من مأمورية الأوقاف ، ويمتار[4] لعياله من سوق المدينة . فلما كان عائداً إلى القرية ، فوقه مظلته العتيقة ، وتحته جحشته الريِّضة ، قابله فى مضيق الطريق حماران يسيران متوازيين وعليهما سماد الزبل والسَّرجين ، فاقتحم العقبة من بينهما فصدم خُرْجُه الأبجر أحد الحمارين فأزال عن ظهره الغبيط . فاستشاط سائق الحمار وقال للشيخ فى ثورة غضبه : لا عجب ولا ملامة ! خُرْج فوق خُرج ! فوقف عبد الجبار دابته وصعّر خده وقال للمتهكم الغضبان بلهجة التحدى ! ولِمَ لا تقول حمارٌ وراء حمار ؟ فأجابه الفلاح وقد تنمر له وهمَّ به : مخطىء وتسقه ! ثم جذبه من ذراعه بقوة فسقط فى حفرة ، فبرك فوقه وأعانه شاب آخر وانهالا عليه طحناً بالصدر وعجناً بالأيدى ، والمسكين تحتهما ملقى على ظهره ، يضرب الهواء برجليه ، ويحاول أن يدفع اللكم بيديه :

---

(١) كتبت هذه الكلمة أيام تخلت جيوش العرب عن جيش مصر فى حرب فلسطين وتركته وحده فى الميدان . (٢) سكنت ريحه : هدأ غضبه . (٣) الأناة : الحلم . (٤) يمتار : يجلب لعياله الميرة ( الطعام ) .

ولكنه كان أشبه بالسلحفاة المقلوبة ، تحرك أطرافها ولا تتحرك ، وتقلب رأسها ولا تقوم ، حتى شاء الله الذى يؤخر النفس إذا لم يجىء أجلها أن يمرّ به فى هذه اللحظة الشيخ عبد الرحمن ، أخوه فى القرآن ، وزميله فى الحرفة ، وجاره فى الحارة . فلم يكد يراه على هذه الحال حتى ترجّل وانقض على الرجلين انقضاض النسر ، فأزاح هذا بيمناه وذاك بيسراه ، ثم أعمل فيهما يديه جميعاً. ورأى الشيخ عبد الجبار صدره خفيفاً فنهض كأنما نشط من عقال وأسرع إلى حمارته فوثب عليها ، وانطلق دون أن ينفض التراب عن ثوبه ، ودون أن يقول للشابين بارك الله فيكما ، وللشيخ عبد الرحمن السلام عليكم . . . وشفى غليله من الأتان فأنحى سبًّا باللسان وضرباً بالعصا وطعناً بالمنخاس ولكزاً بالفخذين حتى بلغ الدار ، وصك رأسه الجدار .

وفى المساء أقبل الشيخ عبد الرحمن وعلى إهابه وجلبابه آثار المعركة فجمع له الناس وقال يا شيخ عبد الجبار ! كيف أنصرك وتخذلنى ، وأحييك وتقتلنى ، وأرفع عنك العبء فتلقيه علىّ ، وأنقذك من الرجلين فتتركهما إلىّ ؟!

فأجابه فى خليط من الخزى والبلادة والمكابرة : كان بينى وبين فلان موعد فى صلاة العصر . ومعاذ الله أن أخيس بوعد أو أحنث فى يمين !

فقال له أمرك يا مولانا عجيب ! تحافظ على وعد وتفرط فى روح ، وتنظر إلى مصلحة وتغضى عن كرامة !

فقال له الشيخ عبد الجبار ، وقد غلى دمه وهو لا يغلى إلا فى السِّلم : سبحان الله يا أخى ! لماذا هذا التجهم ، وتعنفنى هذا التعنيف ؟ من قال لك أنزل ؟ هل كنت مغلوباً فانتصرت لى ، أو مكروباً ففرحت عنى ، أو ضعيفاً فأشفقت علىّ ؟ وهب الأمر كان كذلك ، فهل بعد خُرجى مأرب ، أو بعد حمارتى مركب ، أو بعد روحى حياة ؟ !

# مثل المهذبين من بنى آدم

( ٢٩ نوفبر سنة ١٩٤٨ )

عندنا فى دارنا الريفية عصبة من كلاب الحراسة مختلفة الأسنان الألوان والجنس تعيش فى حال مدنية عجيبة . فى الليل تتعاون على النباح وتتساعد فى الهجوم ، فإذا نبح أحدها سواد إنسان أو ريح ذئب استنبحها جميعاً واستعداها جميعاً ، لا تسأله ماذا نبح ولا لماذا عدا . وفى النهار تربض متقابلة فى ظلال الشجر ، أو ترقد متجاورة على قش الرز ، تتهارش حيناً وتتفلى حيناً ، والصغير يعمد إلى الكبير فيعضه وهو هادىء مستسلم ، والضعيف يجرؤ على القوى فيركبه وهو وادع مستكين .

ثم هذبناها فتهذبت ، ودربناها على النظام فتدربت : وأتى فى روعها أن تأخذ بطرَف من مدنية الكلاب الأوربية فأحسنت لثم الفم ، وأتقنت ملق العين ، وأجادت بصبصة الذيل . ثم أسرفت فى الرقة وأغرقت فى الظرف حتى ليكاد كل كلب منها أن يقول : ضعوا على رأسى القبّعة !

تلك حال كلابنا مادامت خارجة من سلطان البطن عاليه وسافله ، فإذا قدّم إليها الكلّاب وجبة الغذاء ، أو عثر أحدها على عظمة فى حواشى الفناء ، انقلب التراحم قسوة ، والتعاطف جفوة ، والتّهارش حرباً ، والتفلية عضاً ، والمدنية وحشية ، والإيثار أنانية . فالأم تنكر ولدها ، والأخ لا يعرف أخاه والطعام الوافر المختص والمشترك تتنازعه المخالب الحِداد والأنياب العُصْل ، فيخرج الخطف

من فم إلى فم ، و ينتقل بالأقف من يد إلى يد ؛ والـكلاب الضعاف والجراء الصغار يقفن منكمشات على بعد ، يسألن بالحق و يتوسلن بالقرابة فلا يرين إلا النظر الشزر ، ولا يسمعن إلا الزئير المهدد ؛ حتى إذا غاب الطعام فى الأجواف ، ولعقت الألسن آثاره على الخراطيم ، أقبلت الأم على ولدها وأقبل الذكر على أنثاه ، وعطف الأخ على أخيه ، وعادت إلى الـكلاب حياتها المدنية من مرخ الهراش وحنان التفاية وألفة المباح ! !

ذكرت بهذه العصبة عُصباً أخرى فى ( ليك سا كس ) وفى (قصر شايو ) تلبس الفراك[1] ، وتحذق المواضعات[2] ، وتحفظ الرسوم ، وتفتنّ فى الظرف وتبالغ فى المجاملة ، فإذا لمس أحدهم ثوب الآخر عن غير قصد اعتذر ، أو لفظ جملة من غير ابتسام تأسف ! يقضون أيامهم فى التشاور الرقيق ، ويمضون لياليهم فى التزاور البهيج ! و يأدب بعضهم لبعض المـآدب الفخمة ؛ يتساقون فيها الوسكى على نُقل[3] ( الـكافيار ) ؛ و يتناوبون الرقص على نغم ( الجاز ) ، و يتبادلون باللسان المعسول ألفاظ السلام والأمن والعدل والإنسانية والحرية والديمقراطية والعهود والمواثيق . حتى إذا جلسوا إلى مائدة السياسة ، وقُدم إليهم الطعام العربى المرىء ، والشراب الشرقى الهنيء ، تحلبت الأشداق ، واحمرت الأحداق ، وانقلبت حُلل الفراك جلود نمور ، وتحولت الأصابع فى القفافيز مخالب صقور ، ووقف المتسلحون بالحق والمنطق على بُعد من المائدة ينظرون بالأعين العبرَى

---

(١) الفراك حلة أفرنجية تلبس فى الحفلات الرسمية .

(٢) المواضعات : الإتكيت ، والرسوم : البروتوكول .

(٣) النقل : ما يتنقل به على الشراب ( المزة ) .

إلى مالهم المنهوب وتراثهم المغصوب ولا يملكون إلا أن يحتجوا راغمين ، ثم يقولوا نادمين : ياويلتنا ! ما لسيف الحق لا يقطع ، وما لبرهان المنطق لا يفيد ؟

ياقوم ، لقد قلنا لكم : إن القوة هي الحق وما سواها باطل ؛ وإن ابن آدم على الرغم من دينه وعلمه ومدنيته لايزال عبد العصا وصنيعة الدينار . فمن شاء أن يعيش مرهوب الجانب محفوظ الحق فليدَع سماحة موسى وبلاغة هارون ، وليتخذ قوة شمشون وغنى قارون !

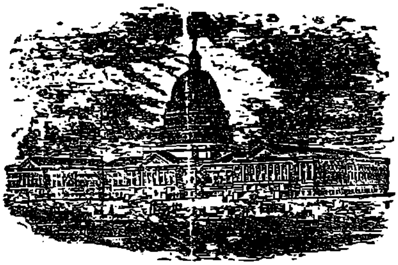

# النقراشى الفقيد الشهيد

( ١٠ يناير سنة ١٩٤٨ )

من الخطوب ما يدهم المرء فيصيبه بجمود فى الحس وخمود فى الذهن فلا يشعر ولا يفكر : ومن الأهوال ما يفجأ الآمن فيرميه بالدهش والتلدد فلا يقدم ولا يؤخر . وتلك كانت حالى حين أقبل علىّ صديق يقول وهو يقلب كفيه ، ولا يملك مسارب عينيه : قتل النقراشى الساعة برصاص أخ مسلم ! فبرق بصرى لما قال وأقمت شاخصاً لا أطرف ، ذاهلا لا أعى ! وتسامع الناس بالخبر المشئوم ، فاعتقلت ألسن ، وأخضلت أعين ، ولهفت قلوب ، وظل أكثر السامعين بين مصدق ومكذب ، حتى أسند الخبر إلى مدير الدقهلية ، فاستيقنوا جميعاً وقوع الكارثة التى طالما تمناها اليهود لمصر ، وابتغاها اليهود للعرب . وتجمع أهل المنصورة زمراً فى القهوات والطرق والحوانيت يطيلون فى الثناء على الصريع العظيم ، ويستهينون بالعزاء على الخطب الجسيم ، ويحاولون أن يعللوا هذا الجرم الفظيع فلا يجدون باعثاً عليه لا من واقع الأمر ، ولا من عمل الرجل ، ولا من مصلحة الوطن ، ولا من سياسة الدين !

وثاب إلىّ وعيى بعد ذهول المفاجأة فشعرت بصدرى يضطرم ، وبصبرى يرفضّ ، وبدمعى ينهلّ ، وبخاطرى يتمثل النقراشى الصديق وهو يزورنى معزياً فى وفاة ولدى ؛ ويتمثل النقراشى المجاهد وأنا أزوره مستضيئاً برأيه

فى مشكلات بلدى ، ويتمثل النقراشى الوزير وهو يغلب عقله على هواه ، ويؤثر رضا الله على رضاه ، ويضحى بالصداقة فى سبيل العدل ، وبالحزبية فى سبيل الوطن ؛ ويتمثل النقراشى الرئيس وهو ينهج فى سياسته نهج الصدِّيق ، ويسمت فى حكمه سمت الفاروق ، فيحدد مطالبنا المبهمة ، ويسدد عزائمنا الموهونة ، وينشر فضائلنا المطوية ، وينعش آمالنا الذاوية ، ويحرر أعناقنا المغلولة ، ويطلق أيادينا المقيدة . ويرفع رءوسنا المطأطأة ؛ ثم يقف فى مجلس الأمن على ملأ من الأمم ومسمع من العالم ، يقرع انجلترا بالحق فتنفحم ، ويلوى عنقها بالحجة فتكابر . ثم يسيِّر جيشنا الأصيل الحر إلى إنقاذ فلسطين وينفخ فيه من روح إبراهيم فيصنع المعجزة ويدنى المستحيل على قلة عدده ونقص عدده !

نعم . تمثل خاطرى النقراشى فى هذه الأحوال وفى هذه الأعمال ، ثم تمثل فى الوقت نفسه هذا الإنسان العامل ، الشريف العفيف ، المؤمن المخلص . الشجاع الحازم ، صريعاً بالنار كلص أرداه الشُّرطَ ، ملطخاً بالدم كخائن رماه الجنود ! فأسائل نفسى كما يسائل كل مصرى نفسه . لماذا قُتل محمود فهمى النقراشى ؟ ألأنه اشترى دنياه بدينه ، أم لأنه مالأ عدوه على وطنه ، أم لأنه اتبع هواه فى حكمة ! أم لأنه ضن بجهده ونفسه على خدمة أمته ؟ أم لأنه استغل السلطان فاقتنى النضار والعقار على حساب ذمته ؟ !

لا تستطيع النفس العاقلة أن تجيب صاحبها عن هذه الأسئلة إلا بالنفى ، لافرق فى ذلك بين حزب وحزب ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين عدو وصديق فلا يبقى إلا أن نرجع إلى تاريخ الشهداء الدامى فنسأل العقل المأفون ، والجهل المفتون ، والدين المزيف ، والطبع الشرير ، والقدر الأعمى : بأى ذنب طعن عمر ، واغتيل غاندى ، وصرع أحمد ماهر ، وقتل النقراشى ؟ !

أربعة شهداء لا أجد لهم فى تاريخ الشرق خامساً فى عظمة النفس ، ونقاء الضمير ، ووفاء الذمة ، وطهارة اليد ، وصدق العهد ، وشرف المسعى ، ونبل الغاية . وإن مصارعهم الأليمة ستظل وصمة فى جبين الدهر ، ولعنة فى تاريخ الإنسان ! !

هذه كلمة اليوم ، وإنها لقطرة دم من فؤاد ينزف أسى على مقتل النقراشى ، ستتبعها قطرات ! وللنقراشى فى ذمة كل مصرى ديون ، فهو حرى أن تُذرف عليه قطرات القلوب لا عبرات العيون !

# حج غير مبرور

( ١٧ يناير سنة ١٩٤٩ )

رد جلسائى التحية إلى رجل ألقاها عليهم وهو يدخل القهوة فى زى أنيق ورؤاه[١] حسن؛ ثم أتبعوه النظر حتى جلس فى جماعة من ذوى الهيئات قابلوه بنشاط وصافحوه بقوة؛ ثم عادوا بأبصارهم وأفكارهم إلى تشقيق الحديث، فقال أحدهم لجاره : أشهدت الحفلة التى أقامها بعد عودته من الحج فى الأسبوع الماضى لمستقبليه ومهنئيه ؟ فأجابه جاره : أوه ! نعم شهدتها . ولقد بلغت هذا العام من ضخامة المادة وفخامة المظهر مبلغاً صغر سوابقها فى أعين الناس على كثرة ما كان يجمع لها و ينفق فيها !

فقال جارى : إن العجيب من أمر هذا الرجل أنه يحرص كل الحرص على أداء الحج فى كل سنة ، وهو لا يقيم الصلاة ، ولا يؤتى الزكاة ، ولا يصوم رمضان ولا يكاد يتشهد ؛ فكيف يقوم دينه على ركن واحد والإسلام كما نعلم إنما يقوم على خمسة أركان ، وكلما تهدم منها ركن تقوض من بنيته بناء ؟ فرد عليه شيخ مستنير الفكر بأنه اغتر على ما يظهر بقول المتزيدين من جهلة الشيوخ : إن الحج وحده يمحص الذنوب ويمحو الخطايا حتى ليذهب الرجل إلى مكة وهو موقر النفس بالجرائر ، مثقل الضمير بالكبائر ، فيعود منها وهو نقى الصحيفة كيوم ولدته أمه . وإن كثيراً من مطففى الكيل وقطاع الطرق ورواد الفحش يبسطون لأنفسهم العنان فى المنكر اتكالا على حجة يغتسلون بها فيعودون بزعمهم أبراراً كالأطفال وأطهاراً كالملائكة ! ولكن الأعجب فى أمر هذا الحاج أنه تاجر وليس له متجر نراه ، وغنى وليس له مورد نعرفه .

(١) الرؤاه : المنظر .

يقضى عامة من الحجة إلى الحجة وهو فارغ البال من هموم العيش ، مستريح البدن من مؤنة العمل ، يتنقل بالنهار فى المدن وبين الناس ، ويتقلب بالليل فى المواخير وبين الندامى ، حتى إذا اقترب ميقات الحج ، وهفت النفوس المؤمنة إلى مشرق الدين ومهبط الوحى ، فطم نفسه عن رضاع الكأس ، وأصم أذنه عن نداء المنكر ، وأخذ يعد الجواز والجهاز لأداء هذه الفريضة . وقد لاحظ مخالطوه أن موسم الفيضان فى رزقه يبدأ بعد رجوعه من الحجاز ، فيبسط أنامله العشر بأوراق النقد ، يولم بها الولائم ، ويقدم منها الهدايا ، ويدرك عليها اللذائذ ! والمعروف أن الزكاة هى التى تبارك المال وتنميه لا الحج ، وأن العمل هو الذى يجلب الرزق ويبقيه لا التبطل ، ولكن هذا الرجل لغز لا يحل ، وسر لا يدرك ، فابتسم أحد الحضور وقال : وماذا عندك لى إذا كشفت المخبوء وشرحت الغامض ؟ فقال له الشيخ : ثمن القهوة وأزيدك طلباً آخر . فقال الرجل إن حال الحاج إبراهيم كحال كثير من خاصة الحجاج : يذهبون إلى مكة محرمين ، ويعودون منها مجرمين ! ألم تلاحظ وأنت من جيرة هذا الحاج أنه يجلب من الحجاز مقادير كبيرة من التمر والحلوى على خلاف ما جرت به العادة ؟ قال الشيخ : بلى ، وما السر فى ذلك ؟ قال : السر أنك إذا شققت ثمرة من يابس التمر ، أو فتحت علبة من علب الحلوى ، وجدت فيها الكنز الذى ينفق منه طول العام . الكنز قبل أن تسألنى عنه نوع من الحشيش للزمزم المبارك مما يجلبه أتقياء الحجاج من منابت آسية العجيبة ، إلى أرض الحجاز المقدسة الحبيبة ، فصحنا جميعاً دهشين : والجمرك ؟ فعرض الرجل ابتسامته : صلوا على النبى يا جماعة ، والله لو كان على حدودنا تفتيش ، لما دخل مصر أفيون ولا حشيش .

# الرجل الذى فقدناه

( ١٤ فبراير سنة ١٩٤٩ )

مضى على استشهاد المجاهد الخالد محمود فهمى النقراشى سبعة وأربعون يوما ولا يزال الأسى على مصرعه يلوع القلوب ، والأسف على فقده يرمض الأنفس ! وعهدنا بالحزن على الزعماء العظماء أن يشتعل أوسع مايكون الاشتعال ثم يخبو أسرع ما يكون الخبو . ولم يمت زعيم إلا اختلفت الآراء فى تعيين مكانته ، وتفاوتت الموازين فى تقدير كفايته . حتى أبو الأبطال سعد ، لم تتفق على سياسته الكلمة ، ولم تجمع على عدالته الأمة ، ولم يصلِّ على جنازته الملك ولم يكن النقراشى الذى ظفر من الشعب والحكومة والعرش بذلك قد أوتى ما أوتى مصطفى كامل وسعد زغلول من ذكاء القلب فى الخاصة ، و بلاغة اللسان فى العامة . ولم يكن الوعى القومى الذى قدَّره هذا القدْر ، ووضعه هذا الوضع ، وبكاه هذا البكاء ، خامد الفطنة كليل البصيرة سلس المقادة ، كذلك الوعى الذى افتتن بمصطفى واستقاد لسعد .

وعينا القومى اليوم غيره بالأمس . والآن نضج فى هذا العهد لقد تقلب على أطوار الطبيعة ككل كائن : كان غصناخدَّره برد الشتاءفنبهها بواليقظة مصطفى ثم كان برعماً أخرجه دفءالربيع ففتّقه أبو الثورة سعد . ثم كان ثمرة سواهاحر الصيف فقطفها أبو النهضة النقراشى . فالوعى المصرى فى هذا الطور يتأثربالفعل لا بالقول . ويستجرُّ(١) للعقل لا للهوى ، و يفاضل بالمنفعة لابالعاطفة . ومن هنا

---

(١) يستجر : ينقاد .

كان حزن الأمة العميق على النقراشي الذى كان يعمل ولا يتكلم ، ويحارب ولا يخطب ، ويصارح ولا يداهن ، وينتصر ولا يباهى ، وينتصف ولا يحابى ، ويُقدِم ولا يتردد ، ويهجم ولا يخاف ؛ لأنه كان مقتضى الحال الأليمة التى كانت عليها مصر يوم تولى أمرها . والمصلحون كالأنبياء يبعثهم الله حين يستشرى الفساد ويضطرب الحبل ويستبهم الطريق . كانت الحكومة مترددة تريد الحازم ، والسياسة مستكينة تريد الأبى ، والشهوة متوقحة تريد النزيه ، والأمة متحيرة تريد الدليل . والنقراشي شهد الله كان أقدر على تصريف الأمر بعين لا تكسِرها ريبة ، ويد لا تقصِّرها جبانة .

كانت حياة النقراشي ملحمة ، وكانت ميتته مأساة ! وكما يكون بطل عبقرى الصفات فى خيال الفنان ، كان النقراشي عبقرى الصفات فى واقع الطبيعة . ولكن بطولته كانت نمطاً من بطولة الرسل : قوة فى الروح تقهر النفس ، وقوة فى الخلق تقهر الغريزة . ومن لوازم القوة الخلقية العزم والحزم والنظام والصرامة والصفات الأولى هى عناصر الشخصية الخاصة فى النقراشي الصديق والزوج والوالد ، والصفات الأخرى هى عناصر الشخصية العامة فى النقراشي المعلم والسياسى والحاكم . ومن أجل ذلك كان النقراشي هو الشهيد الوحيد الذى ترثيه بلسان الشعر فتؤثر ، وترثيه بلسان المنطق فتُقنع . كانت حياته العاملة فى سبيل وطنه وأمته ، الدامية فى طفولة ابنه وابنته ، إلياذة ، مجد ألَّف ختامها القدر من أنات هانىء وصفية وكتبها بدمه[١] ، كما ألف ختام الملحمة العلوية من صرخات على وفاطمة وكتبها بدم الحسين .

---

(١) هانىء وصفية ولدا النقراشي كانا طفلين حين قتل .

# خاطـــــرة

( ٢١ نوفبر سنة ١٩٤٦ )

التاريخ مادته عمل ابن آدم وقوله . وابن آدم حيوان كذاب لا يقول الحق على نفسه ، ولا ينقل الصدق عن غيره . والذين أولعوا بتسجيل أعماله وأقواله من كل لون وجنس ووطن وزمن هم سلالة خُرافة . وخرافة فيما زعموا رجل من أعراب جهينة اختطفته الجن فلبث فيهم زمنا رجع إلى قومه وأخذ يحدثهم أعجب الأحاديث مما رأى فكذبوه . ثم صار الناس يسمون كل حديث مستملح من الكذب حديث خرافة . والأقرب فى نفسى أن يكون خرافة هذا رجلا رغَّاء يعجبه أن يتحدث و يلذه أن يسمع الناس . فلما فرغ ما عنده من صَرف الحديث وزخرف الرواية أخذ يصوغ الأخبار ، وينسج الأقاصيص ، و يصنع الأساطير ، و يبتدع النوادر ، و يختلق العجائب ، و ينسب ثمرات فنه إلى وادى عبقر وسكانه من الجن ليكون الحديث أعذب ، والخبر أغرب ، والتصديق أقرب . ومن طبيعة أكثر الناس تزيين الكلام والزيادة فيه ، فلا تجد إنسانا ينقل حادثا أو يروى حديثا إلا دخل فيه برأيه وذوقه ومنفعته وهواه ، فيغير ويزور ويموه وينمق ، لا فرق فى ذلك بين جاهل وعالم ، ولا بين فرد وجماعة ؛ ولا بين شعب وحكومة

يقع الحادث اليوم بمرأى من الناس ومسمع ، فتحكيه الألسن وترويه الصحف فلا تجد لسانا يوافق لسانا ، ولا صحيفة تطابق صحيفة ! أو تقرأ صحف العاصمة فى حادثة من حوادث المدن أو واقعة من وقائع الأقاليم ، أو أمر من أمور العالم ، فتجد له فى كل جريدة رواية تناقض كل رواية ، وصيغة تعارض كل صيغة ، حتى ليبلغ الخلاف بينها حد التغاير ، فتراها مثلا يوم الأحد الماضى تجمع على أن الشرط

اكتشفوا فى شارع من شوارع القدس لغما من البارود ، ولكن جريدة (البلاغ) تنفرد بأن الذى كشفوه منجم من الرصاص !

ونجلس فى قهوة من القهوات فنسمع من الأفواه أصل خبر من الأخبار وقد نبتت له فروع ، ثم نسمعه فى القهوة ثانية فإذا الفروع قد نبتت بها أغصان ، ثم نسمعه فى القهوة ثالثة فإذا الأغصان قد نبتت لها أفنان ! ثم نسمعه فى قهوة رابعة فإذا الأفنان قد خرجت منها أزهار مختلفة الأشكال والألوان ، فلا ينقضى النهار حتى تمسى بذرة الخبر دوحة راسخة الجذور ، باسقة الذرى ، وارفة الظلال ؛ أو قصة بارعة الخيال ، رائعة العرض ، شائقة الحبكة ، فيها للحزبية مغزى ، وللشيوعية مرمى ، وللفضولية مسلاة .

وتشهد قضية من القضايا المحكمة فتجد الجناية التى ترتكب فى سواء الطريق وفى وضح النهار ، من شهود النفى مقدار ما تجد من شهود الإثبات ، أولئك يفندون ، وهؤلاء يؤيدون ، والقاضى أمام هذه الأيمان الكاذبة والأقوال المتضاربة لا يملك للحق من الباطل إلا أن يفزع إلى توفيق الله فيخلص بين الصحيح والفاسد بعقله ، ويوفق بين القانون والعدل باجتهاده .

وتحضر مجلس العدل أو مجلس الأمن فتسمع الحقائق تنكر الحقائق والوثائق تكذب الوثائق ، والكتب البيض والزرق والخضر والصفر فى دولة تقف من أمثالها فى دولة أخرى موقف الكاذب من الكاذب ، والثالب من الثالب ، يدفع كل منها الآخر بما حشد من شهود وجمع من أدلة وساق من وقائع !

هذه مصادر التاريخ اليوم والكتابة شائعة ، والتسجيل منتظم والعمران متصل والمواصلات سريعة ، والاستخبار صناعة مستقلة وفن قائم ، له وسائله التى تعين عليه : وشركاته التى تستبق فيه ، وأهله فرغوا له . فما ظنك بمصادره يوم كانت الأمية فاشية ، والجهالة غاشية ، والشقة بعيدة ، والأسباب

منقطعة ، والألسنة وحدها هى التى تنقل الأخبار من إنسان إلى إنسان ، ومن قبيلة إلى قبيلة ، ومن مدينة إلى مدينة ، ومن قطر إلى قطر ؟

لا ياسيدى ! ألحق أن التاريخ ثروة طائلة هائلة من كذب الإنسان ! فاقرأه كما تقرأ إلياذة هوميروس ، وإلياذة فرجيل ، وشهنامة الفردوسى ، ولا تلتمس الحق فى أحداث الأرض وأعمال الناس إلا فى الكتاب الذى يخرجه الله يوم القيامة لكل امرىء فيقرأ فيه ما قدمت يداه ، ثم يحاسبه أحكم الحاكمين على مقتضاه !

# أدبنا في السماع

كانت الإذاعة المصرية ليلة أمس مفتوحة على آذان العالم كله . وكان الحفل مقاماً للسمر والترفيه في دار العلم ، فلم يشهده إلا أستاذ أو طالب أو رجل بين ذلك . وكان المغنى يرسل النغم حلو الإيقاع صافي الرنين ، فيشيع الطرب في النفوس ، ويبعث اللذة في المشاعر ، ولكنه كان قبل أن يقف وقفته الفنية لدى التقطيعة أو الترجيعة ، تنفجر حلوق السامعين بالآهات المدوية فتطغى عليه كما تطغى زمجرة العاصفة على سجعة الحمامة !

( آه ) أو ( عاه ) هو الصوت الجماعي الذي تنشق عنه الحناجر الطروبة في مجلس الغناء فيكون عند انطلاقه أشبه بهزيم الرعد أو خوار الثور . ثم يكون عند ارتداده أشبه بتفجع المحزون أو توجع المريض . وتلك شعيرة من شعائر الطرب ينفرد بها المصريون من بين خلق الله في الشرق والغرب !

رغبت الكاتبة الفرنسيه ( فلنتين دسان بوا ) أن تشهد حفلة من حفلات أم كلثوم . فلما خرجت من مسرح الأزبكية سئلت عن رأيها في الغناء العربي والموسيقى المصرية ، فقالت : والله لقد اختلط الأمر على فلم أدر أفي مسرح كنت أم في مستشفى ! فلو كنت في مسرح فلم كانت هذه الآهات ؟ ولو كنت في مستشفى فلم كانت هذه القهقهات ؟ ولو كان السامعون يضجون من فرط الإعجاب والسرور ، فلم كانوا يقذفون المغنية بالطرابيش لا بالزهور ؟ !

والحق أن مجلس الغناء عندنا نمط من المجالس عجيب ، في مجالس التثقيف أو التكريم أو التأمين يهيمن على غرائز الناس ضابط من الوقار المطبوع أو المصنوع فلا تكاد تميز فيها الجاهل من العالم ، ولا الجلف من المهذب ، ولا الأحمق

من الرزين ولكن مجالس اللهو تحدث في الأعصاب ضربا من النشوة ، يخف فيكون حماسة ، ويثقل فيكون عربدة . والطرب في مصر أكثره من الوزن الثقيل ! يستخف الطباع المرحة حتى يخرجها عن التكليف ، ويبعدها عن الحشمة ! لذلك صارت حفلاتها الغنائية كما ترى وتسمع : زفير وشهيق ، وصفير وتصفيق ، وحركات في القيام والقعود ، كحركات اليهود في برص العقود ، ثم تلويح بالأذرع ، وتنافس في الزياط ، وتراشق بالنكت ، حتى أصبح التهريج والضجيج سنتقلة في السماع فلا يجيد المغنى الغناء إلا فيه ، ولا يحسن السامع الإصغاء إلا به ! ولقد ذهب محمد عبد الوهاب إلى العراق — وكنت يومئذ هناك — فلما وجدهم يسمعون في سكون ويتمتعون في وقار ، ظن أنهم لا يطربون ، ففتر نشاطه وتعثر فنه !

فاتقوا الله ياقوم في سمعتنا المدنية ، فلقد كنا نسمع المغنى وحدنا بين أربعة جدران ، فأصبحنا اليوم بفضل الإذاعة نسمعه مع كل إنسان في كل مكان .

# رؤيا مزعجة

( ٤ أبريل سنة ١٩٤٩ )

لم أكد آوى إلى فراشى البارحة حتى أنثالت على خاطرى صور أشتات من جملة ما سمعت وقرأت عن حال المشردين من عرب فلسطين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وجُرّدوا من ما لهم بغير رحمة ، وقُضى فى مصيرهم بغير عدل . وكان مبعث هذه الصور حديث سمعته عصر الأمس من صديق عاد من فلسطين بعد ما رأى بعينيه أفظع مناظر البؤس ، وسمع بأذنيه أروع مآسى الحياة . وكنت وهو يتحدث أتمثل من خلال وصفه طرائد صهيون من ورّاث المجد وربائب النعيم يلوزون بمغاور الجبال وكهوف الاودية ، ويتبلغون بيابس النبت وآسن الماء ، ويتسترون بأخلاق الثياب ومزق الخيش ، وأطفالهم دِقاق الأشباح فوق ظهورهم أو بين أيديهم يتضاغون من الجوع ويتطرحون من الكلال ؛ ونساؤهم الشواحب العجاف يجررن أرجلهن الدامية على الحصى جراً فلا تكاد تتبعهن من فرط اللغوب ، فإذا ذكرن ما صنع بهن علوج إسرائيل ذرفن ما بقى فى المآقى ، ثم تطلعن لها فىَ إلى ( صلاح الدين ) الهاشمى يستصرخنه للمجد المغلوب ، والتراث المغصوب ، والعرض المسلوب ، فتهب وا أسفاه ريح ( غربية[1] ) تمدل بصرخاتهن عن القصر إلى القفر ، فلا يسمعهن وريث الرشيد ، ولا ينجدهن سليل المعتصم[2] !

---

(١) اشارة إلى تأثير انجلترا فى سياسة شرق الأردن .

(٢) فى ذكر المعتصم تلميح إلى حادثة عمورية .

أمست هذه الصور المروعة تتمثل فى ناظرى ، أو تتراءى فى خاطرى ، وصوارف العمل أو شواغل الناس تخفيها الساعة بعد الساعة ، حتى خلوت إليها على وسادى القلق ، فتوالت فى ظلال الغرفة مسرعة على عينى ، كما تتوالى صور متلاحقة على عين المشاهد ، فرأيت فى أطراف فلسطين وعلى حدود جاراتها المضيافة ثلاثة أرباع المليون من كرام العرب يعيشون فى المضارب والملاجىء عيش الحرمان ، يقتاتون السّوف[١] . ويكابدون الجوع والخوف ، وينظرون إلى رياضهم الجنيه تعيث فيها الذئاب ، وإلى حياضهم الروية تلغ فيها الكلاب ، فلا يملكون لأنفسهم إلا عبرات تتحدر وزفرات تتصعد ، ومجلس الأمن ووسيط هيئة الأمم ولجنة التوفيق ودول الديمقراطية يستطعمون الواغل لصاحب المأدبة فلا يُطعم ، ويستعطفون الدخيل على مالك الدار فلا يعطف !

وثَقل الأسى على أعصابى المضطربة فغلبنى النوم ولا أدرى بعد كم دقيقة أو ساعة من رقادى رأيت أن دخل على فى مكتبى صديقى المغفور له إسعاف النشاشيبى فى هيئة مبذوءة وثياب رثة: بدلة من الصوف المهاهل لا لون لها من البلى ولا معالم، وطربوش كلبدة الفلاح دارت عليه لفافة من بقايا قميص ممزق ، وحذاء غليظ من أحذية الجيش لا رباط له ولا جوارب . . . فقلت له أنا لا أصدق عينىّ ولا أملكهما ماذا صنع الدهر بالثرىّ السخى المترف المتنطس[٢] يا إسعاف؟! فقال فى تسليم واستكانة : هو ما ترى ! رأيت بعينى حى (الشيخ جراح) يُستباح ويجتاح ، ودارى العربية تحتلها كتيبة يهودية ، ومكتبتى الحبيبة تنقل

---

(١) يقتاتون السوف : يعيشون بالأمانى . ومنه : « وكان السوف للفتيان قوتا » .

(٢) المتنطس : المتأنق فى الطهارة وفى الكلام وفى المطعم والملبس كل الأمور .

إلى الجامعة العبرية ، وضياعى الخصيبة فى يافا يحول ريعها إلى تل أبيب ! فلما رأيتنى أصبحت لا دار ولا أهل ولا ملك ولا مال ، هاجرت مع المهاجرين ، ولجأت إلى مصر مع اللاجئين . وقد كنت تقول لى وأنا أوثر « الرسالة » بجهدى الضئيل : لولا غناك ، لأعطيناك ، وها أنذا اليوم أصبحت فارغ الكف والقلب من المال والأمل ، لا فى الجيب ولا فى الغيب ! ثم بكى فبكيت . وسمع نشيجى بعض أهلى فأيقظونى ، فاستيقظت وأنا أحمد الله لصديقى أن مات ، قبل أن يقاسم وطنه وقومه هذه النكبات !

# رحم الله صديقي المازني !

( ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٩ )

لقد كان رَجُل وَحْدَهِ في طراز عيشه ونظام عمله ونمط تفكيره وأسلوب كلامه . والتفرد في الحياة والعمل والفكر والعبارة معناه في دنيا الأدب الشخصية الممتازة التي لا يغني عن وجودها وجود ، ولا يَجزى عن جهدها جهود ، ولا يسهل من فقدها عِوض . فإذا أضيف إلى ذلك أن المازني كان أحد الكتاب العشرة الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أدبها عن فقه ، ويعالجون بيانها عن طبع ؛ وأن هؤلاء العشرة البررة متى خَلت أمكنتهم في الأجل القريب أو البعيد فلن يخلفهم في هذا الزمن الثائر الحائر العجلان من يحمل عنهم أمانة البيان ويبلغ بعدهم رسالة الأدب ، أدركنا فداحة الخطب التي نزل بالأمة العربية يوم توفى هذا الكاتب العظيم .

عرفت المرحوم المازني في خريف سنة ١٩١٤ يوم دخلنا المدرسة الإعدادية الثانوية معلمين ، وكان يومئذ في مرح شبابه وميعة نشاطه يتوسط باحة الأدب ويطرق باب الشهرة ويحاول هو وصاحباه العقاد وشكري أن يشقوا طريقهم إلى المجد في أرض غليظة صلدة يقوم في بدايتها عقبتان : صاحب ( الشوقيات ) بشعره الرائع ، وصاحب (النظرات) بنثره البليغ . ولكنهم كانوا أصحاب مِعول ومِسطرين : يهدمون بالنقد والثلب والتجريح ، ويبنون بالتجويد والتجديد والدرس ؛ فلم يفعلوا فعل ضعفاء الملكة اليوم ، يخفضون مستوى البلاغة ليصعد القمىء[1] ، ويقربون غاية الفن ليلحق البطيء !

(١) القمىء القصير .

وكان المازنى على هذه الثورة وهذا الطموح خافض الجناح لأنه قوى النفس ، راكد السطح لأنه عميق الغور ، فما كنت تراه يوماً ذاهباً بنفسه ولا متبجحاً بعلمه ولا مباهياً بعمله . ثم كان على ضآلة جسمه ووهن عظمه مهيب الجانب لذكاء قلبه ورجاحة عقله ، فلا يعبث فى درسه تلميذ ولا يجرؤ على كرامته معلم . ثم توثقت بينى وبينه أسباب المودة ، فزاملته فى التعليم ،وصادقته فى الأدب ، وزاملته فى الصحافة ، فلم أجرب عليه شهد الله لؤما فى زمالة ، ولا غشاً فى صداقة ، ولا سوءاً فى معاملة .

كان أدب المازنى أداة عيشه ووسيلة رزقه : لذلك كان يكره أن يعرضه لكيد الخصومة وعنت النقد . وكان سبيله إلى هذا أن يغض هو من قدر فنه ، وأن يقلل من نتاجه ، حتى يفوّت بذلك على خصمه لذة التجنى عليه فلا يجد ما يقوله إذا أراد أن يتنقصه بنقده أو حقده . وتصغيرك لشأنك فيه معنى التواضع ، ولكن تصغير غيرك لك فيه معنى الضعة . على أنه كان إذا أكره على الخصومة شديد العارضة حديد القلم يقرع صاحبه بالتهكم أكثر مما يقرعه بالحجة. ولو كان المازنى مكفول الرزق من طريق غير طريق الأدب لما قصر أكثر جهده على الصحافة . ومن مساوىء الصحافة أنها تفرض على الكاتب الموضوع وتحمله على السرعة . وموضوع المازنى القصص وفنه الوصف . فلو أنه خلص لهذين البابين لأتى فيهما أعجب العجب .

* * *

هذه بعض صفات الصديق الراحل ذكرتها مجملة فى مقام الحزن على فقده والجزع لمصابه . أما سائر صفاته وتحليل ملكاته وترجمة حياته فلها فى تاريخ الأدب فصل طويل سأكتبه بعد قليل .

# يظهر أن يوم الانتخاب قريب

( ١٤ فبراير سنة ١٩٤٩ )

يظهر أن الانتخاب قريب ! قالها الحاج على وشفتاه الغليظتان تنفرجان عن ابتسامة لا يتم بدونها معنى الجملة ، وعيناه الحادتان تتبعان مركبة كانت تدرج فى طريقها إلى القرية . فقال له المأذون وهو يربت على كتفه : صح نومك ! لقد أذاع الراديو وأعلنت الصحف حل مجلس النواب وتحديد يوم الانتخاب ؛ فالحكومة تتجهز ، والأحزاب تتحفز ، والمستطابون يغدون ويروحون ، من الدائرة إلى الحزب ، ومن الحزب إلى الدائرة ، والعرق يتصبب من الجباه ، والوعود تتناثر من الشفاه ، والنقود تتسرب من الحافظ . . فقاطعه الحاج على بقوله : حسبك ياشيخ إبراهيم ! إنك لتعلم أنى لاأسمع الإذاعة ولاأقرأ الصحف ولا أغشى المجالس ؛ ولولا مقدم الأستاذ لما تركت حقلى . إنما أعرف اقتراب يوم الانتخاب بظهور هذه المركبة . إن قدومها على القرية أشبه بقدوم بغلة العشر على الموعود . إنها تحمل إلينا مع الباشا التساهل فى الحساب ، والتسامح فى المتأخر والاستماع إلى كل شكوى ، والاستجابة لكل طلب ، والمجاملة فى كل حادث ، والمواساة فى كل خطب ؛ حتى إذا انقضى يوم الانتخاب ، ودخل الباشا مجلس النواب ، أشاح بوجهه ونأى بجانبه ، وسلط على وعوده الحلوة مطال « ناظره » وضلال « كاتبه » . فإذا لقيناه عبس وبسر ، وإذا سألناه دعّ وزجر ، وإذا استرحمناه ( شخط ونطر ) ؛ ثم لا نسمع بعد ذلك أنه قال كلمة فى المجلس ، أو أبدى رغبة إلى الحكومة ، أو أدى خدمة إلى الفلاح ، أو أسدى منة إلى الوطن ! فحل المجلس أنفع لنا من عقده ، وترشيح النائب أجدى علينا من نيابته .

فقلت له وما الذى يحملكم على انتخابه وقد علمتم بالتجربة أنه يرضيكم شهراً ويغضبكم دهراً ؟ فقال : يحملنا على انتخابه أنه مالك ونحن مستأجرون ، وليس بين المالك والمستأجر قانون غير العقد تختمه على بياض ، وهو الذى يكتبه ويحتفظ به . فإذا غلّبنا إرادتنا على إرادته ، وآثرنا مصلحة البلد على مصلحته ، اشتط فى أجرة الأرض ، وتعسف فى تسوية الحساب ، وتحكم فى اقتضاء الدين ، فلا يكون لنا غير الاحتكام : ولكن إلى من ؟ أو المهاجرة ، ولكن إلى أين ؟

فقلت له : ذلك أدعى إلى أن تنتخبوا غيره ممن يعلمون أموركم ، ويشعرون شعوركم ؛ حتى إذا تقدمت الحكومة باقتراح قانون يخفض الإيجار ، أو يرفع الأجر أو يحدد الملكية ، أو يزيد الضريبة ، كان مع الاقتراح لا عليه . ومتى سنت هذه القوانين ضمنت الحماية للمستأجر فلا يُظلم ، وكفلت الرعاية للأجير فلا يستغل . أما أن تعرفوا نائبكم هذه المعرفة ، ثم تنتخبوه على هذه الصفة ، فذلك مالا يسيغه عقل ولا تسوغه مصلحة .

فقال الحاج : الحق أننا لا نعرف ما هو البرلمان ولا ماذا يصنع النواب فيه . . كل ما نعلمه أنها رجة تعتاد البلاد من حين إلى حين ، فينشط مأذونو القرى ومعلموها فى الدعوة إلى فلان أو فلان ، ثم تقوم المآدب والخطب هنا ، وتنشب المعارك والشتائم هناك ؛ ثم لا يكون الانتخاب آخر الأمر إلا بإرشاد المأمور ، أو إكراه المالك ، أو إيحاء العمدة ، أو إغراء المال !

فقلت فى نفسى : ذلك هو الواقع . ومتى عرفت الأمة أن لها السلطان ، وأن سلطانها معناه البرلمان ، علمت الناخب كيف ينتخب ، وأرشدت النائب كيف ينوب !

# الشيوعية على المصطبة

( ٢٧ مارس سنة ١٩٥٠ )

من عادتى فى المجلس ألا أتكلم إلا مضطرا ، كأن أحيا فأرد ، وكأن أسأل فأجيب . أما إذا خُليت لطبعى فإنى أحبس لسانى عن الكلام ، وأجعل أذنى لكل متكلم . لذلك تركت إخوان المصطبة يخوضون فى كل حديث ، ويعقبون على كل حادث : فمن حديث الأمير العظيم الذى يكره فلاحيه ومستأجريه على أن يتبرعوا بأقواتهم لأعمال الخير ثم يعلن التبرع باسمه على وجوه الصحف وهو لم يشارك فيه من ماله بقرش ، إلى حديث النائب المحترم الذى قطع العهود على نفسه لدائرته أيام الانتخاب أن يجعل لهم البحر طحينة ، والحياة كلها متاعا وزينة ، فلما وضعوه على كرسى مجلس النواب ظل موضوعا عليه كالجرة الفارغة لا تنضح حتى بالمش ، إلى حديث الشيوعية التى تعد الفقير بالغنى ، وتمنى الشقى بالسعادة ، وتزعم أنها تنصف الفلاح من أمثال هذا الأمير الطماع ، وتؤمن الناخب من أشباه هذا النائب الخداع . وحينذاك قال الشيخ مصباح للشيخ مفتاح وهو يحاوره فى خير الشيوعية وشرها :

لعلك لم تسمع الكلمة التى أذاعها ( الأستاذ ) بالراديو منذ أيام ، فى الشيوعية والإسلام . إنك لو سمعتها لكسمت أملك باليأس ورجاءك بالخيبة . إن الشيوعية لا تملك الناس أرضا ، ولا توسع عليهم رزقا ، ولا تهيىء لهم حرية . فبهت الشيخ مفتاح ونظر إلى نظرة المستفهم المشدوه . فقلت له : صدق الشيخ مصباح ! إن الشيوعية تأخذ لنفسها لا للناس ، وتدعو إلى باطلها لا إلى الحق . إنها لا تسوى بين الخلق فى الغنى والحرية ، وإنما تسوى بينهم فى الفقر والعبودية . وتجعل الغنى فقيرا بانتزاع ما يملك ، ولا تجعل الفقير غنيا بامتلاك ما يستأجر . تصادر الأرضين

لتكون خالصة لها من دون المواطنين ، ثم تستغلها بتسخير الأيدى العاملة فلا تعطى الزارع غير أجرته ، ولا تؤجره إلا على حسب قدرته . فهى تنزع منك يامفتاح نصف الفدان الذى تستثمره ، لتصبح كعلى رمضان الذى يستأجره . ذلك فضلا عن كفرها بالدين الذى رضيه لك الله ، وإباحتها للزوجة التى ربطها بك الشرع .

فقال الشيخ مفتاح وهو يكرش من وجهه ويزم بأنفه ويستعيذ بربه : كل شىء تغنى الحيلة فيه إلا نصف الفدان ! إن عقيدتى فى نفسى ، وإن نخوتى فى رأسى ، وليس فى العالم قوة تستطيع أن تعبث بهما إلا برضاى . أما الملك وهو الضمان والأمان والمتعة والغبطة والمنزلة والغاية ، فليس إلى الاحتفاظ به مع الشيوعية من سبيل . فقال الفتى محجوب وهو يضرب بيده على يد فأسه : إنك تعارض الشيوعية لأن لك نصف فدان ، فأما الأجير الذى لا يملك من دنيا كم غير هذه الفأس فكيف يعارضها وهو لا يتصور أنه ينقلب إلى حال أدنى من هذه الحال ؟ قالوا للقرد : إن سيمسخك . فقال : لعله يجعلنى غزالا !

فقال الشيخ مفتاح : وإذا أقطعتك الحكومة ستة قراريط ؟

فصاح محجوب وصاح معه جميع الجلوس : حينئذ نلعن الشيوعية فى كل صلاة ، ونحاربها بكل قوة . يا أخى ، مَلِّكونا تملكونا !

# ليس بعد الدين وازع

( ٢٢ مايو سنة ١٩٥٠ )

كان كتاب المأساة من الإغريق وأتباعهم من أمثال كورنى وراسين وشكسبير لا يتخيرون أبطال مآسيهم إلا من أصحاب القصور. وحكمتهم فى ذلك أن وجيعة النفس لمصائب الملوك أقوى من وجيعتها لمصائب السوقة ؛ فالاعتبار بهم يكون أبلغ ، والتأثر لهم يكون أشد . والناس يومئذ لم يكونوا يظنون أن سلائل الآلهة هم كذلك أغراض لسهام القدر . فإذا رأوا أن المرء مهما يعظم قدره ويضخم أمره لا يعظم على النوائب ، ولا يكبر على الأحداث، خفت عليهم أحكام القضاء ، وساغت لديهم غصص الحياة .

والحق أن ما يصيب العامة كل يوم من فواجع العيش ومواجع القلب لا يقع من النفوس موقع ما يصيب الخاصة كل حين من بعض ذلك ؛ لأن أولئك مظنة الخطأ والتبذل والاستهتار فالعجب أن يسلموا . وهؤلاء مظنة الصواب والتصون والحفاظ فالعجب أن يصابوا . ولعلك لا تعدم كل صباح أو مساء خبراً عن فتاة خرجت على أسرتها فأضلها الشيطان ، كما لا يعدم الرعاة كل ضحوة أو عشية خبراً عن نعجة شردت عن قطيعها فأكلها الذئب .

ولكن هذه الأخبار أصبحت من مألوف الآذان لكثرة ما فى سواد المجتمع من ضعاف البصيرة والعقيدة والإرادة . أما الذى لم يؤلف ولن يؤلف فهو خروج الفتاة على دينها لشهوة متغلبة أو نزوة متحكمة .

وهذه الظاهرة على ندرتها قلما تجدها فى الطبقتين الدنيا والوسطى . وكثرما تجدها فى الطبقة العليا . فاذا عددت واحدة أو اثنتين من غوانى المدن تزوجتا

من غير المسلمين ، عددت سبع أميرات فى العراق وإيران ومصر قد تزوجن من مسيحيين وهن يعلمن أن دينهن لا يجيز هذا الزواج ولا يرتب عليه حقا من حقوق الأسرة . وعلة الكثرة هنا والقلة هناك ضعف الوازع الدينى فى نفوس هؤلاء ، وقوته فى نفوس أولئك .

واستشعار الخوف من الله طبيعة فى الشعب غرسها فيه افتقاره الدائم إليه ، واعتماده المطلق عليه ، ورجاؤه المتصل فيه . أما السراة فهم حريون لغناهم عنه بالسراوة والثراء ألا يخشوه وألا يرجوه إلا إذا حملوا منذ النشأة حملا على تقواه بالتربية الدينية والثقافة الروحية والأسوة الحسنة .

والسنن الإسلامية التى ربت عائشة وأسماء ، وسكينة ونفيسة ، وزبيدة وشجرة الدر ، لا تزال قادرة على أن تربى مثلهن إذا أقيم على قواعدها السماوية نظام البيت ومنهاج المدرسة وشريعة الوطن .

إن المسلم الحق قد ينزل عن طبقته فيُشكر ، وقد يخرج من جنسيته فيُعذر ، ولكنه أبدا لا يفسق عن أمر ربه وفى قلبه نور وفى ضميره حياة .

# الضعيف ضيعته اللبن!

( ١٠ يولية سنة ١٩٥٠ )

مثل أمريكا وانجلترا فى سياستهما للدول الصغيرة كمثل ( الأشقياء ) فى الريف و ( الفتوات ) فى المدن ، يجمعون حولهم الأتباع من فتيان القرى وصبيان الحارات ممن يفتنونهم بمظاهر القوة ، أو يخدعونهم بكوذاب المنى ؛ ثم يرمون بهم الأغراض التى يتوخونها ، فينطلقون انطلاق الأسهم الصم لا إرادة لها ولا رادّة عليها . فإذا أراد الأشقياء السطو على غنى من أغنياء القرية ، أو قرر الفتوات الإغارة على حى من أحياء المدينة ، أرسلوا هؤلاء الأتباع يرودون الطريق ، أو يجسون النبض ، أو يجرون ( الشكل ) ، ثم يكونون هم وقود المعركة . فإذا تم النصر أو تمت الهزيمة كانت النار دائماً لمخالب القطط ، والقسطل دائما لأنياب القردة ! فإن اتفق مرة أن أبى أحد الأتباع أن يأتمر فى الشر أو يشارك فى الأذى ، لأن له رأيا يريد أن يقره ، أو قريبا يكره أن يضره ، أو ضميرا يحب أن يرضيه ، تغيروا عليه وتنمروا له وقالوا : خان الفتوة ، ونقض الميثاق ، وجحد النعمة ، فحق عليه أن يبتر من الناس أو ينفى من الأرض !

حال هذا التابع من هؤلاء الأشقياء الذين حسبوه يسمع ولا يقول ، ويخضع ولا يعارض ، وينفذ ولا يقضى ، أشبه بحال مصر من هاتين الدولتين الطاغيتين اللتين تزعمان أنهما تمثلان الديمقراطية والحرية ، وتحميان المدنية والإنسانية ! قالوا لنا تعالوا نكن إلبا على الشيوعية والإباحية والفوضى ، وردءا للنظام والسلام والعدل ، فقلنا وهل يسعنا إلا أن نلبى ونحن أبناء الذين عقدوا فيما بينهم ( حلف الفضول[1] ) أن يقوموا للضعيف حتى يقوى ، وللمظلوم حتى ينصف ،

---

(١) حلف الفضول : هو أن هاشما وزهرة وتيما القرشيين دخلوا على عبد الله بن جدعان فتحالفوا بينهم على دفع الظلم عن المظلوم وأخذ الحق من الظالم . سمى بذلك لأنهم تحالفوا على ألا يتركوا عند أحد فضلا يظلم به أحداً إلا أخذوه منه .

وللذليل حتى يعز ؟ وخلفاء الذين جعلهم الله أمة وسطاً يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ؟ ولكن سرعان ما برح الخلفاء وشف الرياء عن الرأسمالية والشيوعية تتنافسان فى سيادة العالم ، وتتخاصمان على أملاك الناس، هذه باسم الحرية تسعى لتستعبد ، وتلك با الشيوعية تسعى لتملك !

قلنا لهم ياقوم نحن زملاؤكم فى مجلس الأمن ، وحلفاؤكم على نصرة الحق، فأنصفوا النيل من السكونيين ، وفلسطين من الصهونيين ! فقال ترومان خليفة ولسن صاحب المبادىء الأربعة عشر : إن سياستنا الخارجية تعضد الإنجليز ، وإن سياستنا الداخلية تؤيد اليهود ، وإن الاعتداء على المصريين أو على العرب أضعف من أن يخل توازنا أو يبطل تعاوناً أو يعطل حركة . لماذا ؟ لأنهم لا يملكون القنبلة الذرية ، ولا ينافسون فى أمريكا فى الكيفية والكمية

فلما نهض الدب الروسى ليلتقم كوريا الجنوبية من يد العم سام اضطرب ميزان العدل ، وتكدر جو السلام ، وقامت قيامة الدنيا ، ووجب أن يجتمع مجلس الأمن على وجه السرعة ليقضى على الدول الأعضاء أن يقدموا المعونة إلى كوريا الرأسمالية على كوريا الشيوعية منعاً للعدوان وقمعاً للظلم !

فلما سألوا مصر أن تعين ، وكان ظنهم بها أن تطيع وتستكين ، أجابتهم بعزة الفراعين وأنفة العرب : زعموا أن شيخا من أغنياء البادية خطب إمرأة فى الصيف فردته رداً قبيحا . فلما أقبل الشتاء ، وهو زمن القحط عند البدو ، أقبلت عليه تطلب منه لبنا ، فقال لها بلهجة المتهكم الشامت :

لا يا سيدتى الصيف ضعيت اللبن !

# إسماعيل صدقي

( ٣١ مايو سنة ١٩٥٠ )

كان إسماعيل صدقي رحمه الله عظيما ما في ذلك خلاف بين خصومه وشيعته ، ولا بين أمم الناس وأمته . وكانت عظمته من العظمات التي توهب مع الفطرة وتولد مع النفس ، فليست من صنع الظروف ولا من عمل الحزبية ولا من أثر العصبية ولا من نتاج المال ولا من خداع المنصب .

نمت مع جسمه نمو العضو ، وسمت مع نفسه سمو الروح ، وترجمت عنها في جميع أطوار عمره ، وفي شتى ضروب عمله ، فحولة في التفكير ، وبطولة في الجهاد ، ورجولة في الحكم .

تميز صدقي باشا على نظرائه ببراعة الذهن وقوة الحجاج وسداد المنطق وشجاعة القلب ؛ فكان في الأدب كاتبا في العربية والفرنسية عميق التصور دقيق التصوير ، تقرأه وأنت خصمه فلا يسعك إلا أن تعجب له وتعجب به .

وكان في السياسة عمليا واقعياً لا يتأثر بالعواطف ولا يؤثر بالأماني ؛ إنما كان يقود الخاصة ويسوق العامة إلى الخطة التي ترسمها المنفعة ، وإلى الغاية التي يحددها الواقع .

وكان في الحكم عارما حازما يقظا جريئا يقود السفينة في العباب المضطرب والأفق المكفهر فلا يزعزع يديه القويتين عن سكانها نوب إعصار ولا شبوب نار ولا مساورة حوت .

وكان في العمل دءوبا كسوبا يشارك في الاقتصاد القومي بالرأي الصائب

واليد المصرفة والجهد المنتج : فكان له فى كل مشروع شرع ، وفى كل شركة أعضاء[1] ، وفى كل جمعية إمامة .

وكان صدقى فى تاريخ وطنه فصلا فيما لا تقرأ فيه غير الجد ؛ وفى نهضة قومه رائداً صادقاً لا تجد وراءه غير الخصب وكان من سبقه فى الجهاد أن نفى مع الثلاثة[2] فى مالطة . وكان من فضله فى السياسة أن قبل مع الاثنين[3] تصريح ٢٨ فبراير ؛ وكان من توفيقه فى الحكم أن سن وحده قانون التسوية العقارية . وهذه هى الأركان الثلاثة التى قام عليها استقلال الدولة برفع الحماية ، وسلطان الأمة بوضع الدستور ، وعمران البلاد بحفظ الملكية وصيانة الثروة .

ثم كان صدقى مثلا فذاً فى رجال العصر قل أن تجد له أشباهاً فيما غبر من الدهر الطويل . كان لا يشغل ذرعه[4] بسفساف الأمور ولا بخسيس الأنصبة ولا بوضيع المطامع . وكان لا يحب الوقوف على الهامش ولا الدروج على الشاطىء ؛ إنما كان يسير قدُماً فى الصلب ، ويسبح دائماً فى اللجة . ثم كان عزيمة لا تنكل حتى فى ضراوة الخطب ، وحيوية لا تفتر حتى فى وقذة[5] الداء ، وعبقرية لا تخبو حتى فى غشية الموت .

ذلك هو الرجل الحق الذى يجب أن يجعله كهولنا مثلا ويتخذه شبابنا قدوة .

---

(١) أعضى فى الشركة صار عضواً فيها وهو اشتقاق جديد .
(٢) سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وحمد الباسل .
(٣) عبد الخالق ثروت ، وعدلى يكن .
(٤) أى لا يشغل همه ولا طاقته .
(٥) وقذة المرض : شدته المفضية إلى الموت .

# أقاصيص

من مذكراتي اليومية :

# قصة فتاة

يوم الاثنين ٧ مايو سنة ١٩٤٥

عرفت من بين الرسائل الكثيرة التي ألقيت إلىّ صباح اليوم رسالة الآنسة (س) من غلافها الوردي الأنيق ، وخطها الأنثوي المنمنم ، فوضعتها ناحية ريثما أفرغ من بريد الرسالة . ثم عدت إليها فشققت كامها عن أربعة أسطر تقول فيها : إنها حضرت القاهرة منذ يومين ، وإنها ترجو أن تراني في الساعة الخامسة من مساء الخميس المقبل بمحلي ( جروبي ) الجديد ، و إنها ستضع مجلة ( الرسالة ) على المائدة التي ستجلس إليها ، لتكون دليلا عليها ، فإننا تعارفنا منذ عام بالكتابة نفساً لنفس ، ولكننا لم نتعارف حتى اليوم باللقاء وجهاً لوجه

كيف أفلتت هذه الفتاة الغريرة من ربقة التقاليد الصعيدية المحكمة فتركت عزبتها إلى المدينة ، و بيتها إلى الفندق ، وحديقتها إلى جروبي ؟ هل أقدمت على ما كانت تسوله لها نفسها الطموح من الانعتاق والانطلاق ، فخرجت مما كانت تسميه ( قبراً ) لتدخل فيما كانت تسميه ( دنيا ) ؟ سؤالان ألقيتهما على نفسي ورسائلها عالقة بيدي ، وحياتها ماثلة في ذهني ، فلم تدر نفسي ماذا تجيب . قد أستطيع بما نمت عليه رسائلها من أخبارها وأسرارها أن أخمن بعض الأسباب التي أقدمتها إلى القاهرة ، ولكن بين التخمين واليقين ثلاثة أيام ، فلأنتظر حتى ألقاها .

ألقى إلىّ البريد أولى رسائلها من الصعيد الأوسط في أوائل أبريل سنة ١٩٤٤ حين سرى الروح الإلهي في همود الطبيعة فأيقظ الراقد وأنعش الخامد وأعان

المستكن . كانت فى تلك الرسالة متهيبة متحفظة ، كالغريب الطارىء يقرع الباب بلطف ، ويدخل البيت فى استحياء ، حتى إذا وجد من أهل الدار بشاشة القبول وكرم المثوى علّق العصا وخلع المعطف . وما كان لكاتب نصب نفسه للتوجيه والإرشاد أن يذود عن بابه المفتوح فتاة تلتمس نَفَساً من كربها وسنداً لضعفها وسبيلا لهداها .

لم تقل فى رسالتها القصيرة أكثر من أنها آنسة فى الخامسة عشرة فقدت فى السن الباكرة أبويها فكفلها أخوها . وأخوها على طباع أهل الصعيد شديد الحِفاظ صارم النخوة لم يسمح لها بالمضى إلى غاية التعليم الثانوى فضمها إليه فى العزبة . والعزبة حديقة تتوسطها دار يسكنها الأخ وزوجه وابناه الصغيران ، ثم الدوار وبيوت الفلاحين يفصلها عن حمى المالك طريق واسع وسور مرتفع ، ثم حقول مترامية الأطراف يغشاها السكون وتلفها الوحشة . وزوجة أخيها امرأة ضيقة الفكر واسعة العمل حيية الطبع لا تحب الاجتماع ولا تحسن الحديث .

فهى لا تملك فى هذه البيئة وهذه الطبيعة إلا أن تزجّى فراغها الثقيل بقراءة قصة أو كتابة رسالة أو رسم صورة أو نسج قطعة . ولكن وجهة آمالها وحديث أحلامها أن تكون يوماً ما أديبة . وقد قرأت لى (آلام فرتر) و (رفائيل) فراقها الأسلوب وسحرها الروح . وهى تطمح أن تبلغ من الفن الكتابى مبلغاً يهيئها لأن تعبر عن نفسها هذا التعبير ، وأن تكشف عن روحها هذا الكشف؛ وتطلب منى فى ابتهال وضراعة أن أجيب عما ترسل إلىّ من رسائل ، فأوجهها إلى ما تقرأ ، وأحاسبها على ما تكتب ، وأناقشها فيما تفكر ، وأملأ يومها الفارغ الطويل بتحرير الكتب إلىّ ، وانتظار الأجوبة منى . وذلك تزعم جزء من رسالة الأديب الذى اصطفاه الله ليجمّل بفنه قبح الحياة ، ويخفف بعلمه شقاء الناس .

إن الرد على ما يأتيك من الرسائل واجب ، وهو بالطبع على رسائل السيدات أوجب ؛ ولكن هناك – ولا أكذبك – دافعاً أقوى من الواجب ؛ هو تلك اللذة الطبيعية التي يجدها الرجل فى الحديث إلى المرأة أو عن المرأة . لذلك لم أكد أقضى حاجة النفس من جمال تلك الرسالة ، بإجالة الفكر فى الأسلوب ، وإطالة النظر إلى الخط ، حتى كتبت الجواب عنها إلى الفتاة بأسلوب أب يحاول أن يكون لابنته كما تريد ، ويجتهد فى أن يفتح أمامها باب الأمل من جديد .

## يوم الثلاثاء ٨ مايو سنة ١٩٤٥

شغلت بالى الآنسة (س) بقدومها المفاجىء وموعدها المضروب . فجهدت أن أتذكر ما أنسيت من تلك الوساوس التى كان يلقيها على صدرها الشيطان فتنفثها هى فى رسائلها إلىّ شواظاً يضطرم ولا يحرق ، وسُعاراً يحتدم ولا يُؤذى وهل أستطيع أن أتذكر أضغاث أحلام تذهب عند الصباح ، أو هواجس أوهام تهرب من العقل ؟ لقد كانت فى رسائلها أشبه بالمحمومة تهيج بها الحرارة فتهذى ، أو يأخذها النعاس فتحلم . إذن أعود إلى أوراقى الخاصة لعلى أجد فى ثناياها بعض تلك الرسائل فأعيد قراءتها لأستجلى ما غمض فى ذهنى منها ، ولأستعد لما أتوقع يوم اللقاء من الحديث عنها .

وجدت بتوفق من حسن الحظ طائفة من هذه الكتب الوردية الورق ، المعطرة المداد ، المنمقة الخط ، فرتبتها على حسب تواريخها ثم أخذت أقرأها كتاباً بعد كتاب حتى فرغت منها ، وفى نفسى لهذه الفتاة صورة مكتملة الأعضاء ما كانت لتبرز فى ذهنى على هذا المثال لو بقيت على تصورها من كتبها المتفرقة ، كل عضو على انفراد ، وكل قسمة على حدة .

كان أسلوب رسائلها فى طورها الأول أسلوب التلميذة الراغبة فى العلم :

تشاور فيما تفعل ، وتسأل عما تجهل ، وتجادل فيما أجيب . ثم صار فى طورها الثانى أسلوب الصديقة الطامعة فى المعونة ، تشكو ضيقها لتلتمس الفرج ، وتصف وحشتها لتطلب الأنس ، وتذكر خطأها لتتلمس الصواب ، وترسم غايتها لتتبين الطريق ثم أصبح فى طوره الثالث أسلوب العاشقة الطامئة إلى الغزل . تعطف كل حديث إلى الحب ، وتقصر كل نعيم على الحب ، وتحاول أن تعرف رأيى فى الحب ، وتسألنى أن أروى لها أبلغ ما قيل فى الحب ، وتطلب منى أن أكتب رسالة غرام إلى آنسة مجهولة ، لتعرف كيف تهفو روح إلى روح ، وتنجذب نفس إلى نفس ، وينسكب قلب فى قلب ، فأحاول فى ردى عليها أن أعيد السكينة إلى قلبها ، وأن أصل بالموعظة الحسنة بينها وبين ربها ، ولكنى كنت معها أشبه بالسائس يريد أن يكبح الفرس الجموح من غير شكيمة ، أو بالسائق يحاول أن يقف السيارة المنحدرة من غير فرملة . لقد انفجر فى صدرها شريان العواطف الطاغية ، فهو لا ينفك يفور بالهوى الجياش وينفح بالشهوة الدافقة . وهيهات أن يحبسه رقوء[1] أو ضماد ! أعيانى الانفجار فتركت العرق[2] العاند ينزف ، ووقفت منه موقف الحائر المشدوه أنظر إلى العواطف المسفوحة وهى تتمثل فى ألوان قوس الغمام ، وتتشكل فى صور من الأخيلة والأحلام ، ثم تتحول إلى قطع من الأسجاع والأنغام ، فأعجب أو أطرب أو أغضب ، ولكنى لا أملك غير ذلك ، ولا أستطيع وا أسفاه أن أصدها عن هذه المهالك !

أخذت كتبها تنثال على بعجيب الأحاديث وغريب الحوادث فأقرأها ولا أجيب عنها : لقد برزت فى رسائل هذا الطور عارية ، فلا حياء على الوجه ولا احتشام على الجسد . صرحت بأنها لم تكن صادقة حين كتبت إلىّ فى أول

---

(١) الرقوء ما يوضع على الدم ليقطعه ويجففه ويسكنه والضماد خرقة يشد بها العضو المؤوف .

(٢) العرق العاند : الذى يسيل فلا يرقأ .

الأمر تطلب المعرفة أو تبغى النصيحة ، إنما لبست هذ البرقع الكاذب لتستطيع أن تدخل على فى وضح النهار من الباب العام ، حتى إذا حصل التعارف و بدأ التآلف حسرت برفع الرياء ووضعت وجه المرأة أمام عين الرجل وقالت له ! ها أنا ذى كما خلقنى الله ووجهنى القدر ! خلت حياتى من كل عمل ومن كل أمل فلا أفكر إلا فى الحب ، ولا أحلم إلا بالحبيب . كنت فى المدرسة الداخلية لا أسمع من أترابى غير أحاديث الهوى ، يؤلفنها من حوادثهن وخيالهن ، أو يسرقنها من أمهاتهن وأخواتهن ، أو يروينها عن جاراتهن وصديقاتهن . فصديقتى فلانة تقول لى إنها عرفت صاحبها من النافذة وراسلته مع الخادمة وقابلته فى سينما مترو ! وصديقتى علانة تروى لى أن صاحبها صديق أخيها ، عرفته فى غرفة الاستقبال ، وكلمته فى حديقة المنزل ، ثم واعدته فى حديقة الأسماك ! وصديقتى ترتانة تحكى لى أن صاحبها صاحب سيارة — والسيارة لو تعلمين فخ البنات — رآنى أول مرة وأنا عائدة وحدى إلى البيت ، فعز عليه أن أمشى ، وناشدنى الله أن أركب ، وتعاهدنا على الوداد المحض فى طريق (ألماظة) ! وكانت كل واحدة منهن تصف القبل الطاهرة ، والعناق البرىء ، والحديث الغزل ، والخلوة العفيفة ، والخروج المختلس ، والرجوع الخفى ، والعلل المكذوبة ، والمواعيد المضروبة ، بأسلوب يحرك الساكن و يظهر الباطن و يجرىء الهيوب ، وأنا أصغى إلى هذه الأحاديث بحواسى الخمس حتى إذا خلوت بنفسى ورقدت على سريرى استذكرت هذه الأحاديث ، واستحضرت تلك الصور ، فأشعر بقلبى يذوب ، وبجسمى ينحل ، و بنفسى تساقط حسرات على مجهول لا أعرفه ومطلوب لا أناله وفى أكثر أيام الآحاد كانت إحدى قريباتى تجىء إلى المدرسة فتستأذن لى فى الخروج وتذهب بى إلى دور السينما فأرى أحاديث رفيقاتى وأمانىّ نفسى مصورة على الشاشة بالألوان الفاتنة والأوضاع المغوية ، فيماع جلدى بماع الثلج ، و يذوب صبرى كما يذوب الشمع ، وأتمنى لو لم تكن معى قريبتى ،

أو كانت قريبتي في سن رفيقتي ! ثم أستشعر الحزن الممض والهم المبرح كلما تذكرت أني سأعود وحدي إلى الغرفة الموحشة والفراش القلق !

وأخيراً تركت حياة المدرسة وجو القاهرة ، إلى حياة العزبة وجو الريف . جئت هذه العزبة التي وصفتها لك من قبل وفي ذاكرتي أجناس من أحاديث الهوى ، وفي حقيبتي أكداس من قصص الحب . فاتخذت من قرية الحديقة محراباً لـ كيوبيد[1] أؤدي صلواتي ، وأتقرب بنزواتي وصبواتي ، والروايات الماجنة تثير عواطفي ، والمجلات الخليعة تلهب مشاعري ، والرغبات الجامحة تملأ فراغي ، وليس بجانبي أم ترشد ، ولا بين جوانبي عقيدة تهدي ، فأنا أعيش في دنيا القصص أقاسم بطلاتها قطوف اللذة ، وأساقي أبطالها كؤوس الصبابة؛ فإذا سئمت القراءة وأجمت[2] الذكرى سليت همي برؤية حمامة تلاطف حمامة ، أو قط يسافد قطة ، أو فلاح يداعب فلاحة ، حتى ضاق وسمي بما اختزن من ذكريات أمسي ورغبات يومي ، فأردت أن أجد لي متنفساً بالكتابة ، ولكن الكتابة لم ترد علي[3] ، لأنها مني وعني وإلي . أريد أن أكون موضوعاً لمقالة أو حديثاً لرسالة أو عروساً لقصة . ولا يمكن أن أكون شيئاً من ذلك إلا إذا عشقني كاتب فالكاتب وحده هو الذي يستطيع أن يحب من بعيد ! يستطيع بفنه الخالق وخياله المبدع أن يعايش من يحب روحاً لروح ، فيقابله من غير لقية ، ويحادثه من غير رؤية ، ويرسل إليه الكتاب فيكون هو اليوم الموعود واللقاء المنتظر والحديث المشتهى والأمل المرجو . والوداع المتوقع ! ولقد اخترتك لتكون حبيبي النائي ، تصف مني ما وصفت من (حياة) و (ليلى) ، وتترجم عني ما ترجمت عن (شرلوت) و(جوليا) . وليس في منطق الحب أن أقول اخترت

(١) كيوبيد : إله الحب عند الرومان .

(٢) أجم الشيء : عافه وكرهه .

(٣) ما يرد عليك هذا : أي ما ينفعك .

فتختار ، أو أردت فتريد . إن سلطان الحب طاغ لا يخضع لاختيار ولا يخشع لإرادة . وكيف يتسنى لنا أن نتحابّ ونحن لا نتراءى ؟ لو كنت أملك رؤيتك لأمكن أن يأسرك جمالى ، أو لو كنت أحسن الكتابة لجاز أن يسحرك خيالى إنما هو الرجاء والحظ ، وهو القضاء والقدر .

هذه خلاصة أمينة لما قرأت من رسائلها فى هذا اليوم أسجله فى مذكراتى ، وما أسجل فيها إلا ما له أثر فى نفسى أو خطر فى حياتى .

## الأربعاء ٩ مايو سنة ١٩٤٥

كلمتنى ضحى اليوم بالتليفون تذكرنى بموعدها عصر الغد بجروبى ؛ وتعتذر من هذا التذكير بأنها تخشى أن تكون استجابتى لمواعيدها فى القاهرة كإجابتى عن رسائلها من العزبة . ولو لم يكن فى مكتبى وهى تتكلم بعض المتزمتين لقلت لها إن الأمر بين الحالين جِدّ مختلف ؛ فإن إجابتى عن رسائلها قد أصبحت من فضول القول بعد أن صارحتنى بأنها تطلب الحب ولا تطلب المعرفة ، وتريد الغزل ولا تريد النصيحة ؛ ولكن استجابتى لموعدها أدب من آداب النفس المهذبة ، يزيد فى الحرص عليه شوقى إلى رؤية وجه يتجلى فى اليقظة بعد أن تمثل لى طويلا فى الحُلم ، ثم أملى أن ينجح فى كبحها اللسان بعد أن فشل فى كبحها القلم . ولقد استخفنى — علم الله — صوتها الموسيقى فى السماعة فهممت أن أطلب منها تقديم الموعد يوماً ولكننى لم أفعل ، لأنى أكبر نفسى أن تخضع فى أية حال لهواها ، ولأنى أوثر أن أقرأ ما تبقى من رسائلها قبل أن ألقاها .

حملتُها على قطع الحديث بأجوبتى البطيئة المقتضبة ، لأن الجالسين إلىّ كانوا قد كفوا عن حديثهم وجملوا بالهم لحديثى . وما أدرى أكان ذلك منهم اتباعاً لأدب السلوك أم استطلاعاً لحديث إمرأة . وضعت السماعة وعدت إلى زوّارى الأكرمين أناقلهم أحاديث الأدب وأراجيف السياسة ، حتى انفض المجلس وخلا

المكتب فنشرت بين يدىّ ما عثرت عليه ليلة الأمس من بقايا رسائلها الحمر ، وأخذت أصفحها ورقة ورقة فألقى المكرر أو السخيف ، وأبقى المفيد أو الطريف . ثم رجعت النظر فيما استبقيت فلم أجد غير رسالتين اثنتين تستحقان التلخيص والتسجيل ، وتستأهلان التعليل والتحليل ، فأثبتهما ملخصتين فى صفحة هذا اليوم من مذكراتى ، لتكونا تكملة لصورتها وتغذية لتصوراتى .

قالت الآنسة فى رسالتها ما ترجمته : « مالك تبتعد عنى مترا كلما دنوت منك فترا ؟ لقد أوصدتَ بابك دونى ثم تركتنى أطرقه وأطرقه حتى أصم أذنىّ الطرق وأنت لا تجيب ! هل تجد فى ردك على رسائلى إحراجاً لك أو إزراء بك أو تبعة عليك ؟ إن كنت لا تحبنى — كما أعتقد — فهلا تظاهرت لى بالحب إشفاقاً على هذا القلب الذى يحترق ولا يجد بَرْده إلا فيك ، ويذوب ولا يرى مساكه إلا بك ! كان يقنعنى منك أن تحبنى بالكلام حتى لا تظل موجة حبى حائرة فى الفضاء لا تجد جهاز استقبال ولا أذن مستمع ! لقد تركتنى بسكوتك عنى أشبه بالمصوِّت فى المغارة لا يسمع غير الصدى أو المتقطع فى المفازة لا يجد غير السكون ! أريد أن أعرف هذا المجهول وأستدنى ذلك البعيد . يخيل إلىّ أحياناً أنه يناديني فى زفيف الريح ، أو يقبّلنى فى انعطاف الغصن ، أو يعانقنى فى لين الفراش ، فأرهف أذنى ، وأعرض خدى ، أو أنصب صدرى ، فلا أحس والهفتاه إلا الرهبة والعزلة والفراغ . دعنى أبحث عنه فى كل مكان وأتصوره فى كل إنسان ، مادمت لا ترسله إلىّ بالبريد .

دخلت الحظيرة ذات صباح فرأيت الحلابة تحلب إحدى الجواميس فطاب لى أن أرى هذا المنظر ، وقام بى أن أجرب هذا العمل ، فأخذت الوعاء من فوق ركبة الحلابة ، وقعدت القرفصاء تحت بطن الجاموسة ، وقبضت بيمناى على حلمة من حلمات الضرع وجذبتها إلى فشخب اللبن حاراً فى يدى . ولذّ لى

لسبب لا أدريه أن أمعن فى غمز الحلمة وعصر الضرع وحلب اللبن ، شخبا فى الإناء وشخباً فى الأرض ، وقد دب فى بدنى رعشة خفيفة ، وسرى فى دمى نشوة لطيفة ، وجرى فى نفسى إلى الرجل المشتهى نزعة قوية ! ولا أدرى ما الذى ربط فى ذهنى بين حلب اللبن وشهوة الحب ، ولا بين رؤية الجاموسة وذكرى الحبيب ! ولكن ذلك كان وإن جهلت كيف كان ! ولا يزال الشوق إلى هذه اللذة يعاودنى فأذهب إلى الحظيرة فى الصباح والمساء حتى غدوت أبرع من يحلب فى العزبة من الرجال والنساء .

ماذا تصنع الفتاة الوحِدَة يا ( حبيبى ) لتهدىء قلبها الثائر ، وترضى هواها الطموح ، وتملأ فراغها الموحش ! أخى لا يترك الدوار ولا يتكلم إلا فى الزرع والضرع ، وزوجه لا تفارق الدار ولا تتكلم إلا فى الطهو والغسل ، وأنت لا تدع الصمت ولا تتكلم إن تكلمت إلا فى الفضيلة والفضل ! أما الكلام الذى يمتزج بالنفس ويأتلف مع الشعور فلا أسمعه إلا فى هتاف حمامة لإلفها ، أو حمحمة فرس لسائسها ، أو غمغمة بقرة لولدها ، أو تحية ابن البستانى لى وهو ذاهب إلى الحديقة أو عائد منها . وابن البستانى فتى ريان الشباب ، وثيق التركيب ، على وجهه وسامة ، وفى عينيه ملاحة ، وعلى شفتة جاذبية . يجىء أباه فى أكثر الأيام ليعاونه فى أعمال الحديقة ، فكنت كلما رأيته تمنيت أن أديم النظر إليه وأطيل الحديث معه ؛ ولكن الفروق الاجتماعية التى بينى وبينه كانت تكسر من طرفه وتعقل من لسانه فلا ينظر إلا خلسة ولا يتكلم إلا جمجمة . دعوته ذات مرة ليقطف لى رمانة لم تصل إليها يدى ولا محجناتى ؛ فلما قطفها وقدمها إلى وقف ينتظر أمراً آخر ، فقلت له بعد أن جسست بعينى نوافذ الدار وبماشى الحديقة : تعالى نقطف باقة من الزهر ، ونجن سلة من الثمر ، فمشى الفتى بجانبى على استحياء وحذر ، فأردت أن أزيل احتشامه فسألته فى لهجة تسيل

أنوثة وعذوبة : أمتزوج أنت أم خاطب ؟ فقال والخجل يضرج محياه : خطبوالى ياسيدتى ابنة الخولى ، وستزف إلىّ فى موسم القصب . فقلت له ضاحكة : إذن سيكون شهر العسل عظيما ! . فنظر الصعيدى إلى مبهوتا كأنه لم يدرك النكتة ولم يفهم الجملة ! فقلت له : وماذا تقول لفتاتك إذا خلوت بها ! فأجاب الفتى فى حرج ودهشة : وكيف أخلو بها قبل الزفاف يا سيدتى ؟ إنى أراها فى الحقل أو أقابلها فى الطريق أو ألمحها فى البيت ، فتغض هى من طرفها ، وأشيح أنا بوجهى ، لكيلا تتلاقى النظرتان فنأمن مقالة السوء ونضمن دوام الخطبة . فقلت له وأنا أعبر بصوتى المطوط عن الرثاء والشفقة : مساكين ! إن الخطبة عند المتمدنين تدريب وتجريب ومتعة . تدريب على الزوجية بالفعل ، وتجريب للشخصية بالخبرة ، ومتعة النفس بالرقص والرياضة والرحلة . إذا كانت خطيبتك بخراء فكيف تعرفها بغير القبل ؟ وإذا كانت مُصنَّة فكيف تكشفها بغير العناق ؟ وإذا كانت مذياعة[1] فكيف تمتحنها بغير الائتمان ( سر ) ؟ سأمثل معك دور الخطيبة الحبيبة رحمة بك وحنانا عليك ، وأعلمك ماينبغى أن تعمل ، وألقنك مايجب أن تقول . وفى ظل شجرة فيناء من شجر التفاح أخرجت منديلى الرقيق فمسحت به ملاغم[2] الفتى ؛ ثم جذبت بيدى جانبى رأسه ، ودسست شفتى فى زاوية فمه ثم وثَّقت القبلة وعمّقتها وطوّلتها وعرّضتها ، وكان الشاب قد صدمته المفاجأة فتصلب أولا ثم استرخى ، وأردت أن أنزع فمى من فمه فاستعصى . ورفعت بصرى إلى أعلى الشجرة فرأيت أفعى ( حواء ) بجانب التفاحة تريد أن تسقطها إلى ، ففررت مذعورة إلى المنزل . وفى اليوم التالى عدت إلى التعليم وعاد إلى التعلم . وكان الفتى فى هذا اليوم على غير عادته نظيف الوجه جديد الثياب جرىء القلب . فأطلنا الدرس وشفينا النفس وشققنا الحديث

---

(١) مذياعة : لا تكتم السر .
(٢) الملاغم : الفم وما حوله مما يبلغه اللسان .

وتعاقبت الأيام على هذه الحال الراضية فسكت فى رأسى صوت كان لا يفتر عن الصراخ . وسكن فى نفسى وسواس كان لاينى عن الحركة . وكدت أشغل بالفتى عنك ، وباللهو المتحقق عن الحب المتخيَّل ، لولا أن أخى وقف من زوجته على الحقيقة ، فضربنى علقة دامية وحرمنى النزول إلى الحديقة .

## يوم الخميس ١٠ مايو سنة ١٩٤٥

كانت الساعة خمساً بالتمام حين دخلت مَحَلّى جروبى الجديد أبحث عن الآنسة ( س ) . وكانت العلامة التى سأتعرفها بها أجد نسخة من ( الرسالة ) على المائدة التى تجلس إليها . ولكن ماذا أصنع والناس قد فروا من وهج الحر فى قلب المكان فتكوفوا حول الموائد فى حواشيه وحماشيه فلا يجد المار طريقه بين المقاعد إلا بصعوبة ، والربيع الزاهر المعطار قد خلع من حلله وحُلاه على الأشخاص والأشياء ، فالجو عطر ، والمنظر سحر ، والأزياء وشى ، والنساء وُرود ، والرجال أشواك ، والأحاديث أغاريد ، فلاأستطيع لشيوع الجمال وعموم الحسن أن أعرف صورة من صورة ولا أن أميز زهرة من زهرة ؟

لو كنت حديد البصر لنفضتُ المكان من بعد ، فعرفت على أى منضدة تنام ( الرسالة ) ، وفى أى كرسى تقعد الفتاة ؛ ولكن البصر كليل والمساء مقبل فلا مناص من الجولان المتهم بالفضول ، ولابد من النظر القريب من اللمس . على أننى توخيت المناضد المنفردة فجملت وجهى إليها ونظرى عليها ، فلم أخطُ غير قليل حتى رأيت منضدة صغيرة عليها يدان رقيقتان تقلبان ( الرسالة ) . فكنت فى خروجى برؤيتها من ربكة المشى وحيرة النظر أشبه بالزورق العائم فى ظلام المحيط أبصر فى المرفأ ومض المنارة ، أو بالسائر التائه فى مجاهل القفر سمع فى الواحة نبض الحياة .

أقبلت عليها فاستقبلتنى واقفة كما يستقبلن النساء الرجال فى الريف ، ومدت

يدها إليّ فتصافحنا باسمين ، وجلسنا متقابلين ، وكلانا يصعّد النظر في الآخر ويصوّبه ، ويوازن في نفسه بين ما تصوره في الخيال بذهنه ، وبين ما رآه في الحقيقة بعينه . أما هي فلم أدر ماذا كنت في خاطرها من قبل ، وماذا أنا في ناظرها الآن . وربما حملني العجب المضمر في كل نفس أن أسألها عن ذلك في مؤتنف الأحاديث ، وأما أنا فقد كنت موزّع النفس والحس بين صورتين تختلفان في الذات كل الاختلاف ، وتتشابهان في المعنى بعض التشابه فتاة العزبة في نفسي كزنبقة الروضة المطلولة ، بضة الجسم ، لدنة القوام ، مطهمة الوجه ، قد نضّرت وجنتيها النعمة وغلّظت شفتيها اللذة ، وسوّت خلقها الطبيعة ؛ وفتاة ( جروبي ) في حي نُوارة من نوار القول أبطأ عن حقله الماء ، فهي رقيقة البدن ، مخروطة الوجه ، دعجاء العين ، فاترة اللحظ ، طويلة الأنف ، ظمياء الشفة ، حلوة الافترار ، هواها أكبر من جثمانها ، وقلمها أجرأ من لسانها . وخبرها أضخم من عِيانها ، ولكنها على الجملة وضيئة الطلعة ، مليحة القسمات ، لطيفة الروح ، تحمل الرجل بصباحة وجهها وصراحة قلبها على أن يأنس بها إذا حضرت ، وأن يفكر فيها إذا غابت .

قلت لها بعد التحيات المنوعة والترحيب المكرّر والأسئلة المعتادة : لقد انقطعت رسائلك عني منذ شهر فلم أعرف الأسباب التي أقدمتك إلى القاهرة . وما أحسبني أعلم أن لك هنا أقارب تصلين رحمهم بالزيارة ، وتمتحنين كرمهم بالضيافة . فلعلك قدمت أخيك أو بعض أهلك لغرض من الأغراض الخاصة أرجو ألا يكون من بينها المرض . فقالت الفتاة وقد أرسلت نفسها على سجيتها بعد احتشام من اللقاء الأول لم يدم طويلا : ليس بجسمي والحمد لله ما أشكوه . ولنا في حي المنيرة منزل موروث تقيم فيه أختي الكبرى وزوجها وابنتاها ؛ فأنا نازلة عليها به ، ومطمئنة إلى حياتي فيه . وأما سبب قدومي فله حديث عرفت بعضه وغاب عنك بعضه ، ولو كنت مطلقة اليد لما انقطعت رسائلي عنك ،

ولا التبست أمورى عليك . ذكرت لك فى رسالتى الأخيرة — لو تتذكر — ما كان بينى وبين ابن البستانى ، وكيف استرقت زوجة أخى هذا السر من أفواه الخدم وأفشته إلى زوجها ، وما أعقب ذلك من الضرب المبرح ، والحجاب الكثيف ، والمراقبة الشديدة وكنت أظن أن لذلك العقاب حداً يقف عنده ووقتاً ينتهى فيه ؛ ولكن العذاب اشتد وامتد حتى ضاق مكانى فى البيت ، وساء مقامى فى الأسرة ؛ فأخى يعاملنى بقسوة ، وزوجته تكامنى بجفوة ، وخادماته القرويات ينظرن إلىّ بازدراء . ومما سودّ نهارى وأطال ليلى أن أخى صادر بريدى فحرمنى أن أقرأ ما أحب ، وأن أكتب إلى من أريد ، فأصبحت كسجينة الزنزانة محرومة من أعتبار النفس واستشمار الأنس واستحضار الوجود .

كان لابد للإناء أن يطفح ، وللجلد أن يهى ، وللصبر أن ينفد ، فوطنت نفسى على الفرار إلى القاهرة . ولكن كيف الفرار وليس فى يدى مال ولا فى قدرتى مشى ولا فى أسرتى مساعد ؟ الأمر سهل ! بين العزبة والقرية مسافة قصيرة وسكة معبدة ، وبين أخى وعمدتها صداقة وثيقة ومعاملة متصلة . وهو يعرفنى منذ أن كنت طفلة ، ويسأل عنى كلما زار الأسرة ؛ فإذا ذهبت إليه وطلبت منه باسم أخى بعض المال فما أظنه يمتنع أو يتلكأ أو يستريب ؛ على أن معى خواتمى وأساورى فأستطيع أن أستعين ببعضها إذا حبطت هذه الخطة . وفى تباشير الصبح قبل أن يتيقظ البيت ويسرح الفلاحون وضعت ألزم أشيائى وأخفها فى حقيبة صغيرة ، ثم تسمت إلى الطريق الذاهب إلى القرية . وكانت الأرض قد طلها الندى ، والنبات قد كلله الحباب ، والطبيعة الراقدة تحت جنح الليل قد أخذت تستفيق وتنتعش وتتحرك ، فالطير تصدح بأغاريد الصباح ، والشجر يتجه بالتحيات إلى الشمس : وآحادٌ من الفلاحين المبكرين ينقلون كالأشباح خُطاهم الوئيدة على ضفاف القنوات وحواشى الزروع ، وأنا

في هذه الصحوة الجميلة أسير بين حقول القمح خائفة مسرعة ، أترقب كل أمر ، وأتأهب لكل طارىء ، فأعد لكل سؤال جوابا ، ولكل تصرف علة .
وستر الله عليّ حتى بلغت القرية وطرقت باب العمدة ، فتلقاني أهله بوجوه منطلقة وصدور رحبة ، ثم قدموا إليّ الفطور فنلت منه ما ينال العجلان القلق . ثم دخلت على العمدة في غرفته وقلت له : إن أخي غائب في المدينة ، وقد أبرقت أختي إليّ تنبئني أن ابنتها في نزاع الروح وأنها في حاجة إليّ ، فلا بد من سفري في قطار الصباح وليس معي نقود . فما كان جواب الرجل إلا أن قدم إليّ عشرة جنيهات وأمر الحوذي أن يهيىء لي العربة .

دخلت القاهرة عشية يوم الأحد الماضي ، وكان حالي وأنا أسير في زحمة الخارجين من المحطة حال الهارب من السجن ، يتوهم في كل مكان جاسوسا يسمعه ، وفي كل طريق شرطيا يتبعه . فلم تكد عيني تقع على سيارة أجرة بجانب الافريز حتى دخلت فيها وقلت للسائق: المنيرة ، شارع كذا ، رقم كذا . وما هي إلا عشر دقائق حتى وقفت السيارة أمام البيت ، فصعدت الدرج ، وغمزت الجرس ، فأسرعت أختي في لهفة إلى باب الشقة وفتحته وهي ترتجف ، وعانقتني وهي تنتحب ! وكان مبعث ذلك كله أن أخي أرسل برقية إلى زوج أختي يعلن إليه هربي ، ويلح عليه في طلبي ، فساورت أختي الهموم ، وتنازعتها الظنون ، وعللت هذا الهرب بما أقاسيه في العزبة من العدوان المستمر ، والحرمان المتصل؛ لأن أخي لا يهتم بها فهي تسيء به الظن ، ولأن امرأته لا تخفّ على قلبها فهي تعتقد فيها الظلم ! وقويت أنا في نفسها هذا التعليل بما افتريت من الأكاذيب واختلقت من المظالم . فكتبت أختي إلى أخي تسترضيه عني وتسأله أن يأذن لي في البقاء معها أياما لتجلو عن جسمي هذا المرض ، وتكشف عن نفسي هذا الهم . ولكنني قطعت العزم على أن أموت هنا ولا أعيش هناك ، وأن أخسر رضا الناس أجمعين إذا كسبت رضاك .

## يوم الجمعة ١١ مايو سنة ١٩٤٥

كان الحديث لقائنا الأول بقية ضاق عن تسجيلها الوقت فى صفحة الأمس فأنا أسجلها ملخصة فى صفحة اليوم .

قلت للآنسة (س) بعد أن قصت علىّ مغامرتها الحمقاء بخروجها من العزبة شريدة ، وسفرها إلى القاهرة فريدة : إن حكايتك فى تحررك من أخيك أشبه بحكاية العنزة ( بلانكيت ) فى تحررها من سيدها ( سيجان ) .

قالت وما خبر هذه العنزة ؟ قلت : خلاصة خبرها فيما زعم (ألفونس دوديه) أنها كانت عنزة جميلة الشكل خفيفة الظل ذات قرنين مفوّفين[1] ، وعينين كحلاوين ، وشعر أبيض ناصع ، وظلف أسود لامع ؛ وأنها كانت تعيش فى حظيرة مولاها عيش الرافهين الأغرار ، تنزو وتلعب فى حبلها الطويل ، وتأكل وتشرب فى مذودها الحافل . وفى ذات يوم أطلت من النافذه فأبصرت الجبل يوشيه الزهر ، والسهل يغشيه النبات ، فقالت لنفسها . يالله ! ما أجمل الحياة هناك ! وما أسعد من ترتع فى تلك المروج طليقة من هذا الحبل ! ما للمعز وللحظائر والقيود ؟ إنها بالحمير والبقر أخلق . ومنذ تلك الساعة غرضت[2] العنزة من المكان ، وبرمت بالقيد ، وعزفت عن الطعام ، حتى هزل بدنها وشح لبنها . وكان السيد سيجان كلما دخل عليها الحظيرة وجدها جاثمة على الأرض أمام الباب ، تنظر نظر المشوقة ، وتثغو ثغاء الولهى ؛ فأدرك آخر الأمر أن بها شيئاً تخفيه . فسألها : ماذا بك يا بلانكيت ؟ لعل حبلك قصير فأطيله ، أو علفك قليل فأزيده ! فقالت العنزة مغضبة فى غير اكتراث : أرخ نفسك ياسيد سيجان ، فليس ما أشكوه قصر الحبل ولا قلة العلف .

---

(١) القرن المفوف : المخطط .

(٢) غرض منه : ضجر ومل .

— إذن ماذا تشكين ؟

— أشكو القيد .

— وماذا تريدين ؟

— أريد الجبل .

— الجبل ؟! ألم تسمعى أن هناك الذئب ؟

— بلى سمعت ، ولكن لى قرنين طويلين يخشاهما الأسد .

— ليس قرناك يامسكينة أطول من قرنى أختك ( رينود ) ، فقد صاولت الذئب بشجاعة طول الليل ، ولكنه أفطر عليها فى الصباح !

— يالامسكينة ! ولكن لا بأس ، دعنى بربك أجرب حظى مع الذئب ياسيد سيجان .

فلما رأى سيجان أن عنزته لا يقنعها المنطق ولا يعظها التاريخ ، حبسها فى حجرة بالحظيرة ثم أغلق عليها الباب . ولكنه نسى أن يغلق النافذة ، ففرت منها إلى الجبل ، ورأى الجبل فى بلانكيت غير مارأى فى سائر المعز من جمال اللون وحسن الشارة ، فلقيها لقاء جميلا ، وأمر أشجاره أن يظللن لها الطريق ، وأزهاره أن يعطرن لها الجو : ووجدت العنزة نفسها مرسلة من كل قيد ؛ فلا وتد ولا حبل ولا جدار ، فأخذت تمرح فى الخلاء الرحب ، وتسرح فى الكلأ الرطب ، وتوازن فى اشمئزاز بين ضيق الحظيرة وسعة المرج ، وبين تفاهة العلف ومراءة العشب ، فتحمد الله على ما رزقها من نعمة الحرية ومتعة العيش . فلما قضت حاجتها من الشبع والرى ، أخذت تثب فى الهواء ؛ وتركض على الأرض ، وتقفز فوق الصخور ؛ ثم تبلل شعرها بماء الغدير ، وترقد لتجففه بحر الشمس ، ثم تنهض فتصعد فى شعاف الجبل حتى تقف على قمته ، فيخيل إليها من فرط

الصاف وسحر الغرور أنها حورية مرجه وملكة واديه ! وبينما هى ترسل النظر الساخر من ذروة الجبل إلى حظيرة سيجان أبصرت قطيعاً من الوعول ينال من شجر الكرْم فتحلب ريقها شرهاً إليه ، وما هى إلا وثبات حتى نزلت على القطيع ففسح لها المجال بأدب ، وقرب إليها المنال فى لطف . ثم وقع بقلبها بعض الوعول فاختلت به ساعة أو ساعتين فى ظلال الغاب . وجملة القول أنها قضت يوما من أيام الجنة لم تقضه قبلها عنز من عناز سيجان ، ولا نعجة من نعاج داود[1] .

ولكن الهواء برد والمساء أقبل ، فخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات وانبعث من جانب الحظيرة بوق السيد سيجان يدعو الآبقة إلى الرجوع . حينئذ تذكرت الذئب وقد أنساها إياه قصف النهار ولهوه ، فاعتراها شىء من الحيرة والتردد ؛ ولكنها تذكرت كذلك الوتد والحبل فمطت شفتيها وأصمت أذنيها وقررت البقاء . وانكفأت بلانكيت تبحث عن مرقد وثير فى مغاور الجبل فرأت بين الأوراق أذنين مصرورتين[2] تحتهما عينان تشعان الخطر ، وتقدحان الشرر ، فعلمت أنه الذئب ؟ وأرادت أن تمضى فى سبيلها ، فضحك منها الذئب حتى بدت أنيابه العُصل[3] ، واندلع لسانه الغليظ ، فاستيقنت الموت وتذكرت ما سمعته عن مصرع العنزة رينود ؛ فهمت بالاستسلام ؛ ولكن بدالها أن تدافع لا لأنها تعتقد أن العنزة تقتل الذئب ، ولكن لأنها تربأ بكرامتها أن تكون أقل شجاعة من رينود ، والحق أن بلانكيت اضطرت الذئب إلى أن يستريح عشر مرات أثناء المعركة ، وفى كل استراحة كانت تملأ فمها بالعشب الندى ، وترقب طلعة الفجر فى الأفق الحالك ، ثم تعود إلى الصراع ؛ حتى لاح الضوء الشاحب ، وصاح الديك المؤذن ، فخرت شهيدة الحرية بين يدى الذئب وهى تلفظ مع نفسها هذه الجملة :

(١) نعاج داود : كناية عن النساء .
(٢) صر الحيوان أذنه : سواها ونصبها للاستماع .
(٣) الناب الأعصل : الأعوج .

الحمد لله قد بلغت أمنيتى ، وإن لحقت بى منيتى !

* * *

قالت الفتاة : قصة طريفة ! ولكنى أعدك مادمت عندك أن ألزم الحظيرة ولا أفك القيد ولا أخلع الزمام . فقلت لها : لا تنسى يا بنيتى أن حظيرتك عند أخيك لا عندى ، وأن حريتك فى قيده لا فى قيدى ، وأن زمامك بيده لا بيدى . وهيهات أن أكون لك إلا أباً يشفق أو أخاً يعين أو معلماً يرشد . فقالت وهى تنهنه عبرة تريد أن تقطرُ : ليكن ! حسبى أن أراك وأن أسمعك ! لقد حاولت أن أغويك فلم أستطع ، فحاول أنت أن ترشدنى فلعلك تستطيع . سأجعل فى يديك مقاليد أمرى ، وأودع بين جنبيك مكنون سرى . وسأتبين معالم الطريق فى ضوء مصباحك ، وأنشد سكينة القلب فى ظل جناحك . فقلت لها أعاننى الله وأعانك . ثم افترقنا ونفسى تغالِب الضلال ونفسها تغالب الهدى ، وما تدرى نفسى ولا نفسها ماذا نكسب غداً !

## يوم الخميس ١٧ مايو سنة ١٩٤٥

كان لقاؤنا الثانى فى مطعم ( الكرسال ) ظهر هذا اليوم ؛ وكنت قد واعدتها على هذا اللقاء ساعة انصرافنا من جروبى . وكانت هى شديدة الحرص على أن نلتقى كل يوم ، ولكننى أقنعتها بأن نجعل بين اللقاء ين أسبوعاً لتعرف فيه خبيئة نفسها ودخيلة هواها ، لتردَ يوم ترد عن بينة ، وتصدر حين تصدر عن بصيرة . سبقتها إلى الموعد فى هذه المرة فتخيرت مائدتنا فى ركن من أركان المطعم الفخم ، ولم يكد يطمئن بى الجلوس حتى رأيتها مقبلة فى زينتها الكاملة : فرأسها الفرَنيتى الساحر قد خلص من يد الحلاق الساعة ، وفستانها الفيروزى الأنيق قد خرج من محل الخياط اليوم ، وشنطة يدها اللازوردية المعلقة على كتفها قد تدلت فى قراغ الخصر واستقرت على الجانب ، وشفتاها القرمزيتان قد انفرجتا

عن ثغرها الشتيت لتلقى التحية ثم تواصل الحديث. وكانت الجوقة حينئذ تعزف لحناً رقيقاً رفيقاً ينسجم مع شحوب الضوء وهدوء المكان ونشوة الجلاس، ولكنها جعلت دَبْر أذنها[1] وفضلت أن تتكلم على أن تسمع. فأخذت تفاقلني على الطعام شهي النوادر وطلي الأخبار حتى جرها الحديث إلى أنشودتها الغرامية المعتادة، فعطفتها برفق إلى حديث يوم الأحد الماضي وسألتها: لعلك في هذا الأسبوع قد وجدت النور الذى تفتقدين، والسلام الذى تنشدين!

فقالت وهى تُنغض رأسها إلىّ: أى نور وأى سلام وقد شد الله عضد شيطانى بشياطين أُخر؟ لقد وجدت فى بنت أختى وأترابها من الإغواء ما يضل العابدة بلفظة، ويفتن الراهبة فى لحظة!

فقلت لها: إذن لابد من الرجوع إلى العزبة.

فقالت: أرجع إلى الوتد والحبل؟ لا ياسيد سيجان! دعنى بربك أجرب حظى مع الذئب!

لم أكن بعد ذلك فى نصيحتى لبلانكيت إلا كمن يرقم على ماء أو ينفخ فى رماد ففوضت أمرها إلى الله ثم افترقنا على غير ميعاد.

## يوم الاحد ٢٩ يولية سنة ١٩٤٥:

أخذت الفتاة منذ يوم الكرسال تطاردنى بالتليفون ثم بالرسائل ثم بالرسل تريد أن نتلاقى فى شرفة فندق من الفنادق الكبرى، أو فى مقصف حديقة من الحدائق العامة، فكنت أجيبها بالمعاذير، أو أعللها بالمواعيد، أو أدافعها بالمطل، حتى الجأت آخر الأمر إلى الخديعة فادعت أنها ملت حياة المدينة،

---

(١) جعلت كلامه دبر أذنى: لم أصغ إليه ولم أقبل عليه.

وحنت إلىّ حياة الريف ، وأنها تود أن تلقانى لقاء الوداع لأنهج لها الحياة التى تحياها فى العزبة ، وأنتقى لها الكتب التى تقرأها فى العزلة ، وأعين لها الغاية التى تتوخاها فى المستقبل . فقلت لنفسى المرتابة : ولم لا يجوز أن يكون الله قد كشف للفتاة عن بصيرتها ، وأراد للشاردة أن تعود إلى حظيرتها ؟ ثم واعدتها السادسة من مساء هذا اليوم فى شرفة الكنتنتال . فلما التقينا أخذت تبدىء فى العتاب وتعيد ، وتلوم على الصدود وتحتج ، وتعبر عن الشوق وتبالغ ، وأنا قبالتها هادىء النفس ، رزين الشعور ، أسمع عتابها ولا أعتذر ، وأقبل احتجاجها ولا أعترض ؛ حتى إذا قرت الفورة وسكنت الريح قلت لها وقد لاحظت أن لسانها قد طال وأن احتشامها قد قل : أرجو أن تكونى قد سئمت الجبل ولما يلقك الذئب يا بلانكيت !

فضحكت الفتاة بملء فمها ، ثم قالت : آوه ! أنا أسأم الجبل ؟! لقد وجدت فيه حرية نفسى ومتاع قلبى ؛ أما ذئابه فقد تألفتها حتى صارت كلابا ، وأما نموره فقد رضتها حتى عادت هررة .

ــ إذن ما هذا الذى تزعمين من أنك عزمت الرجوع إلى العزبة ؟

ــ ما أصنع ؟ جربت الصـــدق فى استدعائك فأخفق ، فقلت أجرب الكذب !

ــ أظنك تذكرين أنى عينت مكانك منى فى حديث سبق ، فوضعتك فى موضع البنت أو الأخت أو التلميذة . ولكنك عققت الأب ، وجحدت الأخ وعصيت المعلم ! فماذا عساى أن أملك لفتاة ركبت رأسها وظلمت نفسها وأنكرت حجاها ؟

ــ تملك أن تكون لها الصديق الذى يضاعف سرورها ويحفظ سرها . وتملك أن تكون لها الفنان الذى يرضى شعورها ويفهم شعرها . إن لروحى

ما لجسدى من الرغائب والمتع ؛ وقد أجد مايلذ النفس والجسم فى ملاهى القاهرة وأفاكيه الناس ، ولكننى لاأجد مايلذ العقل والروح فى غير لقائك والحديث إليك .

لقد كنت وأنا فى العزبة كلما أحسست أن هواى يستبد ، وخطاى تتعثر ، وخطاياى تثقل ، كتبت إليك بما اعتزمت أو اجترمت ، فأشعر بما يشعر به المسلم الذى تاب إلى الله فغسل بتوبته حَوبته ، أو المسيحى الذى اعترف للقسيس فمحا باعترافه خطيئته .

كذلك وأنا هنا أحس بأثقال نفسى تبهظ قواى ، فأنا أريد أن أخفف منها بالاعتراف لك بها . وقديما قالوا : لا ذنب لمن أقر . والاعتراف يهدم الاقتراف .

ثم استمرت الفتاة تقول دون أن تنتظر تعقيبى على كلامها أو موافقتى على استرسالها :

ظفرت من أختى وزوجها بالحرية التى لاتحفل التهمة ولا تبالى المراقبة . ووجدت فى ابنة أختى وصواحبها النمط الذى تجمعه وحدة الهوى وتملكه شهوة المغامرة ، فالخروج من البيت غير مقيد بسبب ، والرجوع إليه غير محدد بزمن ، والبيت كالفندق يجتمع فيه أهله للأكل والنوم ثم لايسأل أحد الآخر أين كنت ولا متى عدت !

خرجت أول ماخرجت مع زوزو ابنة أختى إلى معارض الأزياء ومجالى الزينة فى شارع فؤاد . وكنا ساعتئذ فى الضحى ، والشبان يملأون رصيفى الشارع كأنما كانت المدارس فى إضراب أو عطلة . فمشينا مشية العروس فى ثياب الربيع ووشيه ، نقف هنا ونميل هناك ، ونستحسن هذا ونستقبح ذاك ، وزوزو تلمح اللمحة أو تبدى البسمة فتكون مغناطيسا يجذب القلب الحديد ويوهن الإرادة

الصلبة . ثم التفت فإذا وراءنا أفراد وأزواج من الأيفاع والشبان والكهول يوقعون خطاهم على ما نرسم ، ويرهفون آذانهم لما نقول فنبهت زوزو. فقالت : أعلم! ثم مالت بي إلى معرض (شملا) فاخذنا نقلب النظر فى معروضاته من وراء الزجاج ، حتى وقع فى أسماعنا صوت رقيق يدعونا إلى نزهة فى ( كاديلاك ) ، فتشاغلنا فكرر ، ثم تجاهلنا فألح ، ثم تصاممنا فجهر ، ثم تجهمنا فمزح ، ثم تضاحكنا فهجم ، ثم التفتنا ، فأشار إلى السيارة ، فسرنا بجانبه صامتتين شامختين كأنما كنا ننتظر سائقنا ليرجع بنا فى عربتنا إلى المنزل !

كان للفتى رفيق ينتظره فى مكان القيادة من السيارة ؛ فلما رآنا هش بوجهه ورحب بلسانه ثم فتح الباب . فركبنا نحن الأربعة إلى جزيرة الشاى. فشربنا بالأكواب الصغيرة ، وأكلنا فى الصحون الكبيرة ؛ ثم ساعدنا المعد على الهضم بجولة فى الحديقة خرجنا فيها قليلا عن المألوف من المزح والدعابة . حتى إذا فتر الحر وهبت نسمات الأصيل ، ذهبنا نستنشق أنفاس الصحراء من وراء ( مينا هاوس ) ، ثم عدنا فقضينا الهزيع الأول من الليل فى سينما ( ديانا ). ثم رجعنا فى الكاديلاك بعد العشاء إلى البيت ، فوجدنا الصالون قد أخذ زينته ممن حضرن من صواحب زوزو، وكنّ يقضين ساعة انتظارنا فى العزف والقصف والرقص . أخذنا مجلسنا بينهن ، وأخذت كل واحدة منهن تنشر على الأخريات خوافى عيبها ودفائن صدرها ، فاستنتجت من جملة أحاديثهن وحوادثهن أنهن يغامرن إما طلبا للزواج ، وإما رغبة فى المال ، وإما ابتغاء للهو ، وإما حبا للزهو فاللائى يطلبن الزواج يتعرضن للشباب أو الأعزاب ، يترصدنهم فى كل طريق ، ويتصيدنهم بأى وسيلة . واللائى يرغبن فى المال يتوخين الكهول والشيوخ، فيبذلن لهم ظواهر اللذات أو بواطنها ابتغاء الهدايا من ثياب وزينة وعطر. واللائى يبتغين اللهو يخترن ذوى الوجوه الحسان والطباع الفكهة ، فيساقينهم كأساً بكأس ، ويبادلنهم متاعا بمتاع واللائى يحببن الزهو ينشدن أولى الجاه النعمة.

حقيرا كبنهم فى العربات الفخمة ، ويجالسنهم فى المظمى . وهؤلاء جميعا قد ينجحن ، إلا طالبات الزواج فإنهن بالتجربة يخسرن حيث يرجون الربح ، وينقصن حيث يبتغين الكمال .

تركت زوزو تذهب إلى موعد الشابين فى عصر اليوم التالى ومضيت وحدى إلى مواطن الفتنة ومزالق الصبا لأشعر بعزة الاستقلال وأنعم بلذة المغامرة . فما كان أدهشنى حين علمت من نفسى أنى فتانة بالطبع ، خداعة بالفطرة ، ألحظ فيصبو الشيخ ، وأفترّ فيخف الحليم ، وأشير فيعنو المتكبر ، وأطلب فيسخو البخيل ؛ وأقلب فى كفيّ النفوس والقلوب فلا أجد نفسا تتأبه عن ضراعة ولا قلبا يتأبى على امرأة .

أولعت على الأخص بتجار الكلام من المحامين والصحفيين والممثلين لأنهم يحسنون الحديث، ويجيدون الكتابة ، ويجمّلون الواقع . وقد أغويت منهم حتى اليوم أربعة عشر رجلا بين شاب وكهل ، وغنى و فقير ، وكيّس وأحمق ! وسأقص عليك حديث كل منهم لتعلم كيف يجعل الله من الرخاوة سلطانا ومن الضعف قوة . فقلت لها وأنا أصفق للنادل وأتهيأ للقيام :

حسبى يا ابنتى ! لقد رأيت العيِّنة وسمعت البيِّنة . وما أحسبك تذكرين هذه المخازى لتندمى عليها وتتوبى منها ؛ إنما تذكرينها كما تذكر العاشقة ما جرعت من رحيق الحب لتلتذ ؛ وتجترّينها كما تجترّ ( بلانكيت ) ما أكلت من زهور المرج لتهضم . لايغرنك يامسكينة أنك لقيت أربعة عشر خروفا فى السهل وزيادة ؛ فإنك عما قليل ستلاقين ذئبا واحداً فى الجبل وكفى !

## يوم السبت ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٥ :

ظلت الفتاة أسبوعين بعد لقائنا فى الكنتننتال تتردد فيهما على مكتبى ، فلا تجد الفرصة مواتية لتقول مثل ما كانت تقول ، ولا الجلسة خاصة لتسمع مثل

ما كانت تسمع . ثم انقطع عنى عيانها وخبرها فجأة ، فلم أعد أراها فى المكتب ولا أسمعها فى التليفون ، ولا أقرأها فى البريد ، فملات هذا الانقطاع بما يجوز من العلل فى مثل هذه الحال ، ولكنها لم تعدُ أن تكون ظنوناً لا يطمئن عليها البال :

هل عادت إلى القرية ؟ ولكن لماذا لم تودعنى قبل سفرها ؟ ولماذا لم تخبرنى بعودتها وهى تعلم أنى أسر بخبرها ؟

هل أصابها مرض ألزمها الفراش ؟ ولكنها مرضت قبل ذلك فلم يمنعها المرض أن تبعث إلىّ برسالتها مرة وبرسولتها أخرى .

قل قطعت بينها وبينى الأسباب ؟ ولكنها قدمت منى بالسبب الضعيف الذى لا يربط ، فلا ينفعها أن تقطعه ولا يضرها أن تصله . إذن ما عسى أن تكون العلة الصحيحة لانقطاع خبرها عن على هذ الشهر كله ؟

كنت أدير فى خاطرى هذا السؤال حين ألقى إلىّ البريد فى مساء هذا اليوم كتاباً ورقه كذلك الورق . وخطه كذلك الخط ؛ ولكن أسلوبه مختلف وإمضاءه مغاير امَن تكون (زوزو) هذه التى تكتب إلىّ بهذا الطول وتخاطبنى بهذه اللهجة ؟ عرفت بعدما قرأت أنها ابنة أختها ، وأنها تقص علىّ فى هذا الكتاب مأساة خالتها ، وما غاب عنى من عقدة هذه المأساة ونهايتها .

سألخص كتابها فى صفحة هذا اليوم من المذكرات وهو التاسع والعشرون من شهر سبتمبر لأرفه عن نفسى المحزونة بهذا الأسلوب الطريف ، ولأكمل به هذه القصه التى بدأت فى الربيع وانتهت فى الخريف !

قالت الآنسة زوزو ما معناه : أكتب إليك ياسيدى ولست غريبة عن بالك ، فإنك سمعت بى ولا شك من خالتى المسكينة ( ص ) وقد كنت رسولتها إليك فى ذات يوم لوتذكر . ولطالما حدثتنى عن أثرك فى نفسها فأشتهى أن أراك

وخوفتني من رأيك في مثلها فأستحي أن تراني . ولولا أن في ذمتي عهداً لخالتي ورفيقتي أن أقص عليك عاقبة أمرها لما أبحت لنفسي أن أبكيك بذكر الأليمة وخاتمتها المحزنة .

لقد لقيها الذئب فعلا ياسيدي ! لقيها في أصيل يوم من أيام أغسطس الأخيرة ، وكان الحر فيه يزهق النفوس ويضيق الأنفاس ؛ فجلسنا أنا وهي في ( سان سوسي ) بميدان الجيزة نستروح نسيم النيل ونستنشي عبير الرياض . وكان الذئب يجلس إلى المنضدة التي تقابلنا في زي شاب وضيء الطلعة ظريف الهيئة ، فخالسنا النظر وخالسناه ، وأشار أن يجالسنا فجالسناه . وعرفنا من فحوى كلامه أنه مخبر في إحدى جرائد الصباح ، فزويت وجهي عنه لأنه لم يكن من الصنف الذي أتعاطاه . ولكنه كان حسن الحديث حاضر البديهة بارع النكتة لطيف الدعابة ، فاستخفت خالتي ظله وصغت إليه . وقضينا في مقاولة الطرائف والأسمار أربع ساعات كانت أربع سنوات في رفع الكلفة بينها وبينه . ثم عدنا مع الفتى في الترام إلى المنيرة ، وهنالك ودعناه وواعدنا . وباتت خالتي على هوى جديد لم تذق مثله منذ قدمت القاهرة ونازعت الندمان كؤوس الحب !

تجدد بعد ذلك الموعد ، وتعدد اللقاء ، وتأكد الود ، حتى أصبحت تخرج وحدها إليه ، فيقضيان أو اخر النهار وأوائل الليل متنقلين في القاهرة بين مقاهيها وملاهيها ، وبين أرباضها ورياضها ، فيتساقيان اللهو ، ويتقاسمان الصفو ، والشاب يبذل لها من الوعود مقدار ما تبذل له من النقود ؛ فيزعم أن أحد الأحزاب المعارضة سينشىء له صحيفة ، ويشتري للصحيفة مطبعة ؛ ويبني للمطبعة داراً ؛ وأن رئيس الحكومة قد بلغه ذلك ، فهو يساومه على قلمه الحوّل القلّب ؟ وعقله الخرّاج الولّاج ، بمورد ذهبي يتفجر في بيته كل شهر من خزانة الداخلية وخزانة الحزب ، وهو على يقين جازم من أحد الموردين إن لم يكن من كليهما . ولذلك

أمر سماسرة البيوت أن يبحثوا له عن دارة فى المعادى ، ووكلاء السيارات أن يسجلوا اسمه على سيارة ( بويك ) ؟

ماذا تصنع خالتى وقد جمع الله لها كل أمانيها فى هذا الصحفى الشاب ؟ حب مكنون يملأ شعاب القلب ، ومنطق معسول يلائم هوى النفس ، ومستقبل مأمون يضمن رفاهية العيش ! أخلدت إليه بالثقة ، ورفَّت عليه بالأنس ، وقبلت أن تزوره فى غرفته الخاصة على سطح من سطوح المنازل الحقيرة ! وهنالك رأت أن ثروة الشاب لاتزيد على بدلة نظيفة فوق جسمه ، ولسان ذهبى فى فمه ، وطمع أشعبى فى قلبه ! ولـكن الهوى يعمى ويصم ، والشباب يغوى ويضل ، والشراب يغرى ويجرىء . فباتت لأول مرة فى بيت غير بيتها ، من دون إيذان لرفيقتها ولا استئذان من أختها !

وفى الصباح أفاقت المسكينة من سكرة الهوى، فأحست بمعرة الذنب ! فقالت له وهى تمزج الدم بالدمع : ما علاج هذا الأمر وأخى لا يزال على حفاظ أهل الصعيد : يفرق بين الحرية والإباحة ؛ وبين المدنيــة والتبرج . فهو يسامح الا فى الشرف ، ويغضى إلا عن العرض ؟

فأجابها الفتى باسماً : العلاج الزواج . وكان قد علم من قبل أن لها مالا مدخراً وأرضاً مستغلة ؛ فالزواج له فرصة ، ولـكنه لخالتى غصة . فقالت له : إن أسرتنا تشترط فى الزواج التـكافؤ فى الطبقة والثروة ؛ وحالك على ما أرى لاتطمعك فى رضا أهلى . فقال لها الفتى فى إصرار وقوة : المهم أن نستر بالزواج جريمة العرض ؟ أما جريمة الفقر فجريرتها هينة ، وعقوبتها محتملة . وسنجابه أخاك بالأمر الواقع فيثور قليلا ثم يسكن ، ويغضب طويلا ثم يرضى .

وصارحت الأخت أختها بالحادث والحديث ، فباركت أمى الخطبة وأقرت الزواج . واتفقت الحماة والعروسان على ليلة العقد وحفلة الزفاف . وتسامع الناس

بالخطبة المفاجئة والقران الخفي ، فظنوا الظنون ، وتقولوا الأقاويل ، وأبرق بعضهم بهذه الشائعات إلى خالي فلم يبت إلا في القاهرة .

تطلب مني المحال إذا طلبتَ أن أصف لك كيف دخل خالي الصالون فوجد المأذون وبيده الدفتر ، وأبي وبإزائه العريس ، وأمي وبقربها العروس ، والبواب وبجانبه الشاهد الآخر . وهؤلاء جميعاً شملهم السكون وغشاهم الوجوم فكأنهم يودعون مريضاً يحتضر أو يشيعون ميتاً بدفن . . . تصور أنت بخيالك هذا المنظر الأليم على أبشع ما يكون المجلس عبوساً وجهامة ، وفي أشنع ما يكون الجلوس خزياً وندامة .

سلم خالي ايماء باليد ثم جلس وعيناه تلتهبان من الحنق وشفتاه ترتجفان من الغضب ، والتفت إلى أمي وقال لها بصوت فيه روعة القضاء ورهبة القدر : متى كنا يلافلانة نزوج بناتنا في مثل هذا المكان ، ومن مثل هذا الإنسان ، في غيبة عن الأهل وخفية من الناس ! لقد سبقتمونا إلى (المدنية) ! فلم يعد رأينا متفقاً في معنى الشرف ولا شعورنا متحداً في إدراك الكرامة ! ثم لحظ العروس البائسة وقال لها بلهجة صارمة : إذهبي يافاجره فأعدي حقيبتك وسأنتظرك أمام البيت .

حاولت أمي أن تجيب لتبرر الموقف المريب ، وهمّ أبي أن يتكلم ليدفع الخطر الداهم ، وأراد المأذون أن يفتي لينقذ العقد المهدد؛ ولكن خالي أزلقهم[1] ببصره ، ثم خرج وهو يتسعر من الغيظ وينتفض من الغضب كأنه لم ير أحداً ولم يسمع كلاما . وقضى هو وأخته الليل في أحد الفنادق ثم ركبا أول قطار إلى العزبة . والقوم هناك ياسيدي يرجمون بالظنون ! فبعضهم يظنون أنها سجينة

---

(١) أزلقه ببصره : نظر إليه نظر المتسخط .

القصر ، وأكثرهم يعتقدون أنها دفينة القبر . والأمر الذى لا مرية فيه أنها خرجت من دنيا الناس .

* * *

هذه قصة فتاتى ، وما أظنها تختلف كثيراً عن قصص أكثر الفتيات اليوم ! ذهبت غفر الله لها ضحية للتربية المهملة ، والرقابة المغفلة ، والتعليم الفاسد ، والقدوة السيئة ، والقصص الماجنة ، والصحف الخليعة ، والسينما المثيرة !

فهل يضطر الذين لا يزالون لسوء حظهم يغارون ، إلى أن يعودوا فيسألوا الله العصمة من ولادة البنات ، أو يقولوا كما كان يقول الجاهليون : وأدُ[1] البنات من المكرمات !

---

(١) وأد الرجل ابنته : دفنها حية خوف العار : وكان الوأد عادة بعض العرب فى الجاهلية فنهى الإسلام عن ذلك .

من ذكريات القرية

# قصة حشاش

( ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٠ )

كان تدخين الحشيش فى أيامنا الخوالى مقصوراً على صعاليك الناس ، يجلبونه فى السر ، ويدخنونه فى الخفاء ، ويلوذ بعضهم ببعض زرائب القرى وخرائب المدن ، فراراً من النظرات الجارحة والغمزات المهينة ، لأنهم كانوا فى رأى المجتمع أقل قدراً وأذل نفساً من معاقرى الخمر ومتعاطى الدخان . فبينما كان الخيال الحايد يصور الكأس جمالا بين يد مترفة ووجه وضىء والسيكارة جلالا بين يد قوية وثغر جرىء كان يصور الجوزة قذارة بين يد خشنة وفم بذىء ! فلما عمم ( البوليس ) تداول الحشيش فى كل بيئة ، ويسر تناوله على كل طبقة ، بفضل مطاردته الدائبة لجالبيه ومهربيه ، ومصادرته المستمرة لبائعيه ومحرزيه ، أصبحت الكأس لا تلذ إلا معه ، والسيكارة لا (تكيف) إلا به . وأضحى ذلك الشىء الحقير القذر يصان فى حقيبة يد المرأة ، وفى حافظة نقود الرجل ، وفى محفظة كتب الطالب ، وفى درج مكتب الموظف ، ولا يسمى الرجل متمدناً ولا متقدماً إلا إذا أخذ منه وأعطى ، وأتحف به وأتحف ! وأمسى الحشيش والحشاشون فى صدر المجتمع وفى عين الدولة ، لهم ذكر فى الصحف ، ومواد فى القانون ، وقلم فى البوليس ، ومحكمة فى القضاء ، ومهربون من حجاج البيت ، وموردون من رجال السياسة ، ومصدرون من إخوان العروبة ! ولا جرم أن هذا الطبل الذى

لايسكن نقره ، وذلك المزمار الذى لاينقطع زمره ، هما اللذان جذبا إلى الحشيش النظر ، وجعلا للحشاشين والمهربين هذا الخطر ! والمحظور منظور ، والممنوع متبوع ، والإعلان إعلام !

أين من حالهم اليوم حالهم بالأمس ؟ كنا لا نراهم إلا فى النادر ، ولا نسمع بهم إلا فى النكت والنوادر ومن وقع منهم فى الرؤية أو فى السماع كان موضع التنكير والتحقير حتى يتوب أو يموت . إقرأ هذه القصة ثم وازن فى نفسك بين حال الحشيش حين كان وازعه الدين والخلق ، وحاله حين أصبح وازعه القانون والبوليس :

كانت قريتنا حين وعيتُ لانفهم من الحشيش إلا العشب ولامن الحشائش إلا من يحش البرسيم . وكان ظرفاؤها ممن يغشون المدن يروون لأهلها الأضاحيك عن الحشاشين فى القاهرة فيحسبونهم صنفاً من الناس تميزوا بالنكت والحيل والمعارف ، حتى طرأ عليهم رجل فقير ضرير يلبس الطربوش التركى والعباءة الجوخ والجلباب الصوف ، ولكنه مقطوع الأسباب ، فلا هو سائل فيعيش على الإحسان ، ولا هو حافظ فيتكسب بالقرآن . إنما كان رجلا مهذب النفس حلو الحديث ، بارع النكتة ، يحسن الغناء ويجيد النقر على الدف ، فأحسنوا لقياه وأكرموا مثواه ، وأفرد له عمدة القرية حجرة خارج الدور جعل منها دكانه ومجلسه ومضجعه . وكان يختلف إلى هذه الحجرة فى كل مساء بعض الشيوخ ممن يحبون غريب السمر ، و بعض الشباب ممن يطلبون لهو الحديث . وكان عباس ، — وهو اسم ذلك الرجل — يتنقل بالجلوس من جد إلى هزل ، ومن غناء إلى عزف ، فيعجب ويطرب ، ولكن أمتع ما فيه كان الدعابة والنكتة ، كانت نكتة على طريقة (اشمعنى ؟) وكانت دعاباته تأتى من طريق

التورية : وكان يركب بهاتين الطريقتين أو بإحداهما ثلاثة من خلطائه وخلصائه: فقيها أعمى وطحاناً أعشى وفلاحاً أعور ، فلا يدرى أحد منهم كيف يدفع عن نفسه . كان هؤلاء الثلاثة يبقون إذا انصرف السمار ، فيغلق الفلاح الباب ، ويوقد الطحان النار ، ويهيء الفقيه الجوزة ، ويُعدّ عباس القرص ، ثم يتعاقبون الغابة نفَساً بعد نفَس . وكان عباس قد أخبرهم منذ اطمأن إليهم أن هذا هو الحشيش الذى يفتق ذهن الغبى ، وينطق لسان الأبكم ، ويرهف حس البليد ، وأنه هو الحشاش الذى تحفظ نكته ، وتروى حيله ، وتطلب فتاواه . فلم يخامرهم شك فى قوله ، لأنه هو نفسه الدليل على صدقه . فأقبلوا على المدخنة القذرة يأخذونها للشهيق والزفير ، ويتركونها للسعال والشخير ، حتى أصبحوا مدمنين لا يطيقون صبراً عن الحشيش ، ولا يستطيعون بعداً عن عباس . وكان لابد للحشاشين الجدد أن يساجلوا فى (القافية) الحشش القديم ، وإلا فما جدوى الحشيش عليهم إذن ؟ نجح الأعمى كل النجاح ، ووفق الأعشى بعض التوفيق ، وأخفق الأعور غاية الإخفاق ؛ لأن غباء ذهنه كان أكثف من أن يلطُف ، وغشاء حسه كان أصفق من أن يرق . ولكنه كان قوى الإيمان بالحشيش فلم يؤمن بالواقع . وأقبل المساء وغصت الحجرة كعادتها بالشبان والأحداث ، فلهوا بالحواديت ، ثم تساجلوا بالفوازير ، ثم تجاوبوا بالمواويل ثم أخذ عباس يرسل النكتة بعد النكتة فيقهقه لها الحضور ، ويرد عليه الفقيه والطحان فتتباح لردها الصدور ، وتنصب النكت على الفلاح انصباباً فيحاول أن يردها عن نفسه فيفغر فاه ، ويرعش رأسه ، ويهز يده ، ويحاول أن ينطق فتنشب فى حلقه الحروف ولا تخرج ، ويتردد فى صدره الصوت ولا ينطلق ، فيسخر منه الجلوس ويتناولونه بالعبث المؤلم فلا يسعه إلا الانصراف . وفى أثناء الطريق تواردت على خاطره شبهات فى قدرة الحشيش على حل العقدة من اللسان ، ولكنه

دفعها بما فعل فى الفقيه والطحان ، وعزم أن يضاعف المقدار . فلما رجع إلى (غرزة) العباس بعد انصراف الناس ، كرر الشد ، وعمق النفَس ، وطول النوبة . وفى آخر الليل استدعى رفاقه واختلس قطعة كبيرة من الحشيش ، وظل فى داره النهار كله يقتطع منها القطعة على قدر حبة الفول ، ويذيبها فى فنجان من القهوة السادة ثم يجرعها . فعل مرتين ثم أراد أن يفعل الثالثة فلم يستطع . لقد أخذته حال من الخدر الشديد فصار يأكل ولا يشبع ، ويشرب ولا يرتوى ، ويتكلم ولا يعى ويضحك ولا يكف . وكلما رأى أحداً من أهله أو من جيرته قال له بلهجة متلكئة متقطعة متكلفة :

إنت تمشى — اشمعنى ؟ زى الحمار ! أه أه آه !

إنت تاكل — اشمعنى ؟ زى الفول ! أه أه آه !

فينظر إليه السامع مشدوهاً ولا يضحك ، فيرفع (المسطول) الصوت ، ويعيد النكتة ، ويردد الضحكة ، ولكن المشدوه يظل واجماً لا ينطق !

وفى المساء تحامل الأعور على نفسه حتى بلغ مجلس اللهو ، ولم يكد يدخله حتى قال بلهجة المنزِّل المسطول : أنت يا عباس ! فأجابه عباس مبتهجاً ، اشمعنى ؟ فقال له : أعمى ! أه أه آه ! وانتظر هو ماذا يقول الناس ، وانتظر الناس ماذا يقول عباس ، فإذا الناس يصيخون ، وإذا عباس يصيح ! أهذه نكتة يا نصف أعمى ؟ ثم انفجر بالنكات الساخرة فى وجه الحشاش المخدوع حتى ألجأه إلى الخروج فخرج خزيان يهذى . وعاد إلى داره وهو يشعر أنه الليلة خير منه البارحة ، لأنه قال على كل حال شيئاً . وكان قد عرف من عباس أين بياع الحشيش فاشترى منه مقداراً كبيراً وأخذ يذيب منه فى القهوة ويشرب . وكل ساعة من ساعات النهار والليل كان يرتقب وحى الحشيش فلا ينزل ، وينتظر ذكاء الحشاش فلا يقبل ، فيضاعف المقدار ويزيد الوجبات ، حتى هزل جسمه ، وشحب

لونه ، واختل هضمه ، واعتل صدره ، واضطرب عصبه ، وساء خلقه ، واعتراه الهمود ، ولزمه الوسواس ، فصار لا يعمل فى غيط ولا فى بيت ، ولا يفكر فى زوج ولا فى ولد ، وإنما كان أكثر يومه نائماً ، فاذا أفاق هذى بالنكت الباردة والدعابات السخيفة . وفى غشية من غشيان المخدر باح بالسر المكنون فقال وهو يضرب بيده على صدره : أنا الحشاش الأصلى ، لأننى أشرب الحشيش بالفنجان ، وعباس وصاحباه حشاشون مقلدون ، لأنهم يكتفون منه بالدخان !

وتسامع الناس بالسر المفضوح فتحاموا الأعور حتى نفق من الخبال ، وقاطعوا الأعمى والأعشى والأعمش حتى هلكوا بالسلال !

# صديق الكلاب

## — ١ —

شرب عبد الواحد[1] وسقانى ثلاثة أقداح من الشاى العطر . ثم أطلق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضأ[2] النار بأنامله وشيع ضرمها فى بقية الفحم . ثم أشعل منها سيكارته العربية وأرسل فى رفق دخانها الرقيق الأدكن ، وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام . وكان كلبى الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوى وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهب . فرأيته يطيل النظر إليه فى طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له مداعباً : لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهى فى خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة وقال . الحمد لله ما ذكرت على فقرى حياة البر[3] منذ هجرته ، ولكننى ذكرت رجلا كان فى بغداد يدعى ( أبا الكلاب ) . فسألته وما حديث أبى الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟ فلمع فى عينيه البشر ، لأن سروره كان فى أن يتحدث وأسمع . وذهب به شىء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم مالا أعلم يرفعه قليلا فوق قدره . لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ويلهج لهجة الأمير ويقرر تقرير العالم .

قصّ علىّ هذه الأقصوصة وهو منها على يقين جازم . وما كان أسرّنى وأسرّك لو استطعت أن أنقلها إليك بلغته الجميلة التى تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية . على أننى سأحاول ما أمكننى القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة

---

( ١ ) عبد الواحد رجل بدوى كان يقوم على خدمتى وأنا ببغداد

( ٢ ) حضأ النار : حركها لتشتعل ( ٣ ) يريد البادية .

تـكشف عن أثرها فى نفسه وفعلها فى نفسى .

— ٢ —

كان فى بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تعتز بنسب العرب من جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم . فهى مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لايجمع بينهما غير الدين فى مثل هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسباباً لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القريبة . فالوالدان صالحان تقيان لايفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن ، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان عن دار السلام وفروق [1] إلا أنهما بلدان فى طريق واحد . والوالدان جميلان باران يكـبرُ الذكر منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معا من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا فى حنان الأبوين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافق .

لم يشغل عبد الواحد بالله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة. فـكان كلامه عنها مرسلاً مجملاً لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ؛ حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد فى ذكرها ما يفيد الحديث !

فهو يحذف ما يزعه فضولا ويسير قُدُما إلى هيكل الموضوع وعقدة الحادث فيقول : إن الغلام كان عمره اثنى عشر ربيعاً حينما صحب خاله إلى الأستانة . والآستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة إلى السطوة أو الثروة أو العلم . فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه ، أو تخفيفاً عن أبيه ، أو مساعدة لخاله على تدبير متجره وماله ؟ كل ذلك كان يجهله راوى الحديث ،

(١) دار السلام : بغداد : وفروق : الأستانة .

فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم فى إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه وعونه ؛ ثم اندفع فى غمار المدينة الصاخبة يداور ويلتمس المكاسب ؛ ثم أوغل فى مدن البلقان وشعاب الأناضول ، حيناً فى خدمة الجيش ، وحيناً فى طلب العيش ، حتى انقطع عِلْم ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الأخطار فى كل فج ، ويصارع الأقدار فى كل لج . وكل همه أن يجمع من المال مايضمن له ولأسرته خفض العيش فى ظلال بغداد الجميلة . فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان واأسفاه ربيعه قد أدبر وربعه قد أقفر وحلمه قد تبدد ! فإن والديه البائسين قد ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما فى حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين . وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوى المروءات من أهل البيوتات فضمها إلى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه .

* * *

عاد المهاجر إلى وطنه يحمل فى جيبه المال وفى قلبه الأمل فما وطئت قدماه ثرى العراق الذهبى حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره ولكن شعوره بلذة العودة إلى الأرض التى أبصر عليها الدنيا ، والسماء التى تقبّل منها الروح ، والهواء الذى رف عليه بالصبا ، والماء الذى نضح قلبه بالنعيم ، والأسرة الحنون التى براه إليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذى ينتظره فى بغداد . كل أولئك قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح ما به .

عرف المحلة والدار بعد لأيٍ[1] لطموس المعالم القديمة . ثم قرع الباب بيد مرتجفة ، فإذا المالك الجديد يخرج إليه ! فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعاً يسأله: هنا كان مهبط نفسى فأين أبى؟ وهنا كان مسقط رأسى فأين أمى ؟ وهنا كان لى مهد وأخت وملعب وجيرة . فقل لى بربك ياسيدى أين تحمّل بكل هؤلاء القدر؟

(١) بعد مشقة .

وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله. فارتد إلى الفندق لا يملك دمعه ولا قلبه. ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب، ويعالج مضض الهموم، حتى رأم الزمان والإيمان جروح صدره.

— ٣ —

وقع فى نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم أسرته، فاقترحت عليه جارة له عجوز أن تخطب إليه فتاة يقولون إن بينها وبين بنى فلان عاطفة رحم. ويؤكدون أنها تنزع إلى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المحتشم. فاطمأن قلب الخاطب إلى رأى الخاطبة؛ واختلفت العجوز بينه وبين ولى الفتاة حتى تم الوفاق وسُمى الصداق وعينت ليلة الزفاف.

زفت العروس إلى زوجها، فبهره ما رأى من جمال، وما أحس من ظرف، وما سمع من أدب فافتر فى وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه. ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه. وفى ذات ليلة تجاذب الزوجان أطراف السمر وشققا بينهما الحديث حتى أفضى إلى علاقتها بوليها فلان (بك)، فأحب الزوج أن يعرف درجة القرابة بينهما. فغضت الفتاة من طرفها، وشاعت حمرة الخجل فى وجهها، وقالت فى صوت خافت متهافت من الخزى والخوف « الحقيقة أن ليس بينى وبين هذا الرجل قرابة! إنما هو نبيل محسن آوانى وربانى بعد ما فجعنى البين فى أخى والموت فى أبى، وأنا يومئذ فى حدود الثانية عشرة. ثم تتابعت الأسئلة من الزوج، وتسارعت الأجوبة من الزوجة؛ وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه، واقشعر بدنه، واشتد وجيب قلبه. وكانت هى كلما رأت منه ذلك نسبته إلى انخداعه فى أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع، عسى أن تعطف قلبه على مصابها

فلا يفكر فى طلاقها وعذابها . ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الأخير حتى زوجها قد قفّ شعره وارتعدت أطرافه ، ثم انفجر صارخاً يقول : واو يلتاه ! لقد تزوجت أختى ! ثم خر مغشيا عليه . فلما ثاب إليه بعض رشده نظر إلى أخته فوجدها فاقدة الوعى ، فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لا يلوى على شىء ولا يلتفت إلى أحد !

— ٤ —

خرج طريد القدر من بيته خروج أوديب الملك[1] من قصره . ثم هام فى الطرق الضيقة المتشابكة يسأل الرائح والغادى عن مفتى بغداد . فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه الشيخ التركى بعقابها ، وبالغ فى جرائرها وأعقابها ، ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن الله لا يغفر هذا الجرم إلا إذا اصدف عن متاع الحياة ، وخرج عن أثيل الملك ، واستتر بأخلاق الثياب ، وقضى بقية عمره فى جمع الخبز للكلاب الشوارد !

أذعن الخاطىء البرىء لحكم الفقيه الأحمق ونزل للزوجة الأخت عما يملك ، وارتدى طمراً من القطن الغليظ ، وجعل على عاتقه مخلاة ، ومضى يقرع كل بيت ، ويقصد كل مطعم ، فيجمع الفتات والخبز ثم يقف بالميدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحى !

لم يمض غير قليل حتى عرفة الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشى فى الأزقة وخلفه منها قطيع ، وينام فى العراء وحوله من شدادها حرس مطيع . تحين الوجبة العامة فلا تجد كلباً طليقاً فى بغداد إلا أجاب نداءه ، وتناول من يديه المحرومتين غداءه . ولكن الوالى رأى على طول الزمن أن يدى أبى الكلاب

(١) فى الأساطير اليونانية أن أوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه . فلما نفذ القضاء على غير علمه فقأ عينيه وخرج من طيبة هائماً تقوده ابنته إانتيغون .

على رعيته عافية وربيع ، فسمن هزيلها ، وكثر قليلها ، حتى اختنق بلهاثها النهار ، وصُم بنباحها الليل ، وأصاب الناس من عضاضها وأمراضها شر كبير ، فأقام في ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الضوارى وألقوها فيها . فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب إلى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها . ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح .

وفي ضحوة يوم من الأيام أولم الوالى لأسراه وليمة السفاح لبنى أمية ، فما نجا من بعدها لاهث ولا نابح : وجاء أبو الكلاب فرأى ألافه الخلصاء على أديم الأرض صرعى ، لا يتماقن بعين ، ولا يبصبصن بذنب ! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى ، صريع اليأس ، ولبث مكانه لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه

# بصيرة

— ١ —

— ما أجمل هذا الصوت ! من أين مصدره ؟

— من صوب النهر يامولاى .

— إن حلاوته وإيقاعه لينبئان عن ظرف بارع وصِباً نضر .

لعلها قينةٌ فى زورق من زوارق المخنثين[1] ترفُ على لهوهم الماجن بالغناء والحسن كالعادة .

— مل بنا إلى الشاطىء فلعلنا نرى مصداق مانسمع .

وكان الرجل الذى سأل وأمر طويلاً بدين الجسم أشقر اللحية على وجهه جلالة السلطان وعزة الملك . أما رفيقه الذى أجاب وأطاع فكان مساوياً له فى العمر ، ولكنه كان ربعة القوام رقيق البدن أزهر اللون ، تتوسم الظرف من ملامحه ، وتتبين الذكاء فى ألفاظه . وكانا يلبسان ملابس التجار ويمشيان مشية المستطلع بين القصور الناعمة القائمة على دجلة من كرخ بغداد فى أصيل يوم من أيام أبريل . وعلى ثلاث خطوات منهما كان يسير رجل وثيق التركيب عظيم البسطة يلحظ لحظات الصقر ويرعاهما بعين النمر . وكانت دار السلام يومئذ فى أيام العروس[2] منذ عهد الرشيد ، قد تجمعت فيها الدنيا ببهجتها وزينتها وفتنتها وثروتها ، فهى أشعة من الجمال والسحر ، وظلال من الرخاء والبشر .

---

( ١ ) كان يطلق هذا الاسم فى بغداد على أهل الترف واللهو والفتوة ( أولاد الذوات ) .
( ٢ ) كان الناس يسمون عهد الرشيد لرخائه وجماله أيام العروس

ونسمات من الرّوح والعطر ، وأخيلة من الحب والشعر ، ومتَع من نعيم التمدن الإسلامى القائم على لذة الروح والجسم ، وسعادة الدين والدنيـا ، وراحة النفس والناس .

* * *

واتجه الرجلان وتابعهما الصامت نحو الصوت فجرهما إلى بستان مشرف على النهر قد جلست على عريش من عرائشه الـكاسية بأشتات الرياحين والزهر جارية فى وفرة الجمال وزهرة العمر ترسل هذا اللحن الغزلى الشجى الضارع كأنما تهدهد به حباً لا يهجع ، وتناجى به حبيباً لا يسمع !

فدار بين أعظم الرجلين وبينها هذا الحوار الرقيق .

— لعلك تودين أن يكون لهذا الغناء الساحر سامع !

— لو كنت أوده لما عز علىّ أن أجده .

— وهل خلق الله مثل هذا الصوت ليتبدد فى الهواء ويضيع فى هذه الخلوة؟

— سل البلبل حين يبعث الشدو هل يبعثه إلى أذنك وسل الشمس حين ترسل الضوء هل ترسله إلى عينك وسل الزهرة حين تبث العطر هل تبثه لأنفك؟

— تبارك الله ! براعة فى الغناء وبراعة فى الذكاء وبراعة فى الحسن ! ماذا تسمين ؟

— بهيرة .

ولمن تـكونين ؟

— لسيدى على بن وهب .

قالت ذلك بهيرة ثم حيت الرجل وصاحبيه وانطلقت بين أشجار البستان

كأنها عروس من عرائس المروج ازدهاها الربيع فطفرت من المرح راكضة راقصة

— لقد وقعت بقلبي هذه الجارية ياجعفر .

— إذا شاء أمير المؤمنين كانت فى ملكه من الغد .

— ٢ —

وفى غد ذلك اليوم انتقلت بهيرة بالشراء إلى قصر الرشيد بالرصافة ، وكان يموج بالحور والولدان موجان الفردوس ، حتى بلغ ما فيه من السرارى والقيان زهاء ألفى جارية من الروميات والكرجيات والجركسيات والعربيات والحبشيات يرفلن فى الأفواف الموشاة بالذهب والعصائب المرصعة بالدر ، والمناطق المنسوجة من العسجد ؛ ويخطرن بين دوائر الحرم مَوَائس من الدلال ، نشاوى من الحسن ، ينفحن بالفتون والحب كما تنفح الزهور العاشقة بالعطور المغرية فى ميعة الربيع . . .

أحلها مسرور الخصى مقصورتها الأنيقة بين مقاصير سحر وضياء وخنث[1] وأفاض عليها من الوشى والزينة والحلى ما جعلها قطعة من الفن والجمال الخيالى لاتبلغها قريحة شاعر ولا عبقرية مصور . وانغمرت بهيرة فى فيض الجمال والنور والترف واللذة ؛ ولكن هذا القصر الذى لاثانى له فى دنيا الناس لم يستطع بما فيه من النعيم الدافق والسرور المتصل واللهو المختلف الأشجار المحمولة من كل أرض والأطيار المجلوبة من كل سماء ، والأواوين المنجدة بالديباج والإبرسيم ، والبرك المزدانة بالتماثيل والدمى ، والسلطان الذى خضع له الدنيا ، والجلال الذى اعتز به الدين ، لم يستطع بكل أولئك أن يمسح عن وجه بهيرة هذه الكآبة الغاشية

---

(١) هن الحظايا الثلاث اللاتى استأثرن بهوى الرشيد حتى قال فيهن :

إن سحراً وضياء وخنث ... هن سحر وضياء وخنث

أخذت سحر ولا ذنب لها ... ثلثى قلبي وترباها الثلث

ولا هذا السهوم الملح ؛ فقد كانت أشبه بالوردة المقطوفة على المائدة الغارقة فى السرور الطافحة باللذة . تذوى وتموت وكل ما حواليها يزدهى وينتعش . فهل كان قصر الخليفة أضيق من قصر التاجر ؟ أم كانت سيادة ابن وهب أندى على قلب بهيرة من سيادة الرشيد ؟ واقع الأمر أن هذه الحال لم تطرأ على بهيرة فى عيشها الجديد ، وإنما كانت تلازمها وهى فى ملك ابن وهب . وقد تذرع هذا بالطب والحيلة واللهو إلى أن يرفه عن جاريته المحبوبة فما كانت تزداد على عنايته بها ورعايته لها إلا هما على هم ، حتى استراب فى حبها إياه فحاول أن يصل إلى سرها ويعرف متجه هواها فما استطاع فلما ساومه النخاس عليها بالثمن الربيح نزل عنها غير آس ولا آسف .

كانت بهيرة قبل عامين قدوهبت قلبها الخالى المنتظر لسرىّ من سراة بغداد الظرفاء فشغله كله . تغلغل السر ، وشاع به شيوع السرور ، ثم تقلبت عليهما الأيام والأحداث وهما ثملان من رحيق الحب ، وادعان فى ظل الأمان ، حتى نزل بالفتى ما ينزل بالمترفين المقبطلين من كساد الحال وهجوم الفاقه . فباع كل ما يملك .ثم عاش على الأمانى فترة من الدهر ورأى فى آخر الأمر أن من الإخلاص لحبيبته ألا يحمّلها وزر إسرافه وعواقب طيشه ، فباعها ، على الرغم من تشبثها به وإيثارها إياه ، على ابن وهب .

ودأب يزورها يوماً بعد يوم وهى فى قصر ابن وهب من وراء الحديقة ومن خلال السور وهى تنتظره فى العزيش الذى رآها فيه الخليفة يوم تنكره ، فيتساقيان كؤوس الهوى ، ويتناقلان حديث المنى ، ويتشاكيان حرقة الوجد . وينظران نظرات الأسى المرير إلى دجلة والشباب الأحباب يشرقون على وجهه إشراق البسمة العذبة على ثغر السعيد ، فيذكران كيف كان هذا النهر الخالد مسرحاً لصباها اللاهى ، وشاهداً على حبهما الخالص ، كيف نظر إليهما الدهر[1]

(١) نظر الدهر إلى فلان : أضره أو أهلكه .

الخؤون فتقوض الربع الآهل ، وتفرق الشمل الجميع ، وآل الآمر بهما إلى أن يكون بين قلبيهما عاذل لا يُتغفل وبين جسميهما حاجز لا يُقتحم.

كانت بهيرة وهى فى قصر ابن وهب تستطيع أن ترى سليمان وأن تتحدث إليه وأن تترك للأقدار الرحيمة إسعاف حبيبها البائس بالثروة المرجوة فيستردها إلى ملكه ؛ ولكنها انتقلت الآن من عش الحمام إلى غيل الأسد ! فمن ذا الذى يستطيع الدنو من قصر الخلافة ؟ لقد ضرب الدهر بينها وبين حبيبها إلى الأبد ؛ فلا هو يستطيع إليها الدخول ولا هى تستطيع إليه الخروج ؛ فكأنه مات من دنياها وماتت من دنياه . وبيت الخلافة لأمثالها قصر فى الأول وقبر فى الآخر !

— ٣ —

على أن الهوى كالسكر لا يعرف المحال ولا يحس الخوف ولا يبصر العاقبة. فقد احتال سليمان حتى ظفر بثياب خادم من خدام جعفر بن يحى . فكان يدخل قصر الرشيد فى هذا الزى فلا يرتاب فيه الحراس ولا ينكره الخدم . وعرف مقصورة بهيرة فكان يتسلل إليها فى الظلام أو فى الغفلة ، فيقضى معها ساعة من النهار أو هزيعاً من الليل ينضحان فيه غرامهما المسعور بالحديث المعسول والقبل الندية .

وفى ذات ليلة طغى عليهما الحب وعصفت برأسيهما الصبابة فتولدت فيهما ناشئة من الأمل والعزم . قال سليمان وهو يثبت نظره المتوقد فى بهيرة الساجى.

ــ لقد أعددت عدة الخلاص ومهدت لك سبيل الهرب .

ــ وماذا أعددت ياسليمان ؟

ــ أعددت لك هذا الثوب الغلامى ، فالبسيه واخرجى تحت الليل حين تخشع الأصوات وتهجع العيون ولا يدخل ولا يخرج الا رسل الأسرار بين

قصور السادة والقادة . وسأكون فى انتظارك لدى مشرع القصب من دجلة

فقالت بهيرة ودمعها الساجم يتقاطر على خديها تقاطر الطل :

— أنسيت يا سليمان أنى ملك الخليفة فلا أخرج منه إلا بالبيع أو بالعتق ؟

— لم أنس يا بهيرة ، ولكن الخلاص بغير ذلك محال .

— وكيف يصفو لنا العيش يا سليمان وهو شقاء متصل بمعصية الله وخيانة الخليفة ؟

— بربك يا بهيرة أخفتى هذا الصوت فى نفسك ، وفكرى قليلا فى بؤسى وبؤسك . ليس لى غيرك وليس لك غيرى . أما الخليفة فله ألفا جارية ، وله أضعافهن إذا شاء . والله يا بهيرة يغفر الذنوب جميعاً .

— ألا تظن يا سليمان أن العذاب فى الحب عذب ، وأن الموت فى سبيله شهادة ، وأن هذه الساعة التى نتلقى فيها على غفلة من الرقيب بين الخوف والأمن و بين اليأس والرجاء ، أدنى إلى الحب الصحيح والسعادة الحق من العيش الغرير الناعم على مهاد الرذيلة ؟

أطيعى الهوى يا بهيرة واعصى العقل . فإن العشاق لا يعيشون بعقول الخليين ، ولا يخضعون لقوانين المجتمع . وأسلس لسليمان الدمع والكلام فأوشك أن يحمل بهيرة على رأيه ولا أن قرع باب المقصورة قارع عنيف ، فاستطير قلب العاشقين من الرعب وأيقنا بالهلاك المحتم .

وفتح الباب ودخل مسرور قهرمان القصر وسيد الموالى وحاجب الرشيد ومعه نفر من الحراس . فأمر بالقبض على سليمان ، وكان قد سمع بآذان جواسيسه ما دار من الحديث بينه و بين بهيرة .

— ٤ —

سيق العاشقان إلى مجلس الخليفة الخاص متهمين بانتهاك حرم الخلافة والمؤامرة على الفرار والخلوة الأثيمة . فسألهما عن جلية الخبر فأجاباه بصحته . واستفهم الشهود عن تفصيل الحديث فأدلوا به على نصه . وكان الخليفة مفتوناً بهيرة لما جرَّب عليها من الوفاء والذكاء والصدق فعفا عنها . ودفع بسليمان إلى مسرور ينفذ فيه حكمه .

فتقبل العاشق المنكود الحكم عليه قبول من راض نفسه على التسليم بالقضاء المحتوم والأمر الواقع . وذهب به الموالى إلى لقاء الموت ، ولبثت بهيرة في حضرة الخليفة شاخصة لا تطرف ، واجمة لا تنطق ، كأنما أخرجها الجمود عن الحياة ، وفصلها الذهول عن الوعى ثم رأرأت[1] بعينها في سكون ، وحركت لسانها ببطء ، وألقت بنفسها على قدمى الخليفة وهى تقول :

مولاى : إنى أعلم أن الجريمة إذا مست الشرف ضاق بها العفو وقصُرت عنها الشفاعة ؛ ولكنى أعلم كذلك أن حلمك لا يستحقه غضب ، وأن عفوك لا يتعاظمه ذنب ، فهب لى دم سليمان فقد جنى عليه حبى ، وسعى إلى عدمه وجودى . وهو يا مولاى برىء الساحة صادق النية سرى الخلق .

فقال لها الخليفة : إن هذه الجريمة تُنسى بوجهها الوقاح صورة . الرحمة . فاسأليني ما شئت إلا العفو ، فإنى لا أمنح إلا ما أملك .

فقالت بهيرة : إذن تعدنى يا مولاى ألا يُقتل حتى أراه .

فقال لها الخليفة : لك هذا الوعد .

---

(١) رأرأت : بعينها : قلبت حدقتهما وحددت النظر .

وأرسل وراء الجلاد يأمره أن يرد عليه سليمان قبل أن يمضى قضاءه فيه .

فلما خرج الرسول أدارت بهيرة بصرها فى السماء والفضاء والطبيعة ، ثم أرجعته وهو يفيض بالدمع والأسى ، ورددته فى نواحى البستان ، وفى جوانب المكان ، وفى مرايا الجدران ، وفى حللها الذهبية ، وفى حليتها اللؤلؤية ، وفى وجه الخليفة ؛ ثم أدخلت إصبعيها فى محجريها فاقتلعت بهما عينيها !

فصاح بها الخليفة وقد أفزعه مارأى :

— ويحك ماذا صنعت بنفسك ؟

— فديت بعينىّ حبيبى يامولاى !

وكيف ذلك ياحمقاء ؟

ألست وعدتنى يامولاى ألا يُقتل حتى أراه ؟ فالآن لاأراه ولا يُقتل .

* * *

كان أثر هذا الحادث بالغاً فى نفس الخليفة ، فبسط على العاشقين جناح رحمته ، ومهد لهما الحياة السعيدة فى ظلال نعمته . وقنعت الفادية العمياء من دنياها بالعيش على نور الحب وفى كنف الحبيب !

من أقاصيص البادية :

# مأساة شاعر

في اليمن الخضراء ، وفي صنعاء ذات الظل والماء ، نشأ ( وضاح ) أزهر اللون ، أصهب الشعر ، مليح القسمات ، رقيق الأديم . ثم ترعرع بين خمائل الأودية ومروج السهول وأزاهير الربى فازداد رواء وجهارة .

وإذا كان الجمل يكتسب لون الصحراء ، والسمك يستفيد مرونة الماء ، والطاووس يستعير أفواف الروض ؛ فان اليمانيين لم تصلهم بطبيعتهم ولا بيئتهم صلة . فهم سمر الوجوه ضئال الجسوم قصار القدود ، وأرضهم مشرقة الأجواء مونقة المناظر خصبة التربة . لذلك رابهم وضاح بقدر ماراعهم ، فقالوا إنه من أبناء الفرس الطارئين على اليمن في عهد ابن ذي يزن ، ولكن الحكم سفه هذا الرأي وقضى بعربيته .

لا يعنيك ولا يعنيني أن نكشف عن دخيلة هذا الشاب فنصف تاريخ أسرته وحقيقة ثروته وطبيعة عمله ، وإنما يعنينا من وضاح ذلك الفتى الطرير الذي أشقاه شعره وأبأسه شعوره وقتله جماله .

نريد أن ننقل عن لوح القدر هذه الصفحة الدامية التي كتبت لهذا البائس وجرت عليه في غير رفق ولا هوادة .

* * *

كان وضاح الجميل الشاعر كالبلبل يعرف في نفسه جمال الريش وجمال الصوت ، فهو لا ينفك في حذر من الصائد وفي خوف من القانص . فكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنع منتقب خيفة الحاسد وحذر المرأة !

ولـكن المرأة كانت تعترضه بكل سبيل ، وتترقبه فى كل مرصد ، وتتراءى له فى كل مكان ، تحت النخيل ، وفى الأسواق ، وعلى الماء ، وهو لا يزداد إلا تمنعاً وترفعاً ووحشة ؛ لأنه محبوب ومن طباع المحبوب الإدلال ، ولأنه مطلوب ومن غرائز المطلوب الهرب . ولم يجد مع ذلك فيمن رأى من النساء روحا جذابة ولا قوة غلابة ولا جمالا أبرع من جماله . على أن وضاحا خلق للحب وكتبت عليه فيه الشهادة ؟ فعيناه على غير علمه ترتادان الحبيب ، وقلبه من قلقه وانتظاره يضطرب فى حنايا صدره ، وعواطفه من اضطرامها وانبساطها تـكاد تسيل . وكان يفر من ضوضاء صنعاء ومتاجرها وقوافلها إلى سكون البادية الرهيب ، وهدوء الطبيعة الموحش ، فيقضى سحابة نهاره جالسا فى روضة ، أو مستلقيا على غدير ، أو نائماً فى مغارة : كأنه نبى من أنبياء بنى إسرائيل ينتظر الرسالة !

— ٢ —

فى صباح يوم من أيام الربيع مشرق الأديم عنبرى النسيم منضور الخمائل استهوته الطبيعة فأخذ يضرب الأرض حتى طلع النهار ، وإذا هو على ماء من أمواه (الخصيب) من قرى اليمن . وفى الخصيب شد الجمال أطنابه وشاد الحب معبده . والعرب يقولون فى التحذير من فتنته : إذا بلغت أرض الخصيب فهرول !

فجلس وضاح ينضح ظمأه ويرفه عن نفسه إلى أن طاف به الـكرى فنام.

تنبه وضاح ساعة الأصيل على صوت رخيم الحواشى ، متسق النبرات فى رنين الفضة . فنظر فرأى حورية من حوريات الحقول قد حسرت عن ساقها وغمست رجلا فى الغدير ووضعت رجلا على الحافة وهى منحنية على الماء تجمع ثوبها بيد وتملأ سقاءها بيد . فرجف قلبه وبرق بصره وندت منه حركة لفتتها فرفعت بصرها إليه فى سكون طرف وفتور لحظ . وكأنها همت بالنـكوص

لولا أن رأت منه ما رأى منها . فلبثت جامدة لا تتحرك ، شاخصة لا تطرف ، بل أحست من نفسها الهفوان إليه حين تقابل النظران وتجاذب القلبان ومشى هو إليها مشية الحباب فى حياء ووناء ورقة .

حياها فردت التحية ، واستنسبها فانتسبت كندية ، واستسماها فقالت (روضة)

ثم جرى بينه وبينها حديث الشباب الحيي المضطرب الحائر . . ويكاد يكون يكون واحداً على اختلاف الألسنة والأزمنة والأمكنة فلا نثبته . وكيف نثبت كلام الناظر للناظر ، وتدفق الخاطر فى الخاطر ، وعناق القلب للقلب ، وامتزاج النفس بالنفس ، ولحن اللسان للسان ؟

كانت روضة كما تشتهى كل فتاة أن تكون فهى كما صورها وضاح فى شعره : « وضيئة الطلعة ، مصقولة الجبين ، يزينه شعر أثيث أشقر كذنب الكميت . زجاء الحاجبين قد تقوسا على مثل عين الظبية : ساجية الطرف، عبلة الذراعين ، لا ترى فيهما عظما يحس ، ولا عرقا يجس » .

وجد كل منهما فى الآخر مشابهة فى زهرة الوجه وصهبة الشعر وهجنة النسب بالدم الفارسى ، فتعارفا بلحظة ، وتفاهما بلفظة ، وتآلفا تآلف الأخدان كأنما كانا على موعد !

طوت شمس الطَّفل الغاربة مطارفها العسجدية عن السهول والفياض فلم يبق منها إلا هلاهل على رءوس التلال وشعاف الجبال وأعراض النخيل ، وأخذ الرعاة يروحون بالقطعان إلى الحظائر ، وآن للراعية الحسناء كذلك أن تؤوب ! فقامت روضة متثاقلة ، وودعت الشاعر متخاذلة . وسارت وراء قطيعها تتهادى فى مرطها الملفوف ونطاقها المحبوك وخمارها الأسود كأنها إلـهة الرعاة أو تمثال الحسن !

تلاقيا مرة أخرى فى سرة الوادى المعشب وقد عملت فيه يد الطبيعة فأزَّرته

بفنيم النبت ، وطرزته بألوان الزهر ، وضمخته بعبير الخزامى وريا البشام وأرج الرند . فجلسا ساعة تحت دوحة يتساقطان عذب الحديث، ويتناشدان حلو الغزل . ثم نهضا يسيران صاعدين تارة فى مدرج السيل ، وهابطين تارة إلى قرارة السهل ، يجنيان الكمأة[1] ويلتقطان الجزع المفصل[2] . فلما نفضت الشمس على الأفق الغربى تبر الأصيل تواعدا على اللقاء بعد أن شق عليها رداءه وشقت عليه برقعها استدامة للحب على عادة البدو فى تلك العهود .

— ٣ —

ظل العاشقان يلتقيان فى غفلة الزمان والإنسان كل يوم على خلاء ، حتى نم على هواهما شعر وضاح ، فتنبه الغافل وتحرش العاذل وتحذر الأهل فحالوا بينها وبين لقائه وتوعدوه .

فكان وضاح يأتى كل يوم على عادته فيجلس فى الأماكن التى اعتاداها ، ويرتاد الفياض التى ارتاداها ، ويستروح النعامى فلا يجد قراراً فى مكان ، ولا جمالا فى طبيعة ، ولا روحا فى أرج ، فيدنو من الخصيب يترصد غفلة القوم ويتنسم ريح روضة ويقول :

يهـــددونى كيما أخافهمُ هيهات ! أنى يهدد الأسد ؟

حتى لقى ذات مساء عبدها الذى كان يرعى عليها رائحا بالقطيع إلى مُراحه، فحمله رسالة إليها يطلب فيها أن توافيه على الكثيب متى غفت العين وهدأت القدم فوافته فى إحدى أترابها ، فجلسا على الحصباء يتشاكيان حرقة الجوى وتحكم الهوى وتعقب . وأخذت روضة تحكى لوضاح كيف استفاض الخبر وخاض فيه الناس ، وكيف حجبها إخوتها وراقبوها بعين لا تغفل ، وذكرت له والدمع يتقاطر من عينيها أنهم صمموا على رفض خطبته ، وقرروا

(١) الكمأة : نبات يقال له شحم الأرض وهو جذر مستدير كالبطاطس لا ساق له ولا عرق يوجد فى الربيع تحت الأرض ويؤكل نيئاً ومطبوخاً .

(٢) الجزع بالفتح . الخرز اليمانى وهو الذى فيه سواد وبياض .

تزوجها من موسر كثيف الظل جافى الخلقة ، وحذرته أن يدنو من الحى فإن قومها يأتمرون به ة

على جوف وضاح وعصفت فى رأسه الحمية ، ونزت بقلبه الصبابة ، وعقد نيته على معالجة الأمر بالحزم ، ومواجهة الخطر بالصراحة ، وقرر زيارتها فى دارها بعد هذا الحوار البديع الذى خلده وضاح فى هذه القصيدة .

قالت . ألا لا تلجن دارنا    إن أبانا رجـــل غائر
قلت : فانى طالب غرة    منه وسـيفى صارم باتر
قالت : فإن القصر من دوننا    قلت : فانى فوقـه ظاهر
قالت : فان البحر من دوننا    قلت : فانى سابح ماهر
قالت : فحولى إخوة سبعة    قلت فإنى غالب قاهر
قالت : فليث رابض دوننا    قلت : فانى أســد عاقر
قالت : فان الله من فوقنا    قلت : فربى راحم غافر
قالت : لقد أعييتنا حُجة    فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى    ليـلة لاناه ولا زاجز

وفى الليلة التالية كان وضاح فى طريقه إلى الخصيب . وكان إخوة روضة وعمومتها يرصدون سبيله ويطلبون لقاءه ، بعـــد أن علموا من الرقيب اجتماع الكثيب . وكانت الحبيبة على علم بخروج القوم وقدوم المحب المخاطر فطرقت مضجعها الهموم ، وتخالجت قلبها الوساوس ، وخذها عليه المقيم المقعد .

لم يطل انتظار الجماعة للفرد فتلاقوا وراء الوادى . ثم كان عتاب على الأشعار الجارحة ، وسباب على الشهرة الفاضحة ، وقتال انتهى بطعنة تلقاها المحب فى موضع حبه . ثم خلا المكان إلا من جريح يئن وفرس يحمحم . وتحامل على نفسه وضاح فضمد جرحه وركب جواده وقفل راجعاً إلى أهله .

فقضى المسكين شهرين على فراش الألم يتضور من ضربان[1] الجرح وهذيان الحمى وثوران الحب . ولكن الجرح كان قريب الغور فاندمل ، والحمى كانت عارضة فأقلعت[2] . والحب ؟ هذا هو المرض المخامر والداء العياء ، فليس له غير الله من آس ولا طبيب . لذلك نصحوا لوضاح أن يحج البيت فشد إليه رواحله . وسنلقاه هناك بعد قليل .

— ٤ —

أذن مؤذن الحج للمرة الثمانين بعد الهجرة ، فسالت فجاج الجزيرة بالقباب والهوادج ، وشرقت دروب الحجاز ومسالكه بالناس رجالا وعلى كل ضامر ، واكتظت بطاح مكة ورباعها بالحجيج من الشام والعراق واليمن ، ودوى الفضاء المشرق بأصوات التهليل والتلبية ؛ وروى الثرى المكروب من دماء البدن[3] والضحايا ، وتمطر الجو القائظ بأنفاس الحسان الغيد ، وفاضت أندية مكة النبيلة بالقصف والعزف والغزل ، وخرج الشعراء من بنى الأنصار والمهاجرين فى مطارف الخز وبرود الوشى على النجائب[4] المخضوبة ، يتعرضون للغوانى المحرمات ويقطفون من فوق شفاههن اللعس ألفاظ الدعاء قبل أن ترفع إلى السماء !

وهناك على الربوة العالية ضُرب الفسطاط الرفيع العماد ، وفرشت الطنافس ، ونصبت الأرائك ، وصفت النمارق ، ونضدت الوسائد ، وقامت الجوارى والولائد ، وعلقت السدول والستائر ، وبرزت من خلالها زوجة الخليفة فى زينتها وفتنتها ترسل النظر تارة إلى الأفق البعيد ، وتارة تتصفح به الوجوه المختلفة والأزياء المتعددة ، والناس يتحامون جانبها ويتهيبون ظلالها لهيبة الملك وشراسة الجند

(١) ضرب الجرح أو الضرس ضربانا : اشتد وجعه (٢) أقلعت الحمى : زالت .
(٣) البدن جمع بدنة وهى ناقة أو بقرة تنحر بمكة ، سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها
(٤) النجيبة الكريمة من النوق . والمخضوبة : ما خضبت بالحناء .

وجلال الخلافة . حتى الشعراء من شباب الهاشميين وخلفاء ابن أبى ربيعة لم يجرؤوا أن يمدوا إلى جمالها الفاتن عيناً ولا لساناً ، لأن الخليفة كتب يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن تبعها . ولكن الملكة تريد على رغم الملك أن تكون من عرائس الشعر وأن تظهر فى ديوان الشاعر كما ظهرت فى ديوان الملك . والشعر فى الحجاز كان حينئذ المرآة ، يصف حالها ويعرض جمالها فتصل من طريقه إما إلى الزواج وإما إلى الشهرة . فتراءت الملكة للناس وسهلت للغزلين(1) الحجاب .

وكان وضاح يومئذ مشغولا عن الشعر والشعراء بنفسه ، فهو يطوف بالبيت ويتعلق بستور الكعبة ، ويسأل الله أن يشعب قلبه بالسلوة حتى إذا خرج الحجيج إلى عرفات ، وتطالت الرُّقاب ، وتطلعت العيون ، وأومأت الأصابع إلى موكب الملكة الحاشد ،جذبه جلال الحاجّة النبيلة وجمال وصيفاتها فدنا من فلكها فوجد كهنة الحب وشياطين الشعر يسايرون ركابها ويراقبون سناها فمشى بجانب الشاعر كثير . ووقعت عين الملكة عليه فراعها جماله وعلقتها حباله . فأشارت بطرف العين إلى جاريتها غاضرة فأثبتت معرفته .

فلما أفاض الناس من عرفات ، وانحدروا إلى مرمى الجمرات ، وقفت بجانبه فتاة فتانة ناهد ، وأسرت إليه وهو يرجم الشيطان أن الملكة تريد لقاءه فى مخيمها على ( منى ) .

اضطرب وضاح لهذه الإرادة وخشى عاقبة هذه الدعوة ، وتردد طويلا فى الذهاب إلى الموعد ، لأن هذا الحب الملكى أكبر من عواطفه ، ولأن قلبه الجريح لا يزال يقطر فى لفائفه ، ولأن خيال ( روضة ) يعتاده فى جميع مواقفه . ولكنه عربى والعربى طماع طماح مخاطر . فلما ذا لا يبذ الشعراء ويكبت الأعداء بالسبق إلى جمال الملكة ومال الخليفة ؟

---

(١) الغزلون : المتغزلون بالنساء .

أمسى المساء ، وكان هلال ذى الحجة قد توارى بضوئه الشاحب خلف الجبل ، وأخذت الأضواء المنبعثة من بواقى المشاعل والمصابيح والكوانين تكافح ظلمة الغسق ، وألقى الناس أوراقهم[1] على الرمال مجهودين بعد نهار قائظ احمرت حواشيه من دماء القرابين ، وضرب الكرى على آذان العامة فلم يبق يقظانَ إلا ذوو الحس الرقيق ممن جرهم جمال الليل إلى جمال السمر ، وإلا نفسان شاعرتان بسط الحب عليهما جناحه وأزال ما بينهما من فروق ، ورفع ما يفصلهما من حواجز ، حتى التقى ابن آدم ببنت حواء وجهاً لوجه . وأقبلت الملكة على وضاح اليمن تناقله الحديث وتساجله الشعر ، وتنصب له شرك الفتنة فى مطاوى اللفظ ، وتسدد إلى قلبه سهم الغواية فى مرامى اللحظ . وحسبنا أن نروى من هذا الحديث المشقّق العذب هذا الحوار :

— وكيف حال روضة بعدك ياوضاح ؟

— على شر حال واأسفاه ! زوجوها من موسر مجذوم فأعداها بالجذام !

— وما حالك أنت من بعدها ؟

— أما قبل هذه الليلة فكنت لا أنتفع بنفسى ولا أشعر بوجودى

— ومنذ الليلة ؟

— منذ الليلة عرفت نعيم السماء بعد ما عرفت فى الخصيب نعيم الأرض

— إذن ستحبنى ؟

— نعم ولو خيرت ما اخترت

— وستنسب بى فى شعرك ؟

— نعم ولو كره الخليفة

---

( ١ ) الأرواق : جماعة الجسم

— إذن اصحبني إلى دمشق فامدح الخليفة ، وسأرفدك لديه وأقوى أمرك عنده .

— ٥ —

وعلى نهر بَرَدى وفى القصر المشيد زكت شجرة الحب حتى عرشت على كل حائط ، وسطعت فوحتها فى كل أنف ، وتهدلت أغصانها المزهرة على سرير الخليفة ، ودنت قطوفها المحرمة من فم المجنون وليلاه ، فأكلت منها حواء وجرت إلى الخطيئة آدم ! وآدم دائما هو الذى يكفر عن الخطيئة !

ظل وضاح ابن الطبيعة الطليقة سجينا فى قصر الخليفة لا يبصر سماء ولا أرضا ، ولا يرى غديرا ولا روضا ، ولا يسمع حركة ولا صوتا ، ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه الملكة من مخبئة ساعة يغفل الرقيب وتغفو العين المريبة ، فتطارحه أحاديث الغزل ، وتسقيه من سلاف الهوى عللا بعد نهل ، ثم ترده عند الخوف إلى مأمنه .

ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفّت عليهما ظلال الأمن فيها ؛ ولكن وجه الجريمة وقاح لابد من سفوره ، وريحها زفر مهما تكتمه فلا مناص من ظهوره . والخطيئة لا يطهرها إلا عقوبة أو ضحية !

أهدى إلى الخليفة ذات يوم جوهر نفيس فراقه حسنه . وأحب أن يطرف به الملكة . فبعث به إليها مع خادم له ومعه كلمة رقيقة . فمضى الغلام بالتحفة إلى مجلس الملكة فلم يجدها . وعلم أنها فى بعض الغرف فدخلها عليها مفاجأة ، وكانت قد أحست بخطاه دون الباب فبادرت إلى إخفاء وضاح فأدخلته فى صندوق وأغلقته . وحينئذ دخل الغلام فرأى أواخر جسمه تغيب تحت الغطاء . فأدى إلى الملكة الرسالة ودفع إليها الجوهر ، ثم قال لها بلهجة الخبيث الماكر : ألا تهبين

لعبدك يامولاتى حجرا من هذا الجوهر ؟ فأجابته الملكة بلهجة العزيز المتمعض:
« كلا يا ابن اللخناء ولا كرامة ! »

ولعلها لو كانت تحسن قراءة الوجوه لحشت فمه بهذا الجوهر حتى لا ينطق؛ أو لعلها فهمت لحن قوله ولكن نفسها الملكية الأبية أنفت الخشوع لهذا العبد فآثرت نقمة زوجها على نعمة خادمه وهى مع ذلك قوية الثقة فى شفاعة الجمال ووساطة الحب ! ومهما تكن الدوافع إلى هذا الجواب فإن الخادم قدارتدإلى سيده بجليه الأمر . ولكن الأمر نزل من خليفة معاوية فى بال واسع . فأمر بالغلام فوجئت[1] عنقه . ثم لبس نعليه ودخل على زوجته وهى جالسة تمشط شعرها فى تلك الغرفة . فجلس على الصندوق وقد علم وصفه من الغلام، ثم قال بلهجته الهادئة الرزينة :

ما أحبّ إليك هذا البيت من بيوتك ، فلم تختارينه يا أم البنين ؟
اختياره وأجلس فيه لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب

— ألا تهبين لىَ صندوقاً من هذه الصناديق !
— كلها لك يا أمير المؤمنين !
— ما أريدها كلها ؛ وإنما أريد واحداً منها .
— خذ أيها شئت .
— أريد هذا الذى أجلس عليه .
— خذ غيره ، فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها .
— ماأريد غيره !

---

(١) وجاء عنقه : ضرب عنقه

— إذن خذه يا أمير المؤمنين .

فأشار إلى الخدم فحملوه إلى مجلسه . ثم أمر العبيد فحفروا تحت بساطه بئراً بلغوا بها الماء . ثم دعا بالصندوق أو الناووس وقال له :

« إنه بلغناشيء . فان كان حقاً فقد كفناك ودفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر . وإن كان باطلا فقد دفنا الخشب ، وما أهون ذلك ! » .

ثم قذف فى البئر ، وهيل التراب ، وسويت الأرض ، ورد البساط ، وأخذ الخليفة مجلسه ، واستمر الفلك يدور دورانه الأبدى المنتظم .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر !

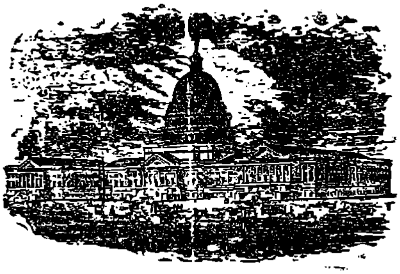

# الفهرس


| الموضوع | صفحة |
|---|---|
| **مقالات** | |
| بعد الاعتكاف | ٥ |
| تباشير الجامعة العربية | ٩ |
| أذكروا يازعماء العرب | ١٢ |
| أحمد ماهر المجاهد الشهيد | ١٥ |
| معروف الرصافى | ١٩ |
| الرصافى وأغا خان | ٢٣ |
| نهاية دكتاتورين | ٢٨ |
| وزير أديب | ٣٣ |
| نريد دار للترجمة يا معالى الوزير | ٣٨ |
| لا ... هذا الطريق لايؤدى | ٤٢ |
| أوروبا والإسلام | ٤٧ |
| حوار سياسى بين شيخ وشاب | ٥١ |
| جمال الدين الافغانى | ٥٥ |
| أعداؤنا الثلاثة | ٦٠ |
| حل حاسم لمشكلة الأزهر | ٦٥ |
| إصلاح الأزهر | ٦٩ |
| آفة الشرق هذا الغرب | ٧٤ |
| وعينا القومى ينضج | ٧٩ |
| من مخلفات الحرب هذا الطبلاوى أفندى | ٨٣ |
| لمن الملك اليوم؟ | ٨٨ |
| من مذكراتى اليومية | ٩٣ |
| من ذكريات الطفولة | ٩٩ |
| المسلمون فى معترك الخطوب | ١٠٢ |
| بلاغة الرسول | ١٠٥ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| محمد إسعاف النشاشيبى | ١١٠ |
| إدارة الصغير إدارة الكبير | ١١٥ |
| أول ما عرفت شوق | ١١٩ |
| أسرة طيبة | ١٢٤ |
| أسرة منبوذة | ١٣٢ |
| الإسلام دين القوة | ١٣٩ |
| قروية فيلسوفة | ١٤٣ |
| أنطون الجميل | ١٥٠ |
| أحقاً مات على محمود طه ؟ | ١٦١ |
| محمود حسن زناتى | ١٦٥ |
| على جبل النور | ١٧٠ |
| الوضع اللغوى وحق المحدثين فيه | ١٧٥ |
| الإسلام والمذاهب الهدامة | ١٨٦ |
| على طه بين المهد واللحد | ١٩١ |
| حياتى | ١٩٥ |
| أدب اللذة وأدب المجون | ١٩٩ |
| حاضر الأدب العربى | ٢٠٦ |
| **فصول قصار** | |
| قصة النمل الأبيض | ٢١٦ |
| خليفة نابليون | ٢١٨ |
| نهضة العرب مشكلة ! | ٢٢٠ |
| الثغر يضحك | ٢٢٢ |
| رحم الله أودلف هتلر | ٢٢٢ |
| أولياء وأعداء | ٢٢٦ |
| فى ميدان عابدين | ٢٢٨ |
| الجامعة الإسلامية هى الغاية | ٢٣٠ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| أحمد عرابى المفترى عليه | ٢٣٢ |
| نحن والظالم أمام القضاء | ٢٣٤ |
| القوة هى الحق ! | ٢٣٦ |
| قولوا استعدوا ، ولا تقولوا اتحدوا | ٢٣٨ |
| الطابور الخامس فى حرب الكولرا | ٢٤٠ |
| يا أغنياءنا ! قولوا أسلمنا ولا تقولوا آمنا | ٢٤٢ |
| لا إله اليوم إلا الهوى | ٢٤٤ |
| صليبية من نوع جديد | ٢٤٦ |
| حسن ، مرقس ، كوهين | ٢٤٨ |
| من علامات الساعة | ٢٥١ |
| لله جيش مصرا | ٢٥٣ |
| أدبنا وهذه الحرب | ٢٥٥ |
| مالى لا أكتب ؟ | ٢٥٧ |
| عاهل الجزيرة | ٢٧٧ |
| أحمد حسنين | ٢٦١ |
| يوم عظيم لسورية العظيمة | ٢٦٣ |
| مثل الشيخ | ٢٦٥ |
| صديق توفيق الحكيم | ٢٦٧ |
| فكاهة لها مغزى | ٢٦٩ |
| مثل للمهذبين من بنى آدم | ٢٧١ |
| النقراشى الفقيد الشهيد | ٢٧٤ |
| حج غير مبرور | ٢٧٧ |
| الرجل الذى فقدناه | ٢٧٩ |
| خاطرة | ٢٨١ |
| أدبنا فى السماع | ٢٨٤ |
| رؤيا مزعجة | ٢٨٦ |
| رحم الله صديق المازنى ! | ٢٨٩ |
| يظهر أن يوم الانتخاب قريب | ٢٩١ |
| الشيوعية على المصطبة | ٢٩٣ |
| ليس بعد الدين وازع | ٢٩٥ |
| الصيف ضيعت اللبن | ٢٩٧ |
| إسماعيل صدقى | ٢٩٩ |
| **الأقاصيص** | |
| قصة فتاة | ٣٠٣ |
| قصة حشاش | ٣٣١ |
| صديق الكلاب | ٣٣٦ |
| بهيرة | ٣٤٢ |
| مأساة شاعر | ٣٥٠ |